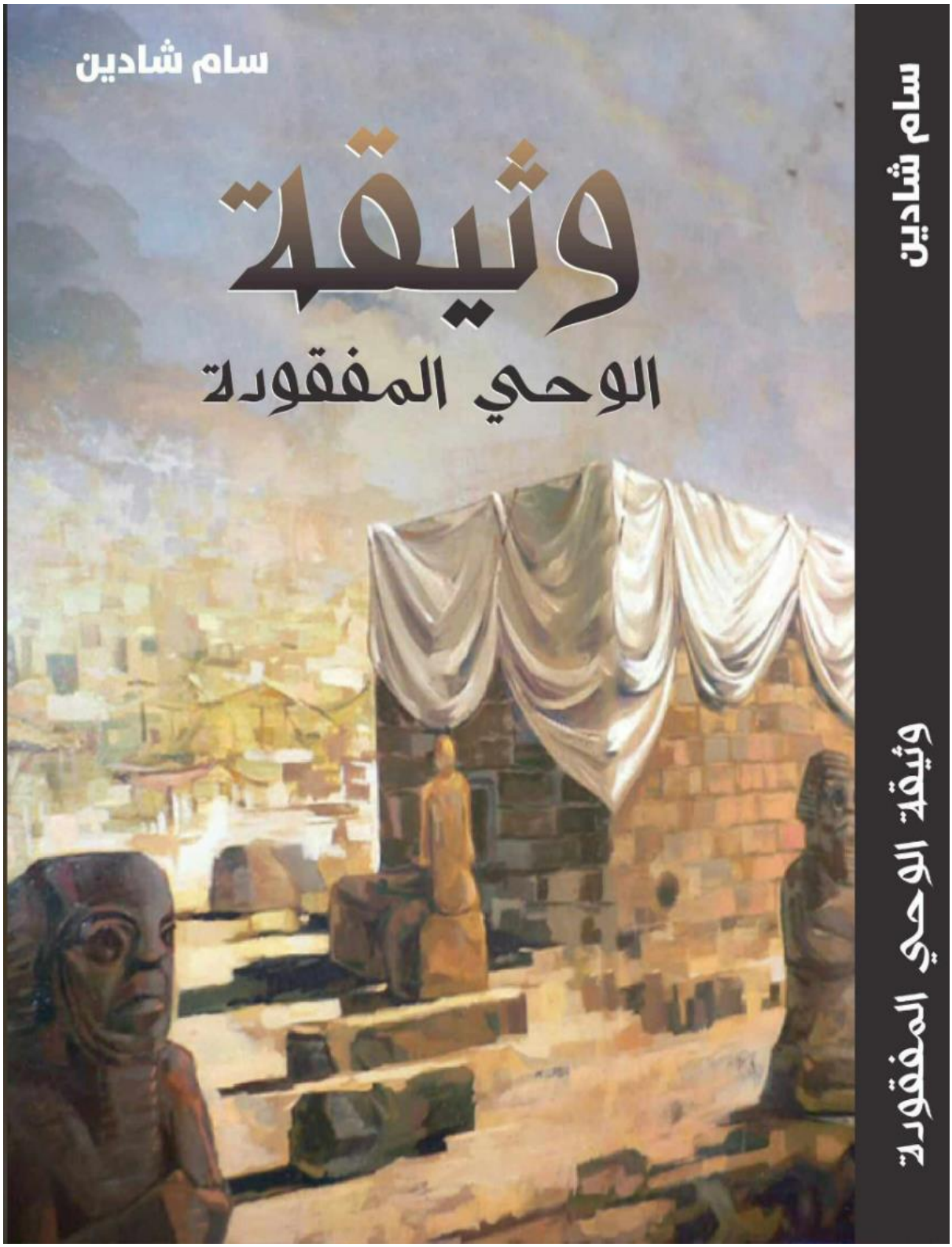
سام شادين
وثيقة
الوحي المفقود
سام شادين
وثيقة الوحي المفقود

سام شادين

وثيقة الوحي المفقودة

رواية

معظم أحداث هذه الرواية من وحي الخيال، ولا علاقة لها بالواقع من قريب أو بعيد، إنها تشبه الحلم في المنام، ولا يمكن لأحدٍ أن يحاسب الحالم على ما رآه..

قرية الدير

خرج من الحُديدة في فجر الخميس، قاد سيارته عازما قضاء عطلة الاسبوع عند خالته ريحانة. بدت البلدة التي وصل إليها للتو خضراء غنية بالمياه والمزارع، وهذا يعني أن موت المواليد فيها ليس له علاقة بنقص الرعاية الصحية أو سوء التغذية، بل لشيء آخر ينبغي اكتشافه. ورغم نقاء الطبيعة واخضرارها، شعر أن هناك عيون خفية تراقبه. كان بعض الرجال يحفرون قبرا صغيرا في المقبرة، فألقى عليهم التحية، ولحسن حظه أنه مازال يعرف اسم خالته وصفاتها، لذا أشار له أحدهم إلى جزءٍ من البلدة، وهناك قرب بيت قديم صغير وجد خالته تطعم بقرتها، نظرت إليه بشيء من العجب والخوف وهو يتقدم نحوها بتصميم، فقال لها بحياء:

"هذا أنا نصر! لم تعودي تزوري منزلنا يا خالتي"

أوشكت أن تسأل عما يعنيه ثم عدلت كأنما تذكرت شيئا:

"أوه، نصر ابن أختي، أهلا وسهلا. كيف الحال؟"

"أنا في أحسن حال"

وسمحت له أن يتناول يدها ويقبل ظاهرها، ولمح في عينيها تساؤلا طفيفا عن سبب قدومه المفاجئ، رغم ذلك، لم تفصح شيئا عما ينتابها من ارتياب. وقالت:

"لقد كنت صغيرا يوم زرتكم آخر مرة، لكني انقطعت بعد موت أمك"

بدت كبيرة مرهقة بملابسها السوداء التقليدية، وجهها الصغير مازال يحمل أسرارا دفينة تحاول أن تخفيها، وتابعت بشيء من الضجر:

"هيا ندخل المنزل، لا شـك أنك متعب وتود أن تتناول الغداء مبكرا لتعود إلى قريتك، أخبرني هل كل شيء على ما يرام في منزلكم"

أجاب بصوت هادئ:

"بالطبع، الجميع بخير، لقد جئت للتو من جامعة الحُديدة، وأنا متعب حقا، ولا أظن أن بوسعي العودة في هذا اليوم"

كشرت خالته ريحانة قائلة بغيظ:

"ليس بوسعك المبيت بالقرية، كما ترى الزيود لا يحبون الغرباء"

رد بعجب:

"هل تعرفين السـبب يا خالتي؟ هناك شـيء غريب في هذه القرية! أشـعر أن ثمة شـر في هذا المكان، رأيت الرجال يحفرون قبرا لطفل، ولاحظت أن معظم القبور صغيرة الحجم"

ظهر القلق في عينيها ثانية، وقدمت له كأسا من الشاي، وهمست:

"لا ترهق نفسـك بالبحث يا بني، ولا تخبر خالك عطا، فهو ثرثار غاضـب يعاني من الأرق، وتراوده مؤخرا كوابيس وأحلام غريبة، وأخشى أن يجن أو يرتاب به الفقهاء فيعذبونه"

وتابعت باهتمام:

"سأطارد الدجاجة، وأعد لك الغداء في وقت مبكر، فأنا سعيدة بزيارتك التي لا شك أنها تخفي سببا وجيها"

رد مبتسما بامتنان:

"اذهبي وراء الدجاجة يا خالة ريحانة، سنتحدث لاحقا"

وسـرعان ما أقبل زوج خالته عطا الأهدل الذي كان خارج المنزل وسـمع عن قدوم ضـيف إلى منزله، كان يرافقه أحد الفقهاء الزيود الذي ما لبث أن سأله بطريقة آلية عن اسمه، وصفة قرابته بالعائلة، وسـبب زيارته للقرية، فأخبره عن السـبب الظاهر وهو أنه اشـتاق

لرؤية خالته بعد زمن طويل من الغياب. بدا الرجل دمثا مرتديا ملابس شعبية لا تختلف عن ملابس السكان الأصليين في شيء، تأمله نصر بدقة، وتجرأ وسأله عن سبب اهتمامهم بمعرفة أسماء الزوار والقادمين، فأقسم الرجل ضاحكا أنه نفسه لا يعرف السبب، وأنه يتصرف كجندي يطلب منه القائد أن يفعل شيئا ما، وقد اعتادوا أن يفعلوا ذلك منذ زمن طويل، ولا يدرك هل مازال هناك أحد من الزيود يدرك سبب هذه الاجراءات، لكن لا ريب أن وراء ذلك سر، ونصحني بلطف أن أغادر القرية قبل حلول الظلام. حين ذلك، سألته إن كان بوسعي السير في القرية والفرجة على معالمها، فضحك من قولي وأشار إلى الخال عطا قائلا:

"بوسع هذا الرجل الطيب أن يأخذك إلى بناء الدير القديم وإلى المدرجات الزراعية أيضا، فالقرية ليست معسكرا حتى تطلب إذنا"

ارتدى الخال عطا معطفه، وتناول عصاه الخيزران التي يأخذها لمناسبات مهمة مثل السفر أو التجوال، وتقدم ماشيا بأناة وصبر في الطريق إلى الدير، تناثرت البيوت يمنة ويسرة في بقعة واطئة أسفل الجبل، بدت بيوت الزيود مميزة بالشعارات الدينية التي تمجد النبي قُثَم، منتشرة حول المسجد القديم الذي يقيمون فيه الشعائر والموالد النبوية، تنهد الخال عطا بشكل مفاجئ وقال بصوت خافت:

"لم أعد قادرا على النوم بسبب الكوابيس والرؤى الغريبة التي تنتابني هذه الفترة!"

رد نصر بتعاطف:

"سمعت خالتي تتحدث عن أرقك وكوابيسك، تظن أنك تتفوه بأشياء مجنونة، وهي تخشى أن تبوح بشيء ما يغضب الأهالي"

تكلم الخال بغضب:

" سأجن حقا، ما أقسى أن تعيش وسط أشخاص لا تستطيع أن تبوح لهم سرا"

وافق نصر بكلمات حادة توحي بالتأنيب:

"هذا قاس جدا حقا، من الجيد أن يكون لك صديق أو حبيب تفضي له بآلامك وأسرارك"

نظر إليه الخال عطا بعشم وأجاب:

"كما ترى، خالتك لا تهتم بالأسرار، ولا تفكر بأي شيء خارج المنزل، تلتهم العشاء كالدجاجة ثم تنام بهدوء حتى صرت أحسدها على برودها وجهلها"

تبسم نصر وهتف بحماس:

"أيها الخال عطا، أنا باحث في التاريخ القديم، ووجدت في أحد المراجع ما يشير إلى أمر خطير في قرية الدير، وأن ثمة شيء ما مختبئ في جبل يدعى جبل السر، لذا جئت إلى هنا"

تلفت الخال حوله ثم همس:

"انظر إلى هذا الدير المهدوم، إن السر يبدأ من هنا"

وسكت الخال عطا، حتى وصلا إلى بقايا جدران محروقة وأرضية مغطاة بالشجيرات كانت في يوم من الأيام أرضا للصلاة تنتصب عليها تماثيل السيدة العذراء، ومن ثم شرع يروي ما يؤرقه ويؤلمه.

***

كان الشيخ عطا بين فينة وأخرى يُدعى إلى المسجد القديم لإحياء أيام الموالد بسبب صوته العذب، ولذلك كان يحظى بثقتهم واحترامهم. وفي يوم قريب دعاه إمام المسجد جعفر لمساعدته في ترتيب خزائن المسجد، وإزالة التالف من الورق، وهي تجاويف

مســـتطيلة على الجدران تحوي مصـــاحف قديمة وجديدة، فأخذا يمســحان الكتب ويعيدانها، ويضــعان المصــاحف والقصــاصــات الممزقة في أكياس من الخيش ليتم احراقها على الفناء، وصـــارا ينتقلان من خزنة إلى أخرى، ويتحدثان عن إهمال الأجيال الجديدة لحفظ وتلاوة القرآن. كان إمام المسـجد هذا صـديق دراسـته، تعلما معا عند الفقيه الشـــهير قاســـم، وحفظا القرآن والأحاديث النبوية، ودرسـا النحو والتجويد مدة عامين. وهذا سـمح للإمام أن يشـكو من أبنائه الذين هجروا القرية، وصـــاروا مشـــغولين بأمور أخرى غير الدين، جميعهم غادروها بسـبب سـمعتها السـيئة، وخوفهم أن يموت مواليدهم. وبـالفعل رزقوا بمواليد من البنين والبنـات كبروا بعيدا، واليوم يلبسون ملابس غريبة، ويدرسون علوم النصارى، ويحملون بأيديهم أجهزة يتحدثون عبرها ويتصـــفحونها طوال الوقت، ويقال إنها تخزن مشـــاهد نســـاء ورجال عراة يتزاوجون كالكلاب، وهذا يعني أن الدين أمســـى غريبا معرضـــا للأفول في أقرب لحظة، وانتهى إلى القول بصوت حزين:

"أخبرني، كيف نسـتطيع أن نعيدهم إلى جادة الصـواب، ونرغمهم على التمسك بمبادئ الدين؟"

فكر بما يجيب عليه، ثم قال بلين شديد متوخيا الحذر من إغضابه:

"إنه أمر فظيع حقا، وأنا أشـعر بخوفك العميق على ديننا وتقاليدنا، فأنت ببساطة تريد من أحفادك أن يسيروا على درب الله"

وسكت لوهلة مترددا ثم تابع بصوت ناعم:

"فليرشدهم الله إلى الصواب، إن هذا الزمن مختلف حقا"

ضرب إمام المسجد كفه على الجدار بانفعال وحنق وصاح:

"مـاذا يهمك في الأمر؟ فـأنـت عقيم على كـل حـال، ولو كنـت في مكاني لن تسكت بالتأكيد"

لسعته تلك الكلمات قليلا ورد بارتباك:

"سامحني يا سيدي جعفر. قل لي ما بوسعي أن أفعل في هذا الشأن، وسأكون مسرورا لخدمتك!"

"توقف عن الحديث عن الزمن المختلف ومشـــيئة الله، لا يجب أن نستسلم للمؤامرة التي يحيكها الشيطان وأنصاره، يجب أن نفعل شيئا"

ونهض متحفزا غاضبا وأضاف بتوتر:

"سأبعث لهم من يوبخهم وأعود حالا.. (وأشار إلى خزنة مقفلة) دع هذه الخزنة، لا تقربها"

توقع أن سيدي جعفر سوف يبعث لهم رسالة جافة يحثهم على المجيء في العيد ليناقشوا أمرا هاما، وسيأتون بغنائم المدينة من هدايا وتبغ ولوازم العيد، وهذا سوف يهدئ من غضبه، ويجعله ينسى أمر التقاليد والدين. وسيراه أثناء العيد يلاعب أحفاده ويرافقهم في أزقة القرية مزهوا، فهو يفرح حين يأتي أبناؤه بسياراتهم الفارهة التي كسبوها من مناصبهم في الدولة، وهذه ليست المرة الأولى التي يتظاهر فيها أمام الآخرين أنه غاضب من شيء ما، بل إنه بين حين وآخر يختلق قصة محبوكة ليبدي تذمره من أولاده، شاكيا لشخص مختلف في كل مرة، ولا يعرف أحد ما يساوره أو يدعوه لهذه الانفعالات العابرة! كان ذلك اليوم هو نصيب صديقه عطاء الذي مكث محتارا مفكرا فيما جرى. كان قد أتم تنظيف خزانته الأخيرة، ومكث منتظرا عودة صديقه الموقر. توقع أن يعود ساخطا مستاءً، هل أساء إليه دون قصد؟ يتحتم أن يساعده في تنظيف الخزنة المقفلة. كانت كلماته الأخيرة الغاضبة، "لا تقربها". كذلك الله طلب من آدم ألا يقرب تلك الشجرة، لكنه في اللحظة ذاتها أرشده إلى الاقتراب منها، ومن المحتمل أن آدم لم يكن ليقربها لو أن الرب لم يخبره عنها، لأن الفردوس كان مكتظا بكثير من

الأشجار المثمرة، ومن المرجح أن يغفل عنها. تبسم حين دارت هذه المقارنة الغبية في ذهنه، واعترف أنه ليس أمام اختبار صعب، فصديقه طلب منه غاضبا ألا يلمسها، بدافع الغضب وحسب، ما يعني أن السبيل لإصلاح ما أفسده هو أن يقترب من الخزنة وينظفها، ومن ثم يثبت لصديقه أنه لا يحمل ضده أي ضغينة بسبب حديثه عن عقمه. لذا أمسك المفاتيح بتصميم، وهي كومة كبيرة تأملها بارتباك قبل أن يمسك أحدها بشكل عشوائي، وجربه في ثقب القفل الثقيل، فانفتح للتو، ما جعله مندهشا متعجبا من فراسته، بل وساوره الظن أن ما يقوم به هو الصواب بحيث تكلل حظه بالنجاح. أدخل كفه إلى الخزنة، وأمسك كيسا كتانيا قديما يبدو متسخا بشدة.. قال متذمرا:

"ما هذا الكيس القذر؟ لا أظنه يحوي شيئا مقدسا!"

أخرج منه ورق بردي متصلة بخيط رفيع من النايلون، نفض الغبار عنها، وقرأ بضع سطور حزينة تحكي عن جريمة وقعت في الدير ضحاياها خمسة من الرهبان وعائلاتهم، جميعهم قُتلوا بلا رحمة في ذلك المكان. قام الجنود بتقطيع الأطفال والنساء أمام الرهبان المصلوبين بالمسامير على الجدران، لكنهم لم يعترفوا أين أخفى معلمهم الأوراق لأنهم ببساطة لم يكونوا يعرفون شيئا... ذعر الرجل، ورمى الكيس من يده مرعوبا، التهمته قشعريرة جعلته ينكمش ويرجف كورقة واقفة على مهب الريح. سمع خطوات قادمة وصوتا حادا آتٍ من الخارج، فقفز دون وعي وأخفى أوراق البردي في كيسها الرث، ثم دسها في كيس القصاصات التالفة الذي يخص إمام المسجد جعفر. "ماذا فعلت أيها الأحمق؟" سأل نفسه، وأمسك الكيس لكي يرفعه ويعيده إلى الخزنة المفتوحة ويقفلها. لكن الوقت لم يسعفه، فقد ظهر سيدي جعفر واقترب قائلا بصوت عالٍ:

"أنا أقوم بالعمل الصحيح، بوسعي الآن أن أنام قرير العين..."
سكت قليلا محدقا نحو الجدار بفجيعة ثم تابع منفجرا بانفعال:

"هل فتحت الخزنة؟ لا أصدق ذلك! ألم أطلب منك ألا تقربها؟"

فوجئ عطا بما سمع منه ورد بصوت محبط:

"ظننت أن ذلك سيجعلك سعيدا ممتنا"

"لقد نصـــحني أبي ألا أدع أحدا يفتحها، وكذلك جدي نصـــح أبي، ويفترض أن أتصفح محتوياتها، لكني على عكسك لا أملك الفضول اللازم، ولا أحب القراءة كثيرا"

قال ذلك بارتياب، واقترب من الأكياس الخاصة بصاحبه التي يضع فيها القصاصات، وتابع متبسما بخبث:

" سـامحني يا عطا، يجب أن نتبادل الأكياس، هيا، دعنا نحرقها في الفناء، ونرى إن كنت تخفي شيئا عني، فقد كنت في طفولتك شريرا تدبر لي المقالب"

ضحكا معا وخرجا إلى الفناء، وانتصب كلٌ منهما في زاوية بعيدة، ولمحته يفحص محتويات أكياسي، لا أعرف كيف توقعت أنه سيقوم بفحص أكياسي! وفيما هو منشغل بفحص القصاصات، أخفيت ذلك الكيس القذر خلف ثيابي، ثم أحرقت القصـــاصـــات الخاصـــة بي، وعدت إلى منزلي.

رسالة قائد جيوش الرسوليين

تريد أن تعرف ما حدث يا حليفي، فأنت لحسن حظك لم تكن موجودا هناك، وقد بعثوك لاحقا لتنشئ بيتك حيث وقعت المأساة، لذا عليك أن تطلق على المكان اسم قرية الدير حتى يظل الحادث حيّا في أذهان الناس، لا شك أنهم يريدون منك أن تعثر على ورق مخفي في مرتفع شامخ يجب أن يسمى جبل السر للإيحاء إلى الوثيقة المفقودة التي يظن كثيرون أن الراهب المسيحي أخفاها فيه، وأيا كان فقد كنت حاضرا فعلا وشاهدا على ما جرى، ويا ليت أني لم أكن حاضرا في ذلك الحين.

في صبيحة الأربعاء، الخامس من ذي القعدة في السنة سبعمئة وتسع سنين من الهجرة، استدعيت إلى بلاط مولاي المعظم الملك الأشرف الرسولي، ووجدته غاضبا يتحرك كالأسد الهصور، ممسكا بيده خطابا من ورق البردي، وما إن رآني حتى سدد إليّ سبابته قائلا:

"يا نور الدين، اقرأ هذا الخطاب، وخذ بعض الفرسان، واسرِ بهم إلى حيث يقيم أولئك الرهبان، وانظر في أمرهم"

قرأت الخطاب جيدا، كان مرسلا من الإمام الهاشمي صلاح بن محمد ينبئ مولاي الملك بقدومه على رأس جيش كبير صوب آخر جبل يطل على تهامة حيث يختبئ بعض الرهبان الخطرين، الذين كانوا ذات يوم مسلمين، ثم مرقوا من الإسلام، وبنوا ديرا نصرانيا هناك، والمشكلة أنهم يحملون كتابا مشؤوما يسيء إلى النبي محمد، وأضاف الإمام أن خروج هذا الكتاب للعلن سوف يفسد إيمان الرعايا بالتأكيد، وقد يدفعهم إلى اعتناق النصرانية، ومن ثم يعصون

ملوكهم الذين يحكمون بمبادئ الإسلام، ورجا ملكنا الجليل أن يعينه على حربهم، وألا يتوجس شرا من جانبه...

قلت باستخفاف:

"مولاي، كيف يرسل الإمام جيشا كبيرا، ثم يطلب العون ليحارب خمسة رهبان مسالمين! أليس هذا جنونا محضا؟"

رد الملك بسخط:

"لا شك أن تلك الوثيقة التي يسعى خلفها هامة للغاية، وهو يريدنا أن نكون شاهدين، لذا يجب أن نأخذ طلبه على محمل الجد، ولا تنس أننا نحكم بمبادئ الدين، والرعايا يطيعوننا لأجل ذلك، وبوسعنا أن نرميهم في البحر بفتوى دينية، وهؤلاء الرهبان سيبشرون بدينهم ويسرقون انتباه الرعايا"

"لكن جيشه يسير إلى منطقة هي محل نزاع، وهي أقرب إلينا، وأبعد إلى الصليحيين، وإن هذا سيغريهم في المستقبل على غزو مناطقنا"

زم الملك الأشرف شفتيه موافقا وأجاب:

"هذا أمر يستحق الاهتمام، لذا دع القادة والعساكر يتأهبون في مناطقهم لأي شيء بغيض قد يظهر، وأنت اذهب بعدد قليل لتجلب لنا الخبر اليقين"

بعثت للحصون والمدن بالاستعداد لأي مواجهة، ثم انتخبت مئة فارس وذهبت نحو ذلك الجبل البعيد. وهناك رأيت الجبل ممتلئا بالعساكر القادمين من أقصى الشمال، كما لمحت الراية الصليحية تخفق في الجانب الآخر، وكان الجميع يرفعون الرايات البيض تعبيرا عن رغبتهم في السلام. واستغربت أن يأتي الزيود بعشرين ألف مقاتل، ونصف هذا العدد من الصليحيين لأجل خمسة أشخاص! لأول مرة يلتقي هؤلاء في مكان واحد دون حرب. اجتمعنا قرب دير أبيض، وتحدثت في البداية إلى الرهبان الخمسة بدماثة، طالبا

منهم تبريرا لمروقهم من الإسلام، وفجأة احتدم الموقف حين صرخ الإمام الزيدي على الرهبان آمرا أن يسلموا مخطوطا سريا من ورق البردي حصلوا عليه من معلمهم القِس مزاحم بن مساعد..

فأخبرونا بقصتهم، كانوا قد جاءوا مع معلمهم القس مزاحم بن مساعد من الشمال هاربين من بطش الإمام الهاشمي الزيدي محمد بن الحسين، وعند وصولهم إلى الجبل طلب منهم القس أن ينتظروا حتى يستطلع الجبل ويرى أنسب مكان للعيش.. وصعد عاليا حتى غاب عن أعينهم، واختفى بضع ساعات ثم عاد مرهقا ومعفرا بالتراب، وتوقف أمامهم مترنحا قائلا بصوت لاهث:

"هناك واحة جيدة عند قاعدة الجبل، ابنوا ديركم هناك، واستمتعوا بملكوت الرب مع نسائكم، وقد حان لي أن أودعكم الآن"

صاحوا بتأثر:

"لن ندعك تذهب أيها المعلم"

"فكروا جيدا، لن نظل هاربين للأبد، سأقدم هذا المخطوط الرهيب للهاشميين الزيود لأنهم لن يدعونا وشأننا، ثقوا بي"

قالوا له محذرين:

"سيأخذون المخطوط منك، ثم يقتلونك لأنك اعتنقت دين يسوع الرب، سيتذرعون بأي شيء لاجتثاثك من الأرض"

"أعرف، تلك من شيمهم. ألم يضحي المسيح لأجل خلاص البشر، لكني أخشى أن يصيبوكم أيضا، لأنهم قومٌ يكذبون ويغدرون مثل جدهم قُثَم"

وابتعد المعلم عائدا إلى المطاردين الذين فرحوا حين رأوه، وقادوه إلى الإمام محمد بن الحسين الذي أعطاه الأمان، ثم أخذ الأوراق منه بأصابع مرتجفة، وبعد أن تطلع إليها مليا، أمر بحرقها على

أنها من عمل الشيطان.. ثم ما لبث أن نكث بعهده، وأمر بقتل القس مزاحم الذي لم يندهش أو يتذمر...

قاطع الإمام صلاح ذلك الراهب قائلا:

"هذا صحيح، بدا القس غير مكترث، لم أر في عمري رجلا يقف أمام السياف مبتسما، وهذا ما دفعني للارتياب"

تلا أحد الرهبان هذه الصلاة الوجيزة:

"ليبارك الله هذا القس الصالح ويغفر خطاياه، ويجمعنا به في الفردوس الأعلى باسم الرب يسوع المسيح. آمين"

"بل هو رجل مخادع، وأنتم تعرفون أنه أخفى المخطوط الأصلي في الجبل، ثم قدم لنا ورقا زائفا. وهذا هو سر هدوئه وابتسامته الأخيرة، أليس كذلك؟"

رددوا بصوت واحد:

"لا نعلم شيئا، نقسم لك، لقد كان متكتما للغاية، ولم يخبرنا بأي شيء"

"سوف نعذب أطفالكم ونساءكم حتى تعترفوا"

"الأطفال والنساء غير مذنبين، فلا تحكموا على أطفالكم بالموت، اقتلونا وحسب، وسنصلي من أجلكم"

لم يكترث الإمام المتعجرف بتحذير الرهبان الخمسة، وأمر جنوده أن يجلبوا النساء والأطفال الذين لم يعرفوا ما اقترفوه من ذنب. إنه أمر بغيض تمنيت ألا أشاهده أو أكون شاهدا عليه. حاولت جاهدا أن أثني عزم الإمام اللعين عن اقتراف جريمته البشعة، حذرته من غضب الملك الأشرف حين يعلم بالخبر، لكنه لم يتوقف. وأنذرته من وصول الخبر إلى الملكة الصليحية التي لن يسرها أن يحدث هذا في منطقة هي محل نزاع بين الممالك، وسوف تعتبره عدوانا

عليها، لكن الأمير الصـــليحي الفقيه الفضـــل بن أبي البركات بدا مستمتعا يشاهد بهدوء، فحذرته من غضب سيدته التي لن تتردد عن فعل أي شيء للحفاظ على رعاياها وبلادها، لكنه كان مبتهجا لموت أولئك المارقين عن الدين، ولم يهتم.

بعد الانتهاء من هذه الجريمة أمر الإمام صـــلاح بحرق الدير بمن فيه. وبعث رســالة إلى الملك الأشــرف يطلب منه التنازل عن ذلك الجبل ومحيطه مقابل خراج مدينة حَجّة تدفع لخزينة الرســوليين لمدة عشرة أعوام، فوافق الملك الأشرف في الحال بسبب الضائقة المالية التي كانت دولته تعاني منها. وظل الزيود يحفرون في الجبل حتى يئســوا من العثور على الأوراق. وفي أواخر هذا العام مات الملك الأشرف والإمام الزيدي، وهذا الأخير سحق سبأ الصليحي جيوشــه، واقتيد مربوطا خلف خيل ســريع حتى تمزق جســده على الأرض الوعرة، كما أسـر أبناؤه، وسـبيت بناته ونسـاؤه، أما حاكم حصـــن التعكر بن أبي البركات فقد عاد محملا بهدايا الإمام ثمنا لهدوئه وسكوته، وفيما كان يصـعد نحو الحصـن حيث مقر حكمه، سمع صرخة ابنته اليافعة وهي تهوي من نافذة الحصن لتتهشم أمام عينيه، فسقط من ظهر حصانه، وظل طريحا مصدوما بضعة أيام يفكر في سبب يدفع ابنته للانتحار، وحاول بحمق غريب أن يتجنب التفكير أن حبسـه لها في غرفتها وتربيته الدينية القاسية هما السبب الأول، وما لبث أن استدعي إلى العاصمة جبلة، وقابل الملكة سيدة بنت أحمد التي وضـعت حذاءها على وجهه لأول مرة في تاريخها، وأمرته أن يشـــرب الســـم من كأس قذرة قائلة بصـــوت مختنق: "أترضـــى أن يهلك الله نسـلنا يا ابن أبي البركات؟ لقد حكمت عليك بالموت يا قاتل الأطفال! ولا أظن الضباع والنسور ستتناول جسدك القذر"

وأمرت عســـكرها أن يرموا جثته في العراء خارج مدينة جبلة. وكانت هذه الملكة الصالحة محقة في توقعها، فقد انتشر وباء غريب

أصاب أجساد الناس بالجفاف والضمور، ومعظم ضحاياه كانوا من الأطفال، ويقال إن ما جرى في الدير جعل الملكة الحرّة تطرد زوجها سبأ الصليحي إلى حصن الدملؤة في آنس، وأمرته أن يطارد الإمام الزيدي صلاح بن محمد، وأقسمت ألا تنجب أو تدع رجلا يلمسها طوال حياتها. أما أنا فقد احتجبت في داري، وها أنا مستلقٍ على فراشي لا أغادره وأبنائي محشورون في غرفة نائية خائفين من الوباء. ولا يعلم سوى قليل من الناس أن سبب اعتزالي ليس بسبب الجائحة بل هو الحزن الذي شعرت به. لذلك تمنيت أن أعثر على تلك الوثيقة التي يخشاها الزيود لأنها لا شك تفضح تاريخهم المشين. وأطلب منك يا حليفي أن تكتم أمر رسالتي وتخفيها بمكان آمن، لأنها سوف تعرضنا للمساءلة، وربما يمزقونا كما فعلوا بأولئك المساكين. والفائدة أن تكون قائدا مرموقا هي أن يكون لك حلفاء مخلصين في جميع المناطق يوافونك بالأخبار، فأنا أعرف أن ثمة أشخاص يبحثون في ذلك الجبل ليلا ونهارا بغرض الحصول على الأوراق المزعومة، أرجو أن تخبرني إن عثروا على شيء، لأن بوسعي أن أستعيد منصبي، وآتي بجيش جرار لأنتزعها من أيديهم وأرى هل تستحق أن يموت عشرات الآلاف من الناس بالوباء الخبيث. ليحفظكم الله.

نور الدين بن محمد الكاملي. قائد الجيوش الرسولية.

حين أكمل الشيخ عطا حكايته سأله نصر بذهول:

"هل مازلت تحتفظ بهذه الرسالة؟"

"نعم، سأعطيها لك، لحسن الحظ أن سيدي جعفر لم يشعر باختفائها أو أنه على الأرجح لا يعلم شيئا عنها"

"أتظن أنهم عثروا على ذلك الكتاب الخطير في الجبل؟"

"لا أظن ذلك. فمازالوا يحرسون الجبل، ولو تصعد إليه ستجد عليه ثقوبا كثيرة"

"أظن أن ذلك الجبل خالٍ من السر"

"بل هناك شيء مختبئ فيه، وأظن أني أعرف المخبأ"

تبسم نصر وأجاب بعجب:

"تعرف موضع السر؟"

"أظن ذلك، في الليلة الماضية، بعد منتصف الليل، حينما كنت نائما سمعت صوتا له صدى مخيف يقول: أنا القس مزاحم يا عطا، الخبيئة ليست بعيدة عن شجرة كبيرة على الجبل، جوار حجرين على شكل صليب، والعلامة الثالثة هي... (هنا انقطع الصوت) وصحوت متوترا لا أعرف إذا كان ما سمعته حقيقيا..."

قاطعه نصر ضاحكا:

"لعله شخص ماكر من الأهالي صاح من جوار منزلك"

"أنا لا أمزح يا بني، لقد فكرت أنهم فعلوا لي مقلبا، لاسيما صديقي الزيدي جعفر، لذا ركضت مسرعا أبحث عن ذلك المتطفل خارج نافذتي، ولكني لم أجد أحدا، فأدركت أن الصوت جاء من أعماقي"

ابتسم نصر وقال:

"هل تظن أن الشجرة كانت منتصبة يوم صعد القس مزاحم إلى الجبل منذ سبعة قرون؟"

"من يدري!، مازالت هناك شجرة معمرَّة على الجبل"

اكتست ملامح نصر بالجدية وقال بصوت منفعل:

"تبقى علامة الصليب، هل بالقرب منها حجرين على شكل صليب؟"

"وكيف لرجل قروي أن يعرف معنى الصليب يا بني!"

رسم نصر شكل الصليب بأصبعه على التراب، فهتف الرجل المسن بلا تردد:

"هناك أحجار على شكل أعمدة ليست بعيدة عن الشجرة، لكن الجبل يظل مراقبا طوال الوقت"

"هناك عوائق كثيرة دون شـــك، ولســـوء الحظ أن العلامة الثالثة مفقودة أيضـا، لكني الآن أود أن أجد الوقت المناسـب للصـعود إلى الجبل، أليس كذلك؟"

فكر الخال عطا قليلا ثم أجاب:

"هذا مهم جدا، والليل بطبيعة الحال هو أنسب وقت لزيارة الجبل، لكن لا ينبغي أن تضيء مصباحا أو تشعل نارا أو حتى سيجارة"

"سآتي في ليلة مقمرة، أليس هذا جيدا؟"

"هذا جيد، عليك توخي الحذر فحسب"

وأوصاه الخال أن يجلب بعض الأدوات الضرورية التي سيحتاجون إليها للحفر أو التسـلق، وسـلاحا، وفراشـا، ومصـباحا لا يُسـتعمل سوى في كهف أو مأوى مستور. ويا حبذا لو اصطحب معه صديقا موثوقا يؤانسه ويعينه على المراقبة والبحث.

حين أتت الظهيرة ساروا باتجاه المسجد، وهناك رأوا بيوت الزيود ملطخة بالكتابات والشـعارات الدينية، حتى مسـجدهم القديم جدرانه بدت مكسوة بملصقات عليها آيات مختارة تثبت أن أقارب النبي قُثَم مفضلين على غيرهم من البشر، ويتحتم أن يكونوا الحكام والزعماء للرعايا في كل مكان. لذا أتوا للصلاة بقمصان مخروطية فضفاضة بحيث ظهر نصـــر غريبا بوضـــوح ببنطاله الجينز الأزرق، وحين وقفوا للصـلاة راح يتأمل الخزنات على جدار المحراب، راح يتأمل الخزانة الوحيدة المقفلة، متشـــاغلا بالتفكير عن ســـماع تكبيراتهم

المتكررة.. حين فرغوا من الفريضة نظروا إليه باستعلاء وارتياب. وخرجوا إلى منازلهم يسيرون كالطواويس، لكنه لم يولهم أي انتباه كأنهم مجرد دمى عرائس مما يجده المرء على أبواب معارض الملابس الفاخرة. ولم يتكلموا سوى القليل من الكلمات أثناء الغداء. وعلى إثر ذلك، أخذ الشاب سيارته العتيقة وغادر إلى قريته.

***

كانت علاقتي بنصر أقوى من علاقات العشاق، جمعنا حب الفضول والاستطلاع، والتنقيب عن أسرار التاريخ وألغازه التي لم تكشف بعد. هو تخصص في دراسة التاريخ الإسلامي الذي يظن أنه أكبر أحجية

في العالم بسبب حجم الغموض الذي يكتنفه. وأنا تخصصت في اللغة العربية، لكننا كنا نقيم في السكن الجامعي في غرفة مشتركة، وفي ليلة

من ليالي الصيف أثناء العطلة الصيفية، أقبل إلى غرفتي في القرية وسحبني من يدي قائلا:

"تعال أيها الغبي، نحن على ميعاد لاكتشاف تاريخي غير مسبوق، سنذهب إلى جبل السر"

"جبل السر؟"

"نعم.. أخبرني أولا.. هل سيطلع القمر الليلة؟"

"بالطبع، إننا في منتصف الشهر"

بقي ساكتا بعض الوقت حتى بدأت السيارة تتحرك.

"سنذهب إلى الجبل لنكشف سره الغامض، لا تنظر إليّ هكذا"

أخذ نصر نفسا عميقا وتكلم بتلبك رغم طلاقة لسانه، وبالكاد استطعت تجميع كلماته المتناثرة التي كانت بالفعل تستحق كل ذلك الارتباك، فالمهمة ليست سهلة، لذا بدا في حال شديد من الجدية

والذعر يتلفت خلفه عبر المرآتين الجانبيتين، وكلما رأى سيارة خلفنا يبطئ سرعته ليرى إن كانت ستتجاوزنا أم تبطئ من سرعتها. كان يظن أن هناك من يراقبنا، ويظل يناور ويراوغ للإفلات منه، أخذت السيارات تتلاشى حتى بقينا وحدنا على الطريق الريفي، سرنا على طريق جانبي ببطء منتظرين طلوع القمر. سألته إن كان كل شيء جاهزا، فأجاب نعم، حاولت أن أثير أعصابه أكثر فقلت بتشاؤم:

"ماذا بوسعنا أن نفعل إذا لم يطلع القمر هذه الليلة"

رد بعصبية:

"هل تريد أن تصيبني بالجنون؟ القمر لا يمكن أن يغيب في منتصف الشهر"

"بالتأكيد، لن يفعل. لكن ماذا لو لم نجد الشجرة أو حجري الصليب في مكانهما؟"

"لا يهم. سنغادر الجبل"

بقينا هادئين حتى بزغ جزء ضئيل من القمر الذي حجبته غمامة رمادية محملة بمياه البحر الأحمر، بدت السماء منتفخة بالسحب الداكنة، وهبت ريح خفيفة مشبعة بالبخار، حتى بدا الجو مكفهرا يجول فيه ضباب خفيف، فسارعت لاستفزازه قائلا:

"انظر، حتى الجو لا يشجع على الذهاب"

رد بحماس:

"بل إنه جو مثالي، هيا بنا"

أضاء مصابيح السيارة وتحرك دون اكتراث أو حذر فقلت بانفعال:

"أيمكنك أن تطفئ النور على الأقل؟"

"دع الأمر لي يا سام، أظن أنك ستكون أكثر نفعا على الجبل"

"أعرف، ستكون الأعمال الشاقة من نصيبي"

رد بصوت ضاحك:

"أقصد أن لدي خطة أنفذها الآن"

"سنتشارك في كل شيء كالحفر والحراسة وغيرها من المهام"

"بالتأكيد"

قطعنا بضـــع كيلومترات إلى أن وصـــلنا إلى مفترق طرق، فأطفأ نصر السيارة، وانتظرنا بعض الوقت لانقشاع السحب التي تحجب ضوء القمر، لكن الوضع ازداد سوءا حين هطل مطر غزير، وفجأة شـغل نصـر أضـواء المصـابيح الأمامية دون خوف، وسـار على الطريق نحو الجبل قائلا:

"تغيرت الخطة يا فتى"

صحت بصوت غاضب:

"ماذا تفعل؟"

"لن يرانا أحد في هذا المطر الغزير، دعنا نجازف ونقطع هذين الكيلومترين بسلام، هذه المجازفة أفضل من السقوط في منحدر"

بدا كلامه معقولا نوعا ما، فانكشـــاف أمرنا هو أقل خطورة من السـير بدون أضـواء، والتعرض لحادث مهلك، لذا لزمت الصـمت حتى توقف جانبا بشـكل مفاجئ. خرج من السـيارة مسـرعا محاولا الاحتماء من القطرات المتساقطة، وأخذ يصيح بصوت مرتعش:

"ماذا تنتظر؟ هيا بنا نصعد"

تبعته إلى خلف السـيارة، فناولني مظلة للمطر، وحقيبة ظهر جلدية تحوي أدوات حفر حديدية لأنها بدت ثقيلة، وحمل هو واحدة مماثلة، ورفع مظلته عاليا، وطلب مني اسـتخدام القداحة الصـينية لأن في مؤخرتها لمبة صغيرة خفيفة الضوء تفي بالغرض ولا تثير الانتباه.

لم أفهم ما يعنيه بالقول إنها لا تثير الانتباه، لأن أي شخص يستطيع المراقبة في ذلك الجو الماطر بوسعه أن يلمح الضوء بسهولة، إلا في حال بقي الضباب يحجبنا طوال الرحلة. فكرت بذلك وانشغلت بمراقبة خطواتي، خطر لي أن ما نقوم به هو ضرب من الجنون، إذ نسير على أرض وعرة، صاعدين تحت وابل شديد من المطر، مثقلين بالحقائب، نستضيء بضوء طفيف لقداحتين رخيصتين، وسط جو عاصف، وبرد يخدر الجسد، كما كنا بين لحظة وأخرى نسمع أصوات انزلاقات صخرية تتردد بعيدا في الأعلى، كانت أطراف المظلة تنثني بسبب العصف الشديد للريح، وتوشك أن تطير بعيدا. وفجأة صدر صوت مرعب لصاعقة وقعت في مكان قريب، ورغم ذلك بقينا نسير حتى أوشكت قدماي أن تتحطما، وبقي المطر في ازدياد والرعود تضرب في السماء، والبروق تضيء الجبل لثانية واحدة، ثم تتبعها أصوات الصواعق الصاخبة، فصحت سائلا بتذمر شديد:

"هل تعرف أين يقودنا هذا الدرب؟"

انحنى ليسمع ما أقول صارخا:

"ماذا تقول؟"

"نحن في ورطة"

"الخطة...؟ أنا لا أسمعك.."

اعتراني الغضب، فصحت منفعلا:

"عليك اللعنة يا نصر"

"بل اللعنة عليك يا سام"

وفهمت أنه يحاول استفزازي لأتصرف بشكل مضحك، لا أعرف ما يدعو بعض الناس للاعتقاد أن ما يفعله الانسان في لحظات غضبه هي أمور مضحكة ومسلية، فأحيانا قد يجعلك الغضب تقتل

إنسانا أو حيوانا أو حتى تؤذي نفسك، وهذا أمر يبعث على الحزن. لحسن الحظ، لمحت خلال ضوء البرق مأوى مما يستخدمه المزارعون لحراسة المحاصيل، فاتجهت صوبه متجاوزا نصر الذي تبعني بلا هوادة، محاولا أن يسبقني، لكني كنت قد قطعت مسافة معقولة لأبدو رابحا وقريبا من المأوى. كان المكان في الداخل رطبا ورحبا رغم أن جدرانه الداخلية معمورة بالحجر والطين بشكل بدائي، كما يوجد فراش واحد ممزق، ووسائد ريفية محشوة بالتبن والقش. وفي الزاوية موقد طيني عليه قطع من الفحم وقربه عيدان من الحطب، وهكذا رأينا إلى ذلك المأوى وكأنه قصر السلطان، فأغلقنا الباب الخشبي البسيط، وخلعنا معطفي المطر المبللين، ثم جلسنا على الفراش متدثرين بدثار بالٍ وجدناه بالقرب، فاقتسمناه بالتساوي ونشرناه فوق جسدينا الباردين، واستطاع نصر أن يشعل الموقد بالقداحة الاحتياطية، ثم اقتربنا ونشرنا أذرعنا فوق النار الخفيفة المتوهجة، ولم نعبأ بالضوء المتسرب من النافذة الصغيرة إلى الخارج. في تلك اللحظة، استطعت أن أقول بتوتر:

"لم يسبق أن تعرضت لموقف مماثل في حياتي"

أخرج نصر من حقيبته بعض الكعك وعلبتي عصير، فأكلنا بشهية مفرطة. ثم أشعل سيجارة وقال:

"سنبقى هنا حتى يطلع القمر"

"وهل سيطلع القمر الليلة؟"

"نحن في انتظاره"

شعرت ثانية بالحنق والخواء وعاودني القنوط، فقلت بإحباط:

"ماذا سنجني من كل هذا إن قدر لنا النجاة؟"

"كثير من الناس سوف يفقدون إيمانهم عند ظهور السر، وأظنه سيثير ضجة عارمة في وسائل التواصل الاجتماعي، كما ترى هناك ملياري

مسلم سوف يتفاعلون مع هذا الخبر. وهناك دور نشر عربية وأجنبية ستتسابق على ترجمته ونشره.."

قاطعني بحدة:

"تريد أن تصير مشهورا؟ أخبرني عن سبب اهتمامك بهذا الأمر، أنت تعرف أن حياتنا ستكون على المحك، سوف يقتلك والدك أو شقيقك أو حتى جارك. سيطاردوننا في أصشقيققاع الأرض"

"أود أن ترقد أرواح الرهبان المساكين وعائلاتهم بسلام، إخفاء الحقيقة جزء من المشاركة في قتلهم"

حككت رأسي باغتمام وقلت:

"لم أكن أظن أن الأمر بهذا التعقيد والارهاق، في الواقع، أود أن أعيش بهدوء وأمضي قدما في حياتي، ولا شأن لي بمن ماتوا قبل قرون، وقصة ذلك القائد الرسولي قد تكون غير حقيقية"

نظر إليّ غير مصدق ما أقوله، وبقي ساكنا قليلا ثم قال بفتور:

"اسمع، لقد قطعنا شوطا كبيرا، وفي كل الأحوال، نحن حقا لا نعلم فيما إذا كان هناك سر ما أو لا! ومن المحتمل أن نخفق في العثور على العلامات لذا فإن التراجع الآن ضربٌ من الغباء"

ثم ضرب على كتفي مشجعا وتابع مازحا:

"اطمئن، سنتقاسم الأعمال الشاقة"

صار المطر خفيفا ينثر رذاذا على الجبل، ما لبث أن صفا الجو، وشرع القمر يتسلل من وراء الغيوم المنحسرة الفارغة. خمدت الأصوات ماعدا هدير السيول المتدفقة من مصبات الأودية أسفل الجبل، كانت نفسي تتوق للارتياح، لكن جو الجبل الخريفي وهواءه العليل وطبيعته الخلابة تحت أضواء النجوم اللامعة، كل ذلك شحنني بالحيوية، ناهيكم أن الفضول انضم إلى جودة المساء والطبيعة، لذا حملت الشنطة، وتبعت نصر دون

أن أقول شيئا لأبرر سبب عدولي عن قراري. بعد نصف ساعة من السير الممتع، لمحنا الشجرة الضخمة، فانفجر صديقي قائلا بفرح طفل:

"انظر، العلامة الأولى ظهرت"

قلت بإعياء:

"لا تفرح كثيرا، الجبل يمتد عدة كيلومترات، ومن المحتمل أن نجد أكثر من شجرة"

هتف بأمل كبير:

"انظر، بالقرب منها طبيعة صخرية على شكل أعمدة، أتمنى أن نجد صليبا صخريا"

اقتربنا من الشجرة وأعمدة الصخور بتهيب، لا يوجد هناك صليب، فقط أعمدة وكتل صخرية مخروطية منتصبة وأخرى مستلقية على الأرض تبدو بشكل واضح كأنها سقطت بسبب عوامل التعرية، ومن ثم تكومت قريبا من الشجرة الضخمة التي يبلغ قطرها ثلاثة أمتار، كان من الصعب تخيل أن شيئا يمكن أن يكون مختبئا وسط تلك الفوضى الطبيعية، لذا قلت بتشفٍ:

"فقدنا العلامة الثانية، وسنغادر للتو، أليس كذلك؟"

لم يرد، بل تحرك بين الصخور شاخصا إليها، ثم تسلق بخفة قرد حتى اعتلى أحد الأعمدة، ومط بصره في أرجاء الجبل، ثم قال مشيرا بيده:

"انظر، لا توجد أشجار أخرى كبيرة ولا صخور، هناك خطأ ما في العلامة الثانية"

ثم التفت إلى الأعمدة المجاورة بضيق وجعل يتأملها قائلا بصوت حاد:

"انظر، ها هي الأعمدة، لا يوجد حجر عموديي يصـــنع صـــليبا.. انتظر، أليس هـذا حجر أفقي طويـل مـائـل يبـدو مكســـور الجانب...؟"

نزل في الحال، وجعل يفحص الأرضـــية تحت العمود الذي يحمل الحجر المكســـور، وهناك رأينا الجزء المكســـور من الحجر ممددا على الأرض، وظهر غبار أســـود على طرف الحجر، ولاح القطع حديثا، فأسرعت للقول بشيء من الذهول:

"كان ذلك الحجر مسـتويا في الأعلى، ثم أتت الصـاعقة وأصـابته وأسقطت هذا الجزء كما ترى، لقد حدث هذا منذ ساعتين تقريبا"

حضنني وجعل يقفز بابتهاج قائلا بجذل:

"يا لك من ذكي حين لا تستسلم لمخاوفك وأوهامك، نعم، الصـاعقة ضربت الجزء الأعلى من الصليب الحجري"

أصـــابني الغم إذ ســـاهمت في حل هذا الأمر المحير، وكشـفت عن العلامة الثانية، ولكن كان عزائي أن ما قمت به لا يعني أن الســـر صار مكشوفا، وهذا ما أفصح عنه نصر في كلماته المشجعة:

"نحن الآن عند الجزء الأصـــعب، وهي العلامـة الثـالثـة التي لم يذكرها الخال المســن، بالطبع، هذا بديهي، هناك علامة أخيرة يقبع الســـر خلفها، هيا يا ســـام، أطلق لتفكيرك العنان فأنت حقا ســـريع الملاحظة"

تحركنا بين الصـــخور القريبة متأملين كل شـــيء بمحيطها، وفجأة سمعت طنينا مزعجا يصدر من خلية دبابير خبيثة كانت تقع وسط فجوات طبيعيـة عميقـة تقع بين بضـــعـة أعمـدة متجـاورة، بـدت مسـتعمرة ضـخمة بحيث يصـدر عن تلك الحشـرات القاتلة تحذيرا لكل من يقترب منها، فابتعدت عنها هاربا لأن ســـبعة دبابير تقتل

جَمَلا، هكذا كان يقول لنا كبار السن حين تأتي مناسبة للحديث عن الدبابير، لذا ابتعد نصر عن المستعمرة أيضا، وقال متذمرا:

"أي حظ سيء هذا الذي يصيبنا الآن! هذه الدبابير تسد طريقنا"

قلت بشيء من المرح:

"تخيل أن يكون السر أو المخطوط مختبئا داخل مستعمرة الدبابير"

حدق في وجهي بذهول، ثم قفز بشكل مفاجئ، واحتضني صارخا:

"بالتأكيد، هذه هي العلامة الثالثة، أنت عبقري يا سام"

ضحكت ونزعته عن جسدي مجيبا بتهكم:

"لا تأخذ كلامي على محمل الجد، أنا أمزح وحسب"

"بل تقول الحقيقة، المخطوط خلف أعشاش الدبابير، أقسم لك"

"كيف تجزم بذلك؟"

"لا أعرف، مجرد حدس حاد. هناك علامات صحيحة تحققت، إنها رمزية واضحة تقدمها لنا الطبيعة، فالدبابير هي رمز الشر، والنحل رمز الخير. وهذا المخطوط الشرير يفضح الأشرار، لذا فالدبابير هي الكائن المناسب الذي يحمي الأفكار الشريرة، وستحاول بشراسة أن تمنع خروج هذا المخطوط إلى العلن"

قلت بحيرة:

"هل أنت بخير؟"

"في أحسن حال"

"جيد، بدلا عن السفسطائية الكلامية، أخبرني كيف بوسعك أن تثبت أن المخطوط داخل المستعمرة؟"

حدق في الفراغ قائلا بضيق:

"سـنقاتلها ونطردها يا سـام، هذا هو السـبيل الوحيد للوصـول إلى غايتنا"

صحت بغضب:

"أنت تهذي، لا أحد يمكنه أن يهزم عشـــرات الآلاف من الدبابير القاتلة، بل أن بوســـع القليل منها أن تذهب بنا إلى المقبرة في لمح البصر"

لاذ بالصمت وأخذ يدخن تحت الشجرة مستندا على جذعها الضخم، فأعقبت مسائلا:

"ما يحيرني هو هل أتى المخطوط إلى المستعمرة أم المستعمرة أتت إلى المخطوط؟ بمعني أيهما جاء قبل الآخر؟"

رد بهدوء:

"بالتأكيد حين أخفى القس مزاحم المخطوط لم يكن للمســـتعمرة أي أثر هنا، لأن تلاميذه كانوا ســيلاحظون ذلك، لكن من المحتمل أنها كانت بمكان قريب، لذا ترك لها طُعما أو شيئا ما انجذبت إليه، وهذا الأمر ليس صعبا على رجلٍ مباركٍ مرتبط بالرب يسوع، وقد يكون ذلك كله صدفة بحتة رتبتها الطبيعة فيما بعد كما أسلفت"

نهضـت وجعلت أتحرك بالقرب منه متعجلا الرحيل، كانت السـاعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل حين نظرت إليها، وقلت:

"لقد فعلنا ما بوسعنا، والآن يجب أن نذهب"

رد نصر بحزم:

"كلا. لم نفعل بعد. أتمنى أن ترشـــدني إلى طريقة تمكننا من اقتحام المستعمرة"

طرحت عليه مقترح اســـتخدام الدخان أو النار أو الســـم، لكن أيا منها لم يجعله متحمسـا، فاسـتويت إلى الحلول السـاخرة التي اعتدت

أن أقدمها لأي فرد متطلب لا يقبل بكثير من الحلول التي تبدو مألوفة، فقلت بخبث:

"لا أعرف أين سمعت أن بعض القوم عثروا على خلايا نحل، فخلعوا ملابسهم كلها حتى سراويلهم الداخلية، وطلوا أجسادهم بالطين، ثم هاجموا النحل، حتى استطاعوا الوصول إلى أقراص العسل، لكنهم أفسدوها بالطين.."

كانت تلك قصة ساخرة متخيلة، عزمت خلالها أن أسخر من إصراره وعزمه على مهاجمة الدبابير، كان مجرد التفكير في ذلك يجعل قلبي يدق بشدة في صدري، ولا أستطيع تخيل نفسي في مواجهة تلك المخلوقات الصغيرة الشرسة. بدت ملامحه منبهرة بما سمعه مني، لكنه أيضا ظل يراقبني بحذر، وكأن القصة لم تكتمل بعد.. ثم فجأة قفز في الهواء كالوشق قائلا بحماس:

"أنت حقا داهية، سنتغطى بالطين ثم نرتدي ملابسنا الثقيلة، وبعد ندع وجوهنا مغطاة بالنظارات والأقنعة، ولا نترك أي جزء من أجسادنا ظاهرا"

لم أتوقع أن يُعجب بهذه الخطة الغبية، حسبته سيصرخ طالبا مني الكف عن الاستهزاء وسرد القصص المتخيلة بغرض السخرية من الآخرين، شرع يخرج من حقيبته قطع الملابس الثقيلة، وطلب مني أن أنتحي جانبا لأزيل ملابسي وأبدأ بتنفيذ خطتي الحصيفة، فانبريت قائلا بضحكة مصطنعة:

"لا أعرف كيف ينطلي عليك مزاحي الخبيث في كل مرة! أليس غريبا أن نجرب الأمور المتخيلة البعيدة عن المألوف؟"

أجاب باندفاع:

"يعجبني تجريب الأشياء غير المألوفة، وهذه الخطة جيدة، هيّا سام، دعنا نقاتل الدبابير الشريرة، ونأخذ مخطوطنا ونرحل بسلام"

فكرت بصـــديقي المجنون، يجبرني بلطفه، ويذهب بي بعيدا، نربح أحيانا، ونخســـر أحايين أخرى، لكن هذه المرة، بدت الأمور كأنها آخذة بالتدهور، والنتيجة ستكون شبه محسومة لصالح الدبابير التي تملك قضـــية صـــلبة وهي الدفاع عن وطنها من الغزو الخارجي، ناهيكم أن أعدادها المهولة، والســـم والألم الناتجان عن لســـعها ســـيدعان كل راغب في مهاجمتها يعيد النظر في قراره عشـــرات المرات. لكن نصـــر لم يفكر بالعواقب ولو مرة واحدة، بل ألقى ملابسه إلى الأرض، وذهب ليتمرغ في الطين.

وبعد ذلك هاجمني بشـــكل مفاجئ ودفعني إلى بركة من الطين الموحل، فقمت واحتضـــنته بمرح وتقلبنا على الأرض حتى بات مظهرنا مخيفا، ما لبث أن ارتدى ملابسه، واقترب مني، فدفعته إلى بركة الوحل، وتصـــارعنا ثانية، وأخذ كل منا يرمي صـــاحبه، ويلطخه بالوحل حتى صـرنا كتمثالين من الطين، وبالكاد اسـتطعنا أن نبصـر ما حولنا، ثم تقدم نصـر بعزم إلى حقيبة الأدوات وأخرج معولين، رمى أحدهما نحوي، وأمسـك بالآخر متحفزا، وما لبث أن هجم على المسـتعمرة بجرأة، وضـربها بالمعول، وتبعته بلا وعي رغم خوفي من الحشـرات اللاسـعة، لكن روحي كانت قد تشـربت باللعب والشـقاوة، وصـرت أضـرب تلك الأعشـاش وأهشـم بيوتها المبنية بالطين، فانبثقت من مســـاكنها غاضـــبة، وأخذت تلصـــق بطبقات الطين والملابس التي على جسدينا، ولا تصل لسعاتها إلى أعضـــائنا لحســـن الحظ، لكنها تكاثرت وخرج الآلاف منها، حتى صـار الجو من حولنا عبارة عن كومة ضـخمة طائرة تصـدر طنينا عاليا وتهاجمنا بلا هوادة، وســـرعان ما أصـــبح جســـدينا مغطيين بطبقة ســـميكة من الدبابير التي غطت أيضـــا وجهينا وحجبت عنا الرؤية، لكن نصـــر كان قد عثر على شـــيء ما في نهاية أحد الأعشاش، فصاح وهو يصارع الدبابير التي تغطي وجهه:

"وجدت شيئا، هيا نهرب، لن أحتمل أكثر من ذلك"

هربنا من المكان تاركين الحقيبتين وراءنا، وشـرعت طبقة الدبابير تتركنا وتعود إلى أعشاشها المدمرة، كنا نظن أننا سلمنا من اللسع، كان الادرنالين مازال يعمل في جسـدينا، لذا لم نحس بأي ألم في البداية، أخذنا نجري مبتعدين نازلين من الجبل، صـحت أثناء السير:

"ماذا وجدت يا رجل؟"

رد بصوت حاد:

"قماش سميك يحوي شيئا ما يشبه الكتاب أو السجل"

"هل نتوقف في المأوى لنتصفحه؟"

أجاب بشكل قاطع:

"الوضع ليس آمنا هنا"

كانت أنفاسـي متقطعة حين اقتربنا من أسـفل الجبل، كان القمر مازال سـامرا في الأفق البعيد، وعند المنعطف الأخير، فوجئنا بأشـخاص يصـعدون نحونا، ثم أطلقوا النار علينا، فسـقطنا على الأرض من الخوف، ونهض نصر مصدرا أصوات مرعبة تشبه صـراخ الوحوش، وأخذ يُسـقِط الأحجار الكبيرة على الصـاعدين، واحتذيت حذوه مطلقا الأصـوات ذاتها، ودحرجت الأحجار عليهم، فتشتت شملهم في كل صوب، وسمعت نصر يقول بصوت هادر:
"اتبعني، يجب أن نسلك طريقا آخر"

سـحب مسـدسـه الذي غطاه الطين، وركض في طريق جانبي نحو مدرجات من الحقول، وهناك غصنا بين سيقان الذرة الكثيفة، ونزلنا من حقل إلى آخر، وأصوات الرصاص يدوي خلفنا، وأقدام الرجال وأجسـادهم تصـنع أصـوات عديدة وهم يركضـون كالشـياطين صـارخين كالقردة، لذا لم نتوقف أو نخفف من سـرعتنا رغم أن أنفاسـنا أوشكت على النفاد. وصلنا إلى طريق للسيارات تقود إلى

قرى بعيدة عن الجبل، وسمعنا بالمصادفة صوت دراجة نارية قادمة، فانتظرنا حتى ظهر شخص راكبا عليها، وغمرنا ضوؤها المشع، وحين رآنا الشاب بذلك الشكل المخيف أوشك أن ينحرف عن مساره ويتدحرج للأسفل، لأن حكايات الجان والعفاريت والأشباح متداولة بين القرويين بشكل واسع، فصاح نصر لاهثا رافعا يده باستسلام:

"لا تخف يا أخي، نحن من البشر"

سيطر الشاب على دراجته، ثم اقترب بحذر وقال مشيرا إلينا بخوف:

"أنتما حقا مرعبان، مغطيان بالطين، وأنت تحمل في يدك مسدسا!"

دس نصر مسدسه خلف حزام الجينز، والتفت إلى الأعلى قائلا بقلق:

"أعرف أن شكلنا مزعج، لكن بوسعك أن تأخذنا إلى مكان آمن مقابل مبلغ جيد من المال"

"لكني لا أؤجر دراجتي، أنا عائد للتو من زفاف صديقي"

تعالت أصوات الأشخاص الغاضبين في الأعلى، وبدت قريبة، فتقدم نصر بجرأة وقلق، ووضع مسدسه على خادع الشاب، وأجبره على النزول، قائلا بتوتر:

"انزل أيها الغبي، وابتعد عن الطريق حتى لا تصيبك رصاصات الأوغاد الذين يطاردوننا، سيظنون أنك جئت لمساعدتنا"

بقي الشاب في مكانه يصيح بغضب ويقذف الأحجار خلف الدراجة الهاربة، وبعد لحظات قليلة دوى صوت طلق ناري، وحين التفت خلفي مذعورا لم أر الشاب واقفا على قدميه، وسرعان ما ظهر الرجال، وجعلوا يطلقون النار على الدراجة التي ابتعدت عن الخطر المميت.

تنفس نصـر الصـعداء، في حين ارتفع صـوتي المتذمر، صـرنا مطاردين من الزيود، وهي أكبر الجماعات الدينية المسـيطرة في البلد، ويعود نسـب كثير منهم إلى بني هاشـم الذين سـكنوا مكة قبل ألف وأربعمئة عام، وهم اليوم يحكمون المناطق الشمالية والوسطى سـياسـيا ودينيا ويديرون المسـاجد في كل المدن والأرياف، وقد تحالفوا دينيا مع الإيرانيين الفارسـيين، وأصـبحوا قوة وعصـبة لا تقهر في الشـرق الأوسـط. الآن، أمسـينا هدفين مشـروعين للقتل أو الاعتقـال، أين بوسـعنـا الاختبـاء من هـذا الاخطبوط الاجتمـاعي والعسـكري والسـياسـي الذي يملك أذرعا بكل مكان في البر أو البحر، سـوف يطاردونا ليلا ونهارا حتى يمسـكوا بنا، ومن ثم يبرمون لنا تهما كبيرة منها الهرطقة والكفر والخيانة العظمى.

صاح نصر بغضب:

"أرجوك، توقف، دعني أقود الدراجة وأفكر بما يجب أن نفعل"

ارتفع صوت احتجاجي:

"كيف تجرؤ على فعل شـيء رهيب كهذا دون أن تكون لديك خطة شاملة؟"

"لدي خطة جيدة، لذا أرجوك لا تشتت انتباهي بثرثرتك المحمومة عما كان يجب أن يكون"

"أخبرني أين نذهب الآن؟"

أجاب نصر بعجل:

"سنزور زميلا لي في قسم التاريخ يعيش بمكان هادئ خارج المديرية"

"سوف يفزع زميلك المسكين"

ضحك نصر وقال:

"بالطبع، سيطلق علينا النار، لذا سنزيل الطين عند أقرب مياه جارية"

وســاد الصــمت بعض الوقت حتى توقفنا عند مجرى لمياه المطر، ترجلنا وتمددنا على المياه الباردة القادمة من الجبال العالية، غســلنا جسدينا بشكل لائق، وأحسسنا بحاجة للارتياح والنوم والاحساس بشيء من الدفء، لكن لا سبيل للتوقف مدة طويلة، لأن الأشخاص الحاقدين لن يدعونا نمضي بسلام، سيتبعنا أولئك الرجال الماكرون ليستعيدوا ذلك الشيء الغامض الذي يهددهم، مازال القماش يطوي ذلك الســر الذي لم نكشــف عن محتواه. لحســن الحظ أن المياه لم تخترق قماشــه الثقيل، وأن تلك الأوراق اختبأت خلف ثياب نصــر المكسوة بالطين، كان ملمسها خشنا وشكلها مهيبا عتيقا يبعث على الرهبة والخوف. لذا فضلنا أن نصل إلى مكان آمن ثم نكشف عن سر هذا المخطوط الغريب.

بعد أن اغتسلنا اكتشفنا أننا مصابان باللسعات، أيدينا وخدودنا غدت منتفخة محمرَّة، وبدأ الألم يعذبنا بشدة، لقد استطاعت الدبابير أن تخترق الطين، أحسسنا أننا لم نعد نستطيع النظر بسبب انتفاخ أجفاننا. كما شعرنا بحمى عارمة جعلتنا ننزوي في بقعة مواربة من المجرى، كان الصبح مشرقا حين عثر علينا فلاح نشيط قرب ساقية تؤدي إلى حقله، فأخذنا إلى منزله ونحن بالكاد نســتطيع الســير، وسرعان ما عرف أننا مبللان بمياه المطر، ومحمومان، ومنتفخان بسبب اللسعات، فاستبدل ملابسنا بأخرى جافة، ودثرنا بالبطاطين الثقيلة. وظن أن النحل قد هاجمنا، لذا سقانا شيئا من منقوع العسل الذي يتداوى الناس بواسطته حين يتعرضون للسع في موسم جني العسل، لكني وصديقي غرقنا في سبات عميق، وما لبث الرجل أن فطن أننا غائبان عن الوعي بسبب الحمى الشديدة، لذا ظل يتحرك حولنا بقلق عارم خائفا أن نموت في داره، وبالكاد أفقت أنا من الغيبوبة، فأخبرني الفلاح الطيب أن غيبوبة الحمى ليســت جيدة،

وضـــحك للتعبير عن ترحيبه ورغبته في الحديث إلى أحدنا ليعرف منه ما جرى، فسألته بصوت ضعيف:

"أين نحن؟"

"أنتما في داري"

"كم مضى علينا هنا؟"

"بضع ساعات فقط"

وأعقب مضيفا:

"أنتما مبللان مصابان بلسعات النحل، لذا داويتكما بالعسل، انظر إلى صديقك، يبدو متعبا أكثر منك، أظنه أصيب بكثير من اللسع"

قدم لي الرجل مرآة لأشـــاهد ملامحي التي بدت غير بشـــرية، فأصبت بالذعر من وجهي المنتفخ الذي صار يشبه وجه الجني في فيلم سيد الخواتم، فقلت بشيء من الضيق:

"إنها لسعات دبابير"

قفز الرجل من موضعه، وانفجر صارخا:

"لِمَ لم تخبرني بهذا من قبل، لسعات الدبابير لا ترحم، أخشى أن يتوقف قلب صديقك بسبب السم"

وغاب الفلاح العجوز قليلا ثم عاد حاملا آنية قذرة تحوي فضـــلات أبقار طرية، وراح يمسح وجه صديقي نصر، الذي بدا غائبا عن الوعي أو ميتا، لكن الرجل المســـن لم يعلن عن موته بعد، هكذا فكرت، وشعرت بشيء من التقزز والرغبة في الضحك، لكني بدلا عن ذلك زحفت سادا أنفي حتى لمست صدر صديقي، ولم أحس بأي نبض أو حركة في أعماقه بســـبب اضـــطرابي، رأيت ديدان بيضاء تعيش بين الفضلات تسبح على وجهه، فقلت مخاطبا الرجل بفجيعة:

"كيف تطلي وجهه بهذه القذارة وهو ميت بلا حراك؟"

أجاب بثقة:

"ليس ميتا يا بني، ســـبق أن تعرض حيوان أملكه للســـع الدبابير، فغطينا جسده بالفضلات، واستطاعت هذه الديدان البيضاء أن تمص الســم من جســده، كما ترى نحن نعالج أنفســنا بمواد عضــوية من الطبيعة، فالمشافي بعيدة عنّا، والملدوغ سوف يموت قبل أن يصل إلى أقرب مدينة"

تنبهت إلى المخطوط الذي كنا نحمله فصحت بتهور:

"هل وجدت شيئا يخصنا؟"

أجاب مازحا:

"أوه، ذلك الحمار الحديدي الذي كنتما تركبانه! لقد جعلت أحدهم يخفيه بين الأشجار على حافة المجرى"

ضحكت لكن الألم أوقفني بحيث صعب عليّ تحريك شفتيّ ووجنتيّ الوارمتين، فقلت متألما:

"آه، لا أقصد الحمار الحديدي، بل شيء آخر مطوي بقماش ثقيل"

نهض الفلاح المسن وجلب القماش المطوي وقال:

"أهو هذا الشيء الذي تقصده؟ لقد أوشكت أن أرميه في المجرى، لكني لحسن الحظ لم أفعل، أهو شيء هام؟"

"أحسنت صنعا، فهذا الشيء يخص صديقي، ولعله هام حقا"

صدر أنين متقطع من الزاوية، فقفز الرجل المسن نحو المريض، وطلب مني يد المساعدة قائلا:

"بوسعنا الآن أن نغسل وجهه وأطرافه"

وصــاح الرجل المســن طالبا من بناته إطلاق البخور وتقديم الطعام حتى نفرغ من عملنا، وهكذا قمت متحاملا على مرضـــي، وقدنا نصـــر إلى الحمام، فتقيأ ما بداخله، وأنا كذلك، ثم نظفناه جيدا من الفضـلات، وأعدناه كما كان إلا من رائحة بغيضــة ظلت محلقة في الجو، كانت الحجرة نظيفة، والغداء موضـــوعا على الأرض، خبز ساخن وعصيدة ذرة ومرق ولحم دجاج محلي مسلوق، فأكلنا القليل رغم جوعنا، وتكلم نصر أخيرا بصوت واهٍ:

"أين نحن يا سام؟"

قلت بعصبية:

"نحن عند فلاح طيب منذ بضع ساعات، لقد كادت اللسعات أن تقتلنا!"

قال الفلاح المضيف:

"أنت في حورة يا بني، وأنا هادي ســـريع، وقد التقينا دون موعد عند المجرى، وعلى كل حال، أنتما محظوظان إذ نجوتما من لسعات الدبابير"

بعد الغداء ارتحنا قليلا، ثم استعدنا نشاطنا وملابسنا التي جفّت، واستطاع نصر أن يسير دون مساعدة، وسار الفلاح معنا ليرشدنا إلى مخبأ الدراجة، وهناك وجدناها في حال جيدة، باستثناء أنها بعوز للوقود، فبعث الفلاح أحد أحفاده إلى التاجر الوحيد في القرية القريبة، فجلب قنينة كبيرة ممتلئة بالبنزين، وقدت الدراجة هذه المرّة، وكنت منهمكا بتحاشي الحفر والأحجار البارزة، وجاء الدور على نصر ليثرثر ويزعجني، فأخذ يشكو بتأفف:

"ما تلك الرائحة القذرة التي فاحت في أرجاء الدار؟"

أجبت بتشفٍ:

"إنها رائحة فضلات الأبقار"

"هذا ما دار في ذهني، لكني خجلت أن أسأل الفلاح الطيب عنها"

"حسبتك تعرف أنها العلاج الذي جعلك تستفيق من الغيبوبة"

رد ببراءة طفل:

"أنت محق تماما، ربما جعلتني تلكم الرائحة أفيق من غيبوبتي، فمازلت أشم شيئا منها في أنفي حتى الآن"

ضحكت حتى أوشكت على الانحراف عن الدرب الوعر، ثم قلت:

"سامحني على ضحكي، لكنك لن تصدق أن هذا الرجل غطى وجهك وأطرافك بهذه الفضلات، ولولا أنني أفقت من الغيبوبة لكان غطى وجهي بها أيضا"

صاح متسائلا بحنق وريبة:

"هذا محال، أي علاج قذر هذا؟ ما يدعوه للاعتقاد أن الفضلات تخفف من اللسعات؟"

"يظن أن الدود الأبيض الذي يعيش وسط الفضلات يمتص سم الدبابير"

"عليكما اللعنة"

وأخذ يتقيأ ما بداخله، وبعد قليل من الوقت، أخذ يشكو من غبائي، لأني لم أفطن إلى أن الاعتراف بلسعات الدبابير سوف تقود للقبض علينا دون شك، فكر في أن الرجال الذين طاردونا سيعودون إلى منازلهم لأخذ قسط من الراحة، وما يلبثوا أن يبعثوا رقم سيارته إلى البحث الجنائي بالمحافظة، وسرعان ما يعرفون اسمه كاملا، وتاريخ ميلاده، واسم قريته ومديريته، وسيصلون إلى جامعته، وينقبون عن أدق تفاصيل حياته، ويحققون مع أصدقائه وأقاربه، ومن ثم يحاولون الوصول إلى مكانه، لكن لحسن الحظ أنه سوف يذهب إلى صديق قديم يدعى محمد بن جرجور عرفه في السنة

الأولى بالجامعة، شـاب طيب انضـم إلى قسـم التاريخ، وجمعتهما صداقة وثيقة، وبقي يدرس لمدة عام، حتى بعث له رسالة يخبره أن والده فارق الحياة بجلطة دماغية مفاجئة، لذلك لن يستطيع أن يكمل تعليمه الجامعي، لأنه الذكر الوحيد في العائلة، وأصـبح على عاتقه أن يشرف على الحقول والأملاك، ويومئذٍ، سار وثلاثة من أصدقائه إلى قرية الجراجرة، لتقديم واجب العزاء. كان صـديقه هذا يقيم خارج القرية وسـط حيد مغطى بتوليفة من الأشـجار والنباتات الغامضة، بدت حقولهم كثيرة ووادیهم خصب، ومسكنهم ينقسم إلى منازل عديدة للضـيوف والعمّال والحريم، لذا بالوسـع الاختباء مدة عام دون أن يشعر أحد.

سألت باهتمام:

"أي نوع من الأصدقاء هو؟"

"إنه صديق جيد"

قلت بضيق:

"هل يجب أن يعرف عن المخطوط والسر والخطر الذي يتعقبنا؟"

رد نصر بعد لحظة من التفكير:

"سنخبره عن كل شيء في حال استقبلنا بشكل جيد"

"وإن لم يفعل؟"

"سنفكر حينئذٍ بما يجب أن نعمل"

"نعم، هذا أمر منطقي"

قلت ذلك دون وعي، كانت قد خفت حدة وسـاوسـي وشـكواي، وصـرت متقبلا للظروف السـيئة التي نمر بها، كما يفعل الرجال الذين يؤمنون بالقدر خيره وشره، لا شك أن كل شيء يحدث وفق خطة تأتي من مكان ما، والتبرم منها أو عدم قبولها سـوف يؤدي

إلى إخفاقك أو يضـــاعف من أقدارك الســيئة. وهكذا وجدت نفســي مستسلما إلى حد لا يوصف، بل شعرت بشيء من الانجذاب نحو الأشياء المجهولة القادمة، وقلت لنفسي ليس بوسعي اعتراض القدر أو حجبه. فهذا أمر خارج عن إرادتي، وليس لي في كل ما يجري حيلة، لقد كنت أبحث عن المغامرات والألغاز، وها قد أتت إليّ دون سابق إنذار. لذا يتحتم أن أتكيف مع وضعي الجديد كهارب من وجه السلطات الدينية المسيطرة في البلد.

وثيقة بني أمية

وصلنا إلى منطقة الجراجرة، كان المكان حصنا أو مجمعا سكنيا من عدة مبانٍ حجرية على ظهر تل صـــخري محاط بغطاء نباتي كثيف، بدت القرية غائرة عند طرف الوادي، والحركة نشـطة عند الحصـن أكثر من أي مكان آخر. فهناك بضـــعة عمال يقومون بأعمال الحفر خارج التل وكأنهم يحفرون بئرا أو حجرة لمياه الصرف الصحي.

كانت السـاعة تشـير إلى الخامسـة مسـاءً، حين أوقفنا الدراجة في موقف السـيارات خارج البيوت. رأينا طفلا قرب أحد الأبواب، فأشـرنا له بالتحية، فاختفى ليبلغ عن وصـولنا، مكثنا قليلا، ثم خرج صـاحب الدار بملابسـه التقليدية، وما إن رأى صـديقي نصـر حتى رفع كفه في الهواء ترحيبا بالضـيف، وهرول على نحو مفاجئ، وصـافحه بحرارة، ثم صافحني أيضا، وطلب منا أن نتبعه إلى مجلسه.

ولم يسأل بن جرجور عن سبب قدومنا كما جرت الأعراف، لأن سؤال الضـيف يعني أن المضـيف ضـاق ذرعا بقدومه، لكن على الزوار أن يفصـحوا بأنفسـهم عن سبب زيارتهم، ويستحسن أن يكون ذلك في اليوم الأول، وقد تناقش الصـديقان عن الأيام الخوالي، وبدا المضـيف طيبا وكريما، حيث ذبح لنا كبشا دون أن نعلم، وقدمه على العشاء، فقال نصر متبسما بفتور:

"هذا كثير على العشاء، نحن اثنان كما ترى"

تبسم بن جرجور وأجاب بتواضع:

"أنتما ضيفان عزيزان، وما بقي سيحفظ للغد"

"أخشى ألا نقيم إلى الغد، أو نقيم عندك مدة طويلة إذا غفل عنّا المطاردون"

ظهر القلق على ملامحه وأجاب بارتباك:

"إذا لم يكن هناك جريمة قتل فبوسعكما البقاء إلى الأبد"

هز نصر رأسه نافيا وقال:

"لا يا رجل، إنه أمر يتعلق بالجانب الأخلاقي"

فغر المضيف فمه مذعورا وأجاب باضطراب:

"هل المجتمع هو الخصم؟"

رد نصر بتلبك:

"بل جماعة من الزيود"

"هذا الأمر رغم خطورته محل نظر، فأنا لا أحبهم"

"اجلب المخطوط يا سام"

وروى نصر للمضيف شيئا مما جرى في قرية الدير وعلى الجبل، واختصر قدر الإمكان توفيرا للجهد والوقت، ولما انتهى نظر إليّ نظرة شخص يعطيك الدور في الكلام، فأشرت إلى المخطوط، وقلت بتهيب:

"لم نفتح هذا الشيء بعد، لقد طاردنا أشخاص مجهولون وأوشكوا على قتلنا، وأنا أخشى أن نكون متهمين ومطاردين على أوراق تافهة"

تبسم الرجلان، وأخذه نصر من يدي، بسبب قدرته على تهجي الحروف العربية الملتوية الخالية من النقاط، وبدأ بقراءة المخطوط الرث.

الوثيقة الأصلية:

كانت الوثيقة الأصلية تضم بضعة أوراق عديدة من البردي كتبت بخط ثقيل ركيك بالكاد يفهم، وهي اتفاق بين فخذين من قبيلة قريش كانا يعيشان في مكة، كل فخذ يتوسط دائرة وسط الوثيقة لأجل الايضاح،

والفخذان هما بنو هاشـم وبنو أمية، وتحكي صـراحة أن اثنين من سـادة قريش وهما عبدالمطلب بن هاشـــم وأمية بن خلف التقيا ذات يوم قرب جدار الكعبة المقدســـة، كان الجو حارا والرياح تنثر الغبار في الأرجاء، لذا اسـتظلا تحت الجدار الذي لا تأتي الريح إليه، وهناك نظرا إلى القرية البائســـة التي تبدو في حال مزرٍ، وهنا قال أمية بغضـــب مخاطبا رفيقه وكأن الشيطان نطق على لسانه:

" انظر يا ابن عم، إلى هذه الكعبة المقفرة توشك أن تندثر بسبب انصراف العرب عنها، في حين تتسع شهرة كنيسة صنعاء ويحج إليها الآلاف كل عام، لا أعرف لِمَ لا يبعث الله نبيا يحيي هذه الأرض أو يدمرها؟ وعسـى طرق التجارة تمر من هنا ونصبح محفلا مقدسا للعرب"

ضحك عبدالمطلب وقال متعجبا مما يسمع:

"أتريد أن نصنع نبيا من عجوة تمر، ثم نبعثه للعرب؟"

قفز أمية عاليا وكأن حشرة لسعته في مؤخرته وقال:

"لننفخ فيه الروح إن اسـتطعنا إلى ذلك سـبيلا، يكفي بني إسـرائيل ما ظفروا بهم من أنبياء، أليس لنا نحن العرب حظ في ملكوت الرب؟"

رد صاحبه بإحباط:

"لقد أخفقنا في حشد موافقة العرب على تنصيب ملك من قريش، ولا أظن أن هذا هو الوقت المناسـب للبحث عن شـخص يجمعنا، ولعل حالنا اليوم يكون أحسن من الغد في ظل رجل غشيم"

"ســـيكونون مرغمين على قبول نبي من قريش، وهو في الحقيقة ملك بثيـاب نبي، هـذا مـا يعوزنـا يـا ابن عم، فـاليمنيون يتصـــــارعون ويتضـعضـعون، والفرس والروم في أسـوأ أحوالهم، وأهل مصـر والشـام يعملون كمرتزقة بسبب الفاقة، ونحن العرب رعاة الماشية ينبغي أن نجد رجلا يجمعنا سواء كان غشيما أو حليما..."

قاطعه عبدالمطلب متوسلا:

"كف عن التحديق في الفراغ يا أمية، سوف يسحقنا العرب قبل أن نتنفس الصعداء، ولن ينجو هذا الرجل الدعي من سيوفهم، وستبقى سيرتنا مضغة في الأفواه، ويصبح نبينا مضربا للأمثال"

"نريد نبيا محاربا يقود العبيد والأوباش ويضرب بهم أعناق السادة والملوك.. صدقني يا ابن عم"

"نبي محارب؟ لم أسمع بشيء كهذا من قبل"

"لا تهتم، نريد صغيرا حاذقا يميل إلى الانطواء والتعبد لنعده للأمر"

لمعت عينا عبد المطلب بانتباه وقال:

"حفيدي اليتيم قُثَم يحضر دروس ابن نوفل، وهو فتى مخاتل حاذق"

تبسم أمية قائلا بسخط:

"ما أكثر جشعكم يا ابن عم، أنتم تملكون سدانة الكعبة، ثم تطمعون أن يكون هذا النبي منكم"

رد عبدالمطلب بغضب:

"وأنتم زعماء قريش، وتريدون النبوة أيضا، كما تعلم فإن هذا من اختصاصنا، نحن خدام الرب، ننظف البيت المقدس، ونجمع النذور لكم، ماذا تبغون أكثر من ذلك؟"

"حفيدي المغيرة فتى حاذق، وأنا أربيه على الدين منذ زمن، لذا دعوا النبوة لنا وخذوا زعامة قريش، وكما تعلم، فإني والله صاحب هذا الرأي وبدوني لن يتم الأمر"

"لنحتكم إلى رجل لبيب يجربهما في شيء ما، ونرى أي منهما يفوز بالتجربة يكون نبيا"

"هذا أمر حسن، دعنا نمر على هذا الرجل"

ومرا على غيث بن مزاحم في صومعته، وهو رجل حكيم أعمى يرشد الضالين والجاهلين، ويقيم الحجة في معظم نزاعات العرب المشهورة، فتقدم منه الرجلان، وقالا بصوت واحد:

"عمت صباحا يا حكيم العرب"

فأجاب الحكيم بعجب:

"عمتم صباحا يا سيدي قريش، والله ما تجتمعان إلا لشر محض أو خير عميم"

رد عبدالمطلب:

"نريدك أن تختبر صبيين لنرى أيهما أجدر من الآخر في الدين والدنيا"

حك الرجل الحكيم رأسه وأجاب مكشرا:

"والله ما اجتمع الدين والدنيا إلا فسدا معا، والله ما أراكما إلا تعدان ملكا ونبيا، فاخبراني من يكونان"

رد أمية سريعا:

"حفيدي المغيرة واليتيم قُثَم بن عبد اللات"

نادى الحكيم على خادمه بِشْر، ولما أقبل قال له بصوت هادئ:

"خذ بيضة ودجاجة في يدك، واذهب إلى الفتى المغيرة ثم اليتيم قُثم، وقل لهما على انفراد أيهما جاءت أولا البيضـــة أم الدجاجة! ثم عد إليّ بالجواب"

خرج الخادم مسرعا، فقال الحكيم بضيق:

"أنتما مدينان لي بثمن بيضة ودجاجة، وبالأمان على حياتي لأني كما تريان رجل مسن متكتم"

رد عبدالمطلب بشهامة:

"بل مدينان لك بزوج من الإبل النجيبة، فأخبرنا عن الجواب حتى نكون على بينة، ولا تخش شيئا إن عشت كتوما"

"الفتى الذي يصلح أن يكون ملكا ونبيا هو الفتى المحتال، بحيث يسلب البيضة والدجاجة من الخادم، ويجعله ممتنا كأنما أصابه بالسحر"

ضحك الرجلان وسأل أمية:

"والفتى الآخر"

"ذلك الصادق النقي الذي لا يصلح للملك والنبوة، وسيقول لا أعلم"

وجلسا يتحدثان حتى عاد الخادم بيدين خاويتين، وقال بافتتان:

"استقبلني الفتى اليتيم قُثم بدماثة، وأخذ البيضة والدجاجة برفق، وركلني على مؤخرتي قائلا إنه سيجيب على سؤالي في وقت لاحق حين ينزل عليه الإلهام، يا له من فتى صالح"

رد الحكيم على الخادم:

"سيظل يركل مؤخرتك إلى الأبد"

صاح أمية بسخط:

"والمغيرة ماذا فعل؟"

"لم يقل شيئا"

"أكان يجب أن يسرقك ويركل مؤخرتك كما فعل قثم؟ أهكذا يريد العبيد أن يعاملوا؟"

وخرج غاضبا، وتبعه عبدالمطلب قائلا ليكسر حدة الصمت:

"سنكتب وثيقة صريحة تنظم الاختصاصات لكل طرف، لكم الملك، ولنا النبوة وجمع النذور أو ما يقابلها"

"سأكتب نسختين منها، ولن تقوم لكم قائمة في حال اقتربتم من المُلك"

تبسم عبدالمطلب وأجاب باستخفاف:

"لا تهددنا على شيء لم يحدث، دعنا نرفع من شأن الصبي بين العرب، وندع ابن نوفل وبحيرا يقولان عنه شيئا روحيا كأنما بشرت بنبوته الكتب المقدسة القديمة"

"اذهب إلى الراهبين، وأنا سأكتب الوثيقة، وحين ننتهي سنعلقها على جدار الكعبة من الداخل، ونمزج الدماء عليها، وأيضا نضع خصلات من الشعر عليها حتى تكون مكتملة مختومة بتقاليد العرب"

ورق أبو بكر:

كتبها عبدالله بن قحافة (الخليفة الأول أبو بكر الصديق) وهو صديق قُثم بن عبد اللات (النبي والملك محمد بن عبدالله) وينتمي كاتبها ابن قحافة لبني أمية، ويقول في هذه الوثيقة إن صديقه قُثم (محمد) بدأ يحابي بني عمومته، ويمنحهم مباركاته، ويطلب لهم الولاء والنصرة من الناس، زاعما أنهم الأحق بالحكم والموالاة من غيرهم، حين ذلك ذهب إلى صديقه محمد وقابله على انفراد في أحد منازله الكثيرة، وبدأ يذكره بالاتفاق القديم المبرم بين بني هاشم وبني أمية، وأخبره في لحظة غضب أنه ليس نبيا، ولم يكن بهذا المجد لولا أموال بني أمية، وهو بالذات قدم معظم ماله في سبيل الدعوة لنبوة محمد، وابتاع كثيرا من العبيد الذين وعد بإعتاقهم في حال بايعوا محمدا نبيا..

وقال له هامسا:

"اسمع يا صاحبي، إن مصالحنا لن تصلح في حال خرجنا عن وثيقة سيديّ قريش، وسيقودنا ذلك إلى الشقاق، وها هم العرب استجابوا وآمنوا، فدعنا نتمسك بالعهد المكتوب حتى لا يتفرق هذا الحي من قريش، ونعصم دماء القوم"

وفوجئ بصديقه محمد، يخاطبه محذرا:

"ويحك يا بن أبي قحافة، إن الله يغضب حين يسيء أحدهم إلى نبيه ولو كان صحابيا جليل القدر مثل أبي بكر، وإن كل ما أفعله يأتي به جبريل من السماء، فإياك أن تصير من المتشككين بنبوتي ورسالتي"

أخرج أبو بكر الوثيقة، ووضعها أمام صديقه محمد قائلا بتلطف:

"جدك مزج دمائه هنا وترك خصلة من شعره على هذه الوثيقة، وإنك والله تقترب من اختصاصنا في المُلك، وتحرض أبناء عمومتك على الموالاة. فيكفيكم شرف النبوة، ولا تبلعوا أكثر من حصتكم، فتختنقوا"

تبسم محمد وقال بدهاء:

"ليس هناك وثيقة سوى القرآن، وأي ورقة غير كتاب الله ليست في شيء، فهيا بنا إلى المسجد للصلاة"

"إن الآيات التي تأتي بها مقتبسة من الكتاب المقدس، ومازلت تقول آمين بعد آيات القرآن كما كنا نفعل حين كان يقرأ لنا ورقة بن نوفل من الأناجيل..."

قاطعه محمد قائلا بمكر:

"ستكون خليفتي ولسوف يعز الله بك الإسلام، وتضرب على أيدي المرتدين من العرب ضربات كالجمر"

"إنك والله تعلم أن العرب قد ضاقوا ذرعا بالمال الذي تقبضه منهم كل عام، وإني لأعد العدة لاسترداد إيمانهم وأموالهم بالسيف"

"صبرا يا ابن أبي قحافة، سترى ما لا يخطر لك على بال "

وفي فناء المسجد جلس محمد يحف حوله كثير من الموالي والمؤمنين الذين يحملون سيوفهم، هذا يرفع ثوبه، وذاك ينحني على حذائه، فأخذ يكثر من البصاق، فيتهافتون على أخذ بصاقه ليمسحوا وجوههم، وفكر أبو بكر أنهم سيشربون بوله لو بال أمامهم. ونظر إليه محمد نظرة ذات

مغزى واضـــح، وفهم ابن أبي قحافه (أبو بكر) الرســـالة جيدا، أدرك أن صـــاحبه خرج عن الســـيطرة، ولم يعد هناك جدوى من تذكيره بالوثيقة القديمة، إذ أمسـى الألوف من الناس يؤمنون بنبوته ويتمسـحون ببصـاقه، وصـار يظن نفسـه نبيا مرسـلا من السـماء حقا، ما لبث أن تظاهر بالندم، وقال بانكسار:

"صدقت، بأبي أنت وأمي يا رسول الله"

وانسحب بهدوء، كان يدرك أن محمدا ذكيٌ وحذرٌ للغاية، ولا يسمح لأحد بـالاقتراب من منـازلـه دون علمـه، حتى أنـه كـان يترك غلمـانـا يراقبون الزوار ويفتشـــون أمتعتهم، فأعيى حذره بني أميه المتربصـــين لغفلته، ولأجل ذلك خططوا لحادث الإفك، وزعم محمد أن الوحي تـأخر عنـه، وبقي المؤمنون في قلق منتظرين لما يأتي من السـماء بشـأن هذه الحادثة التي تسـيء إلى محمد وزوجه، وأتى "علي بن أبي طالب" إلى ابن عمه، ونصـــحه أن يطلقها ويتزوج امرأة خيرا منها، فاتجهت حانقة إلى بيت أهلها حتى ينزل الوحي، ويقرر زوجها ما يفعل بشـــأنها، وهذا ما كان ينشـده ابن أبي قحافة الذي لم يهتم أن يتشـوه وجه ابنته وتثار عنها أسـوأ التهم وهي الزنـا والخيـانـة التي كـانـت عقوبتهـا الرجم حتى الموت في التشـــريع المحمدي، لم يأبه لكل ذلك، إذ اســـتطاع أن يجتمع بابنته ثانية بعيدا عن رقابة صـــاحبه، وســـألته لائمة عما كان ينشـــده بالإيعاز إليها بالتخلف عن الركب! هل كان حقا يريد أن يلوث ســـمعتها ويدع زوجها يهجرها؟ وطلبت من والدها أن يمنحها ســـببا وجيها، ثم يخلصـــها من المأزق الذي وجدت نفسـها فيه دون شـعور، فهي تود أن تسـتعيد سـمعتها الحسـنة ووجاهتها في مجتمع المدينة، أما محمد فلا تهتم بشـأنه، لأنه غدا خاويا من عصـارة الشـباب، وهنا أفشـى لها بالسـر الذي يكتمه في صـدره طويلا، ولا يعرفه سـوى قلة من بني أميه وبني هاشـم، ولا أحد يجرؤ أن يذيعه في تلك الفترة، لأن المؤمنين صـاروا يقدسـون محمدا أكثر من أي شيء آخر في الوجود، لكن صاحبه نكث العهد وخالف الاتفاق، وهذا ليس من أخلاق العرب، وأطلعها على فحوى الوثيقة، فقالت هازة رأسها بيقين:

"لقد كنت أشك في أمره، لا أحد يعرفه أكثر مني، إنه يكذب كما يشرب الماء، ويصاب بالصرع ويسمي ما يقوله وحيا"

كانت متوترة وغاضبة، وقد سمعت بما دار بين علي ومحمد من كلام، وأحست بضغينة شديدة، ولما عجز محمد أن يأتي بآيات تبرئ امرأته من فعلتها، سار أبو بكر يحمل هذه الآيات، وألقاها على مسمع صاحبه، لذا عادت ابنته إلى زوجها في اليوم ذاته وهي تحمل شيئا مهلكا بين ثيابها ستدسه في طعامه. وهنا يشير أبو بكر أن صاحبه محمد يجب أن يموت لأنه لم يحسن التصرف ولم يفِ بالعهد، وقد نصحه أن يدع المُلك لأصحابه، لكنه أبى واستكبر، وقد أخبره أنه خليفته الذي سوف يقاتل المرتدين، وهذا الأمر لا يحتاج إلى وحي، بل إن محمد وكثير من القرشيين يدركون أن العرب سوف يرتدون عن هذا الدين الذي أرهقهم بالحروب والجبايات، وما ينتظرون إلا موت هذا الرجل الدعي ليخرجوا من الإسلام قاطبة. لكن أبو بكر لهم بالمرصاد، وسيعيدهم بحد السيف، لأن الوثيقة القديمة تسمح له أن يتولى الحكم باعتباره المرشح الأبرز من بني أمية. وليس على بني هاشم سوى أن يصيروا فقهاء، وجُباة للزكاة، وخطباء في المساجد.

ورق زعيم الخزرج:

كتبها سعد بن عبادة زعيم الخزرج الذي روى كيف اجتمع معظم الصحابة في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة أو زعيما جديدا للمسلمين، واتفق القرشيون القحطانيون أن يكون أبو بكر هو المختار، وهنا شعر أن اليمانيين العدنانيين لا حصة لهم في الحكم، وأنه تم استغلالهم وخديعتهم. فخرج من الاجتماع حانقا، وسار وسط المدينة عابرا حي القرشيين في طريقه إلى منزله الصغير الجاثم في أقصى المدينة، وأثناء سيره أحس بالحسرة الشديدة، إذ تخلوا م عن بيوتهم وأملاكهم ونسائهم لمحمد ورفاقه القرشيين الذين جاؤوا مطرودين من مكة، فأصبحوا أخيرا يملكون كل

شـــيء في المدينة، فيما غدا أهلها وســـادتها الحقيقيين يعانون من الفاقة. وفيما هو يخاطب نفســـه بألم: "خدعت وقومك يا ســـعد، هؤلاء ليســـوا مؤمنين، إنهم شـــياطين..." فجأة قفزت جارية من نافذة منزل كبير كان يملكه هو والآن يملكه أبو بكر الصديق، وكانت تمسك في يدها شيئا ما، وانطلقت هاربة، فاعترضـها سـعد واضـعا حد سـيفه على صـفحة عنقها قائلا:

"من أنت أيتها الجارية وماذا تحملين؟

ردت باكية:

"لا تقتلني يا زعيم الخزرج، أنا ثمامة جارية العباس، وقد طلبوا مني أن أجلب لهم هذا!"

"ما هذا الشيء؟"

"لا أعلم، أقسم لك، لكنه شيء هام لا يريدون لأحد أن يطلع عليه! خذه ودعني أذهب قبل أن يكتشفوا أمري"

كان ذلك جرابا يحوي بعض أوراق البردي، فأخلى سـبيل الجارية، وعاد متعجبا إلى بيته، وهناك تصـــفح الأوراق رغم خطها الركيك، كانت تلك هي الوثيقة السرية (نسخة بني أمية) التي اتفق فيها الزعيمان عبدالمطلب وأمية على تنصـــيب نبي عربي من قريش بغرض تحويل طرق التجارة إلى مكة، وجعلها مركزا حضـريا ودينيا بدلا عن اليمن ومصـر والشـام، وهنا كاد يغمى عليه، إذ سـاهم في ترسـيخ خدعة محمد، وفي تدمير بلاده اليمن، وعرف أن حياته أمســـت في خطر بالغ، لذا أخذ الوثيقة، وطواها في قماش ثقيل، ورماها في جرابه، وركب حصـــانه، واتجه نحو بلاد الشام دون أن يودع أحدا.

وأتى العباس إلى المسجد على عجل، واقترب من الخليفة أبو بكر الذي خاطبه قائلا بصوت حاد:

"ألا تبايع خليفة رسول الله على السمع والطاعة يا أبا الفضل؟"

رد العباس قائلا بتوتر:

"سأبايعك بعد أن نستعيد ما سرقه زعيم الخزرج من دارك"

"وما ذاك يا أبا فضل؟"

"أظنها أوراق الوحي، لِمَ لم تحرقوها كما فعلنا؟"

صرخ أبو بكر بغضب:

"هيا، اجلبوها حالا، إنها سلاحنا الوحيد لإبقاء الاتفاق ساريا بين الطرفين، لقد ركب الشياطين رأس سعد"

ونهض كبار بني أمية مصعوقين، فقد كانوا يطلقون على وثيقة النبوة أوراق الوحي، ورغم ذلك، وأثار الأمر اهتمام بعض المؤمنين الذين لا يفقهون شيئا، لذا أمر الخليفة أبوبكر عمر بن الخطاب أن يتصرف، وعاد إلى المسجد لاستقبال المؤمنين المبايعين، فأرسل ابن الخطاب رجلين لا يجيدان القراءة، وطلب منهما أن يقتلا سعد بن عبادة، ويستعيدا كل ما بحوزته لأنه في طريقه ليتنصر في كنائس الشام، ولا يجوز أن تقع أوراق الوحي في أيدي النصارى، فأسرع الرجلان خلف زعيم الخزرج، وفي طريقهما التقيا فارسا مشهورا هو عمر بن مكشوح الأزدي، وعرضا عليه الرفقة لقتل ابن عبادة، واستعادة ما سرقه، وهكذا انطلق ثلاثتهم، حتى رأوا زعيم الخزرج يستسقي قرب بئر ماء، فمال بن مكشوح ليربط حصانه على شجرة قائلا:

"لا تفزعا سعدا، انتظروني لأتفاوض معه واستعيد ما أخذه، ثم ندعه يمضي في حال سبيله"

ولما عاد عمر بن مكشوح وجد سعدا طريحا ينزف قرب البئر، فانحنى عليه قائلا بحزن:

"ماذا جنيت يا سعد حتى تُطعن من الظهر؟ والله أنك قدمت لقريش ما لم يقدمه أب لأبنائه. حزني عليك يا سيد قومك؟"

وبالكاد استطاع سعد أن يشير إلى حصانه قائلا بصوت واهن:

"خُذ الجراب"

حين التفت عمر بن مكشـــوح رأى الجراب في كف أحدهم، فيما كان الآخر يمسك حصـان زعيم الخزرج ويقوده مبتعدا، فانقض على الرجل الذي يمســك بالجرّاب، وطعنه، ثم لحق بالآخر وجرحه، لكنه فر مبتعدا، فأخذ الجرّاب، وجلس يقلب أوراق البردي بين يديه، قائلا في سره إن هذا ما قتل ســعدا. لذا شــرع يقرأ البردي، واندهش بشــدة، ونهض مرعوبا، واتجه جنوبا حتى وصــل إلى نجران، وهناك أعلن خروجه من الإســلام إلى المسيحية، وأودع الوثيقة الخاصة ببني أمية لدى الرهبان هناك، طالبا منهم أن يخفوها جيدا حتى يظهرها الرب. ثم عاد إلى صــنعاء ليقاتل في صــف الملك عبهلة بن الحارث الحميري ضــد باذان الفارســي ورفاقه الفرس الذين أســلموا بهدف البقاء في اليمن. وهذا الجزء من الوثيقة استهله سعد بن عبادة، واستكمل كتابته عمر بن مكشوح المرادي.

ورقة رهبان نجران:

في هذه الورقة الصــغيرة يروي رهبان نجران أن جيوش المســلمين هجمت على مدينتهم، طالبين من أهلها أن يســلموا أوراق الوحي المزعومة، وكان كبير الرهبان نصــير قد أخفاها في قعر بئر جاف يقع قرب الكنيســة، ولأجل ذلك تعرضــوا لكل صــنوف التعذيب، كان قائد الجيش يدعى ضرغام الوازعي وهو من أهالي نجران الذين أسلموا حبا في الغنائم تاركا أمه وشــقيقاته في إحدى القرى، بينما ســمح لرفاقه أن يغتصبوا الحريم دون خوف من الخطيئة، ولم يتوقع أن يجد أمه وشقيقاته في خيمة أحد القرشيين، يغتصبن ويتم اذلالهن مثل نساء نجران، فهجم على الرجل القرشي وقتله، فهجم عليه بعض القرشيين وقتلوه.

ومات كثير من المسيحيين متأثرين بجروحهم، والبعض قضوا كمدا بعد أن رأوا نســاءهم تُهتك أمام عيونهم، وقبل أن يموت همس كبير الرهبان

في أذن ابنـه غيـث بمكـان الوثيقـة الســـريـة. وظـل الرهبـان يتكـاثرون ويتنـاقصـــون مع مرور العقود والقرون، وظلوا محـافظين على عهدهم بـالاحتفـاظ بتلـك الوثيقـة التي تركهـا الفـارس الأزدي كوديعـة لا يجـب تسليمها لأحد. وآخرهم هو كبير الرهبان مزاحم بن مساعد الذي لم يكتب شيئا على الوثيقة محبذا أن يخفيها عن الأنظار وحسب.

الهاربون

وضع نصر أوراق البردي جانبا، وشخص إلى وجه صديقه بن جرجور الذي بدوره تمدد على ظهره وشخص إلى السقف مذعورا. ثم أغمض عينيه وبقي ساكنا كأنما أصيب بالموات. بقي نصر مذهولا للحظات، ثم اقترب من صديقه خائفا أن يكون أصيب بالسكتة، وحين وضع يده على صدره رمى الأخير يده بعيدا عنه صائحا بغضب غير متوقع:

"دعني وشأني، هذا المخطوط السخيف كارثة أخلاقية ضد ملياري مسلم"

رد نصر بسخط:

"أنا باحث في التاريخ، ماذا تتوقع أن أفعل؟"

"أرى أن تشعل فيه النار ونحن نصور لحظات احراقه"

"لا أعرف ما يدعوك للقلق، أنا من يجب أن يغتم ويقلق على حياته"

"كلا، لست متورطا وحدك، جميعنا الآن في عداد الموتى حتى ذلك الفلاح المسكين الذي غطاك بفضلات بقرته"

ضحكت وقلت بعصبية:

"ماذا نفعل الآن؟"

قفز بن جرجور في الهواء قائلا بحسرة:

"أستطيع أن أنجو بتسليمكما للسلطات، لكن لسوء الحظ أنكما في بيتي"

رد نصر بأسف:

"ســـامحني يا صـــديقي، لقد جلبت لك المتاعب إلى منزلك، فعلا، أولئك الرجـال لا يمزحون، لـذا عليك أن تهـاجر معنـا إلى حيـث نســـتطيع أن نبتعد"

"هل قدر عليّ أن أقضي ما بقي من عمري هاربا؟ هذا ثمن أن تكون صديقا لباحث في التاريخ الإسلامي"

وهكذا بقينا دائخين حتى انبلج الفجر، وقام صـديقنا إلى بيته، فصـعدنا إلى السطح لنراقب الطريق ريثما يعد الرجل نفسه للرحيل. بعد قليل، أقبل بن جرجور على عجل، وركبنا سـيارته التويوتا الحديثة، وسـرنا في طريقنا لا نعرف أين بوســـعنا أن نذهب! كنا نرتدي كمامات طبية كالتي يرتديها المصـابون بالزكام، وصـرنا نتكلم عن أنسـب مكان للاختباء حتى تتضـح الأمور، كان الطريق ترابيا وعرا مائلا يقودنا نحو المحافظات الشـــرقية الصـــحراوية كمأرب والجوف، ولم نكن نملك أي فكرة عن المكان الذي ينبغي أن نختبئ فيه، وفيما كنا نســـير لمحنا رجلا طريحا على الأرض، بدا واضـحا أنه رجل كبير السـن، كانت على وجهه كمامة سـوداء تسـتر ملامحـه، تعجبت من هذا الاتفـاق العجيب، هل النـاس غدوا فـارين من السلطات؟ أخذنا الرجل إلى السيارة، وفرحنا أنه حي، وحين قدمنا له قليلا من الماء، ظهر وجه الفلاح الطيب هادي سريع، فاندهشت وقلت:

"عم هادي، ماذا جرى لك؟"

وسأله نصر بغرابة:

"أخبرنا كيف وصلت إلى هنا؟"

قال بن جرجور بشيء من العجب:

"هل تعرفان هذا الرجل؟"

رد نصر باهتمام:

"هذا هو الرجل الذي آوانا في منزله وعالجنا من لسعات الدبابير"

ضرب بن جرجور كفه على عجلة القيادة قائلا بحنق:

" انظروا ما يحدث للأشخاص الذين يأوونكم"

صحت فجأة منزعجا مما رأيت:

"انظروا إليه، يبدو كمن تعرض لحادث سرقة، إن بطانة جيوب معطفه متدلية إلى الخارج"

في تلك الأثناء، تحرك الفلاح ممسكا قفا رأسه قائلا بألم:

"مجموعة من الأشخاص الملتحين ضربوني وأخذوا نقودي ورموني خارج السيارة التي كنت أركبها ..."

توقف فجأة حين رآنا فانكمش بخوف وأضاف:

"أنتما سبب كل ما جرى لي، لقد رأيتهم يطلقون النار ويسألون امرأتي عن الأشخاص الذين آويناهم فهربت من الباب الخلفي، ما كان يجب أن أفر منهم، لكن أشكالهم كانت مخيفة حقا"

قال نصر بشيء من الخجل:

"سامحنا يا عم هادي، لأننا السبب في كل ما جرى لك"

"أخبراني عما فعلتما من ذنب قبل أن تدخلا بيتي!"

قلت باضطراب المذنب:

"لا أعرف كيف أشرح لك، كل ما في الأمر هو أننا عثرنا على أوراق مختبئة في جبل السر تثبت أن ديانة قُثَم بن عبداللات باطلة، وأنه كان رجلا محتالا، بشهادة أقاربه الذين كتبوا هذه الأوراق"

نظر الفلاح المسن إليّ باندهاش وقال متسائلا:

"ديانة قُثَم؟"

رد بن جرجور بغضب:

"قُثم هو النبي محمد بن عبدالله كما تقول الوثيقة التي ظلت قرون طويلة مختبئة في الجبل، لكن هذين المخبولين اكتشـــفاها، والزيود الآن يبحثون عنهما، وعن كل شخص ساعدهما، وأنا أحد هؤلاء الأغبياء، لسوء حظي إن هذا الباحث التاريخي اللعين كان صـــديقي من قبل، لذا نحن جميعا متورطون وهاربون، ولا نعلم أين ينتهي بنا الترحال..."

"عليكم اللعنة، أنتم موتى أيها الأوغاد، دعوني أذهب إلى بيتي فأنا لم أرتكب جرما"

قال نصر بحدة:

"قتلوا ذلك الشـاب الذي سـلبنا منه دراجته النارية، لذا لا ترتكب الحماقة ذاتها، دعنا نبحث عن رجل قوي يحمينا، ثم نفاوضهم على تسليم الوثيقة"

أراد نصر أن يعيد شريحة الاتصال إلى هاتفه الذي تم إغلاقه تحوطا من ملاحقتنا عبر إشـــارة الاتصـــال أو الأقمار الصـــناعية، كان ثلاثتهم قد تخلصـوا من شـرائح الاتصـال وأغلقوا هواتفهم، لأن أولئك الرجال كما يظن بن جرجور متحالفون مع الاســـتخبارات الغربية، ويمهدون للدول العظمى ســـبيلا للتدخل في المنطقة. لذا طلب منه أن يبقي هاتفه مغلقا للحفاظ على حياة الجميع. مؤكدا أن الحصـــول على مأوى حصـــين عند رجل منيع هو الأولوية، وأن علينا أن نبحث ونفكر في هذا المأوى والرجل وحسب.

سكت العم سريع مستسلما محبطا، فقلت:

"يجب أن يكون رجلا من المناطق الشرقية"

أفصـــح نصـــر عن جهله بأي مأوى، واعترف بن جرجور أنه يعرف أشخاص عاديين على طول الطريق إلى المناطق الشرقية، ولم ننظر إلى العم ســـريع الذي ظننا أنه لا يعرف أحدا، فهو فلاح بطبيعة الحال، لكن الرجل قال باستياء:

"لم تنظروا إليّ أو تسألوني عن معارفي؟"

خاطبه نصر بخجل:

"هذا لأننا لا نريد أن نورطك أكثر مما حدث لك"

"أصبحتم الآن حريصين على سلامتي! يا سبحان الله! هل بقي هناك شيء لم تورطوني فيه؟"

حلق الصمت علينا ونحن في انتظار ما يجود به الفلاح على مسامعنا المترقبة، كانت أعصابنا مشدودة، وهو على ما يبدو صار يتلذذ ببقائنا في حيرة وقلق كنوع من العقاب على توريطه ثم إهماله والاستخفاف به.

أخيرا تنحنح ثم قال بتأنٍ قاتل:

"هناك رجل كبير، نعم، نعم.. إنه مدين لي بمعروف قديم"

رد بن جرجور بلهفة:

"أخبرنا سريعا عن هذا الرجل والمعروف"

روى الرجل المسن قصة قديمة عمرها حوالي أربعون عاما، في مطلع ثمانينات القرن الماضي، كان يومها يحتاج إلى ذكري إبل قويين يحمل بواسطتهما الأحجار من المحجر إلى الأرض التي سيبني عليها منزله، ونصحه رجل أن يسير إلى الجوف حيث الإبل الأصيلة القوية، وفي الوقت ذاته لأن سعرها جيد، لذا أخذ سيارته في يوم قريب، وانطلق إلى صرواح، وهناك لم يعجبه أي جمل في السوق، فتوغل في الصحراء لاحقا آثار طريق السيارات، حتى وصل إلى مشارف قبيلة الأفدع، وفيما هو يبحث عن الرعاة والقطعان، عثر على سيارة مقلوبة على الطريق، مازالت إطاراتها تدور والدخان يتصاعد منها، كان سائقها محشورا في مقدمتها ولا يستطيع الخروج، وفي تلك الوهلة، كان البنزين يتسرب ويقترب من المحرك الساخن، ما يعني أن الفتى كان على وشك الموت. سمعه يصرخ بملء الصوت طالبا المساعدة، فاقتحم الزجاج مخاطرا بحياته، وجذب الفتى بصعوبة بالغة إلى الخارج. وسرعان ما شب الحريق ملتهما السيارة المقلوبة، فقال الفتى للرجل الذي أنقذه:

"ما حاجتك أيها الرجل الغريب"

فأجاب بصدق:

"جئت لأجل ذكرين قويين من الإبل"

"لقد حصلت عليهما دون ثمن"

رد سريع على الفتى قائلا:

"كلا، لن أقبل أن آخذهما دون ثمن"

"لكنك أنقذتني من الموت، وأنا مدين لك"

أجاب سريع بصوت حاد:

"وهل حياتك أيها الفتى تساوي ذكري إبل؟ أنا سعيد لأني وصلت إليك في الوقت المناسب، وهذا يكفي"

فكر الفتى قليلا ثم قال:

"لا أظنك سترفض الهدية، وسأظل مدينا لك أيضا، وبوسعك أن تزورني في أي وقت"

"لن أرفض هديتك"

وأخذه الفتى إلى القبيلة، فاستضافه الأهالي وأكرموه، وتناول الطعام في منزل زعيم القبيلة الذي كان ممتنا له لأنه أنقذ ابنه.

لما انتهى الفلاح المسن من حديثه قال بتلذذ:

"أتعرفون من يكون هذا الفتى؟"

شخصوا إليه بنفاد صبر، وقالوا بصوت واحد:

"هيا، أخبرنا من يكون"

"إنه الشيخ[1] محمد بن ناصر الأفدع"

---

[1] الشيخ: الزعيم القبلي

نظروا إلى بعضهم بعجب وأمل، وقال بن جرجور:

"هل تظن أنه مازال يذكر هذا الوعد منذ أربعين عاما؟"

رد الفلاح بيقين:

"لا يمكنك أن تنس شخصا أنقذك من الموت"

كانوا يراقبون الطريق خلفهم، منتظرين أن يداهمهم الجنود بين لحظة وأخرى، في جزء من الطريق رأوا سيارة تويوتا واقفة على قارعة الطريق، بخانتين من المقاعد، وهنا هتف الفلاح مشيرا إلى الخارج:

"هذه السيارة التي ضربني أصحابها وسرقوني ورموني خارجها"

خفف بن جرجور السرعة، فقال الفلاح بقلق:

"دعنا نمضي في حال سبيلنا يا بني، إنهم عشرة أشخاص من الإسلاميين ذوو لحى كثة يرتدون أثواب وسراويل بيضاء طويلة"

وصاح نصر بضيق:

"ماذا تفعل؟ نحن في وضع لا يسمح لنا بالمشاجرة وتصفية الحسابات"

قلت بفضول:

"ماذا تريدون أن تفعلوا؟"

رد بن جرجور بسخط:

"لا يجوز أن ندع الأوغاد ينجون بفعلتهم"

كان المكان واسعا في الخارج، والطبيعة ريفية، أشجار متنوعة، ومزارع قريبة، وصوت جريان مياه، وهذا يعني أنهم يتنزهون، بدت حرارة الشمس لاسعة وقت الظهيرة، بقينا نسير باحثين عن أولئك الأوغاد، يتقدمنا بن جرجور الذي لم يقبل أن يتراجع عن رأيه في ضرورة تأنيبهم واسترداد المال المسروق، أخيرا وجدناهم تحت شجرة يقومون بالشواء، بضع دجاجات على أسياخ النار، وأحدهم يعطي موعظة لرفاقه، يمسك

القرآن ويقرأ منه مفسرا المعاني، شعرت بالحرج، إذ كان جو الفضيلة محلقا في الجو، حتى بن جرجور وقف محتارا، لكن الفلاح المسن تقدم إلى حلقة الموعظة، وانفجر قائلا:

"ماذا تفعلون أيها الوعاظ؟ أليس من العار أن تسرقوا مالي وتلقون بي على الطريق؟"

لم ينظروا نحوه أو يتوقفوا عن الاصغاء للواعظ الذي رفع صوته أكثر، وهنا تقدم بن جرجور إلى الواعظ، ودفعه بقسوة حتى سمره عرض جذع الشجرة، وقال يخاطبه بسخط ضاغطا على رقبته:

"لا شك أن قريش فعلا صنعت لنا نبيا محتالا وصدرت لنا ديانة باطلة، لذا لا تتجاهلني أيها الأحمق، وأعد المال المسروق للرجل الكبير واعتذر له بدلا عن الوعظ الكاذب"

صاح الواعظ مرددا التكبير، فرددوا خلفه بصخب:

"اسحقوا الكفرة الآثمين، الله أكبر، الله أكبر.."

ثم قفزوا نحونا، وأصبح كل فرد منّا يقاتل فردين على الأقل منهم، وسرعان ما طرحوا الفلاح أرضا، وأوشكوا أن يطرحوا بن جرجور، وكذلك نصر الذي لا يفقه شيئا سوى البحث والتنقيب عن الأسرار والمتاعب، لكني وبدون فخر كنت قد أخذت دورات عديدة في نوادي الفنون القتالية، مثل التايكواندو والملاكمة، وكدت أن أكون محترفا، لكن جماعة من المؤمنين هجمت على النادي ودمرت محتوياته، وحكمت المحكمة بإغلاقه، كانت القضية غامضة، والبعض ظنوا أنهم فعلوا ذلك ليبنوا على أرضية النادي مسجدا، لذا عدت إثرها إلى دراستي الجامعية.

خطر ذلك في ذهني بسرعة خاطفة، فصرعت الرجلين اللذين جاءا لقتالي، ثم طرحت الاثنين اللذين كانا يضربان الرجل المسن، لم يكن الأمر يأخذ مني وقتا طويلا، فقط كنت أسدد إلى وجوههم ضربة واحدة من باطن قدمي أو من قبضتي، ثم استويت إلى الأشخاص الذين كانوا

يعاركون نصـر وبن جرجور، وتركتهم هم أيضـا في غيبوبة بما في ذلك الواعظ الخبيث، ثم نظرت إلى ذلك الرجل الملتحي الذي يقوم بالشـــواء، فأشار إليّ بالتحية مبتسما وقال:

"لا أحد يضرب الطباخ لأنه يقدم الوجبات الشهية"

كانت أنوف رفاقي محطمة والدم ينزف منها، وأكثرهم تضررا هو الرجل المســن الذي مد ذراعه طالبا المســاعدة، فأخذته إلى الظل. ونظرت إلى الطباخ ثانية، فأدرك المغزى وأجاب بلطف:

"لدينا صندوق للإسعافات الأولية، سوف أجلبه حالا"

اقترب من الواعظ المغمى عليه، واختطف من جيبه مفتاح السيارة، وألقى على رفـاقـه المغمى عليهم نظرة عـابرة، وغـاب قليلا، ثم عـاد يحمـل صندوق الإسعافات، فأخذت الصندوق منه وخاطبته مبتسما باحترام:

"أنت رجل مختلف عنهم، شكرا لك"

رد بشيء من خفة الروح:

"الطباخ شخص محترم بالتأكيد، لكن الجميع في البلد يحتقره، هل أجلب لكم شيئا تأكلونه؟"

همس بن جرجور الذي كنت أداوي أنفه:

"قل له نعم، نحن بحاجة للراحة والزاد، لأننا فقدنا كثيرا من الدم"

ووجه إليّ نصر نظرة خاصة فهمت مغزاها، فقلت:

"أخذت دورة اسعافات أولية في المخيم الصيفي قبل بضعة أعوام"

ووضعت على خادع الرجل المسن ضمادات لاحتواء الكدمات التي على رأسه وخادعه، ووضعت لصقات على عارضيه، فقال بتأثر:

"لم أضرب هكذا منذ زمن بعيد حتى عرفتكم، ولا يعلم إلا الله ما نحن مقبلون عليه من متاعب"

رد نصر متبسما بألم:

"على الأقل تكشفت لي موهبة صديقي سام، لحسن الحظ أنه صرعهم في دقيقة واحدة، ولولا ذلك أظنهم كانوا سيضعون أجسادنا في أسياخ الدجاج"

تقدم بن جرجور من الرجال المطروحين أرضا قائلا بقلق:

"ماذا دهاهم؟ أخشى أن يكونوا ميتين"

قلت بثقة عالية:

"تسمى الضربة القاضية، جميع الذين لعبت معهم كانوا يمكثون دقائق حتى يفيقوا، لقد كنت محترفا في أحد نوادي الفنون القتالية"

نظر بن جرجور إلى الطباخ وخاطبه قائلا بحيرة:

"هل أوقظهم أيها الطباخ أم أدعهم نائمين؟"

هز الطباخ رأسه نافيا، وقال بصوت ماكر:

"أوقظوهم إن كنتم تريدون جولة ثانية من العراك"

ضحكنا فأعقب:

"حان وقت الطعام، هذه المرة لأولى التي سنأكل فيها دون مواعظ مقيتة"

سألته بعجب:

"ما يجبرك على خدمة أشخاص لا تحبهم، وارتداء مثل هذه الملابس واللحية؟"

"وهل تظن أن كل شخص في هذا البلد يفعل ما يريد؟ أخبرني إن كنت مخطئا"

قلت بانقباض المعترف:

"لست مخطئا، فنحن لهذا السبب مضطرون للرحيل شرقا"

"أنتم مجبرون أيضـا أن تأخذوني معكم أو توجهوا لي الضـربة القاضـية حتى أدوخ إلى جانبهم، لأني لا أريد أن يفيقوا ويجدوني واقفا"

نظروا نحوي بذهول، ثم ضحكوا، وكأنهم يسألوني إن كان هذا ممكنا، فقلت بانفعال:

"من العيب أن نمد أيدينا إلى طعامك ثم نسدد أقدامنا إلى وجهك مهما كانت الأسباب"

رد بن جرجور:

"ستكون طباخنا"

وظهر الفرح على ملامح الرجل، وجلب لنا الطعام، رز ودجاج وفواكه متنوعة، واستقام للخدمة، فأكلنا وسأله بن جرجور:

"هل تعرف هذا الرجل المسن؟"

"نعم، لقد ركب معنا هذا الصباح، لكني لم أمسه بسوء"

"من أخذ ماله ورماه من السيارة؟"

"الرجل الواعظ ورفاقه فعلوا ذلك، أنا مجرد طباخ، لكن الخدمة معهم تقتضي أن تربي لحيتك وترتدي مثلهم، لا يحبون أن تكون مختلفا عنهم في تفكيرك أو شكلك"

اقترب بن جرجور من الرجل الممدد، وفتش في جيوبه حتى عثر على أوراق نقدية بالية من فئات متنوعة فأخذها ورماها للفلاح قائلا:

"أليس هذا مالك؟ أما الضرب فإن الجسم يشفى منه"

تبسم الرجل العجوز بإرهاق وأجاب بتسامح:

"كان الطعام تعويضا جيدا مقابل هذا المال"

رد نصر بجدية:

"أخذوا مالك بالقوة، ونحن استعدناه بالقوة، ونتناول الطعام من كف طباخنا، أليس كذلك؟"

"بالطبع، نحن رفقة، هؤلاء الرجال شياطين يلبسون ملابس وعاظ"

قلت للطباخ بصراحة:

"اسمع، لا نود أن نورطك معنا، نحن مطاردون من أشخاص خطرين لأسباب دينية بحتة، ومعرضون للموت في أية لحظة"

أجاب باطمئنان:

"لا يهم، أنا مجرد طباخ في فريقكم، سآخذ مقابل أجوري الطعام والماء

الذي في سيارتهم "

وأكلنا حتى الشبع، وبمجرد أن تحرك الواعظ ركله الطباخ في رأسه فعاد إلى النوم، ومضينا، وأخذ الطباخ الطعام والماء من سيارتهم، وانطلقنا في طريقنا، ومكثنا صامتين مرتبكين مما جرى، فقال الطباخ بشكل مفاجئ:

"يا رجال، ما بالكم ساكتين؟ اضحكوا وامرحوا مهما كان في انتظاركم من متاعب، ما جدوى أن تقلقوا أو تحبسوا أنفاسكم خائفين أن يسمعكم الآخرون، يكفي ما عانيته من صحبة أولئك المتزمتين، إذ كنت أكبت ضحكي مرغما حتى أنفجر في دورة المياه، ولم يكن هناك ما يدعو للضحك عموما"

قال الرجل المسن سريع مشيرا إلى نفسه والطباخ:

"اسمعوا، نحن رفقة، ومازال هذا الرجل يجهل ما يجري، لذا أرجو أن تخبروه كل شيء يجهله"

"إنها قصة طويلة، لكني سأرويها دون تفاصيل"

ونشر نصر المخطوط أمامه، وتحدث عن محتواه، وكيف عثر عليه في جبل السر، وتلوثت ملامح الطباخ، وطفا العرق على أنفه وجبينه، وقال نصر بانقباض:

"هذا هو السبب الذي يجعلنا صامتين بلا مرح، حين تجد نفسك مخدوعا متألما، ويريدون منك أن تسكت عن الألم والخداع اللذين يحفران في قلبك وروحك. لماذا يخافون من هذا المخطوط البالي إن لم يكن حقيقيا كما يزعمون؟"

قال الطباخ بخوف:

"هذا فظيع، أفكر في العودة للواعظين، الآن تبدو مواعظهم المزعجة كمعزوفات موسيقية، ليس عليكم أن تضحكوا بعد اليوم، فالعيش في ظل الخداع هو الموت"

"أتريد أن نعيدك حقا إليهم؟"

رد على بن جرجور قائلا:

"بل أريد البقاء معكم برضا تام، اسمي هشام لمن يهمه الأمر"

واستطاع الطباخ أن يلطف الجو بنكاته وطرفه عن الوعاظ، والمواقف التي تعرضوا لها بسبب حمقهم، فقد كانوا يدعون قدرتهم على طرد الشياطين من أجساد الممسوسين، ويضربون أجساد المرضى بالصنادل أو بالأحذية الجلدية، ويدعون أنهم يضربون الشيطان ويجبرونه على الخروج من جسد المريض، ولكن كثيرا ما يجدون مريضا يوسع الواعظ ضربا ورفسا، وهو يصرخ طالبا النجدة.

في المساء عند التاسعة، برز القمر مضيئا الطريق، وظهرت معالم الجبال والهضاب والوديان التي يمرون عليها، فقررنا التنحي جانبا، لنأكل شيئا، فأخذنا معنا بعض الجبن والبيض والخبز وأواني الطبخ. وطلب الطباخ أن نجلب شيئا من الحطب، فجلبنا قطع خشب مهملة، وجدناها قرب بناء قديم مهدم، فيما صنع هو موقدا من الأحجار، ثم أشعل النار. وصنع الطعام، فأكلنا وشربنا، ونمنا بشكل سيء في مواضعنا. وفي الصباح التالي، عدنا إلى الطريق على أمل أن نجد مأوى، كنت أفضل المبيت في العراء البارد على قضاء ليلة في بيت دافئ يسلمنا

أصحابه إلى السلطات، كان يعوزنا خمس قطع من الفُرُش، وخمس وسائد ومثلها أغطية، ولكن لا يوجد محل في الأرياف لبيع الأثاث. لذا اقترح بن جرجور المرور على صـــديق له يعمل معلما في مدرســـة النور القريبة، منزلـه يقع على قـارعـة الطريق، تعرف عليـه قبـل أربعـة أعوام، حين تعطلت ســيارته قريبا من منزل هذا المعلم، فهب الأخير لمســاعدته، ولا شك أنه لن يتردد عن خدمتهم هذه الليلة أيضا، وساروا حتى ظهر المنزل على ضوء القمر، وأشار بن جرجور إليه، وفجأة ظهر أمام المنزل خيال شـخص يمد ذراعه في الهواء طالبا أن يأخذوه معهم، كان يرتدي بنطلون وسـترة، ويمسـك حقيبة في يده، ولم تظهر ملامحه بوضـوح على ضـوء القمر الخافت، فقال السائق يخاطبه:

"أليس هذا منزل الأستاذ عثمان؟"

رد الرجل باحترام:

"نعم، أي خدمة؟"

"فقط نريد أن نقابله، ونقيم عنده إلى الصباح"

"أهلا وسهلا.. اتبعوني"

"نحن نعرف الطريق يا أخي، شكرا لك، وإن نجدك في الصباح هنا سنأخذك معنا"

"لكني المعلم عثمان"

صافحه بن جرجور قائلا باعتذار:

"أوه، اعذرني يا أخي، لم أرك بشكل جيد، أنا محمد بن جرجور، لقد تعطلت سيارتي بالجوار قبل سنوات، وقمت بمساعدتي"

"نعم، لم انس شيئا من تفاصيل ذلك اللقاء"

وعرّفه بن جرجور علينا فصافحناه باحترام، ودخلنا إلى منزل صغير تفوح منه رائحة سيئة، فأشعل المعلم عثمان مصباح البيرومكس وقال بخجل:

"البيت سيء الحال، لقد هجرتني امرأتي وأخذت أطفالي معها، لا يهم، تفضلوا بالجلوس، اعتبروا أنفسكم في منزلكم"

كانت الفوضى تعم المجلس، وكل شيء في غير مكانه الصحيح، فقلت:

"أمر مؤسف، البيت حقا لا يستقيم دون امرأة"

قال عثمان بشيء من الاضطراب:

"نُكِبت قبل أيام عندما جلب لي أحد التلاميذ آيات من القرآن، وطلب مني أن أضبطها بالنحو"

سألت بفضول:

"وهل ضبطتها بشكل صحيح؟"

"بالطبع، فأنا معلم اللغة العربية، ومشهود لي بالبراعة"

ضحك نصر وقال بعجب:

"ما المشكلة إذا؟"

تنهد الأستاذ عثمان ورد بارتباك:

"لا أعرف كيف أقول.. أتمنى ألا تحكموا عليّ كالآخرين"

"تكلم، لن نحكم عليك مهما كان رأيك، فأنا أيضا جيد بالنحو"

"قدم لي هذا الطالب الماكر آية 124:2 من سورة البقرة (ولا ينال عهدي الظالمين) فقلت له الظالمون وليس الظالمين"

قلت بيقين:

"أنت على صواب، الفاعل يكون مرفوعا، ماذا حدث بعد؟"

"طلبوا مني أن أقول إن النحو في الآية صحيح، فرفضت أن أكذب"

سأل الفلاح الذي بقي ساكتا مدة طويلة:

"من الذين طلبوا منك أن تكذب؟"

"المدير والمعلمون والأهالي.. الجميع حتى زوجتي، وقد طردوني من المدرسة وأوقفوا راتبي، ومن المحتمل أن أقدم للمحاكمة أو أسجن"

تكلم بن جرجور قائلا:

"وأين كنت مزمعا على الذهاب في الليل؟"

"كنت أود أن أذهب للمراجعة والشكوى في المديرية، فمدير المركز التعليمي صديق قديم لي، ولا أظنه يخذلني"

قلت بشفقة:

"اسمع، نحن كذلك مطاردون مرغمون على الرحيل، كما نملك أصدقاء كثر، ولكن ليس لدينا الرغبة بالعودة لمراجعة أولئك الأوغاد الذين كانوا في يوم ما من أصدقائنا، وأما اليوم فسوف ينكرون أنهم عرفونا ذات يوم"

"أتظن أن صديقي سوف ينكر أنه يعرفني، أهذا ما تقصده؟"

"بل لا يستبعد أن يسلمك صديقك للشرطة، لأن الخطأ النحوي الذي اكتشفته يعني أن القرآن كلام محمد وليس كلام الله!"

"يا لي من أحمق! أخبروني أين ترحلون"

أجاب بن جرجور:

"بصراحة سنذهب إلى قبيلة بعيدة لنستنجد بزعيمها، فقد وقعنا في ورطة أكبر من ورطتك"

سأله المعلم عثمان قائلا بعشم:

"هل تسمحون لي أن أرافقكم؟"

" ألا تحب أن تسمع ما تورطنا به أولا؟"

"لا أظن أن هناك ما هو أسوأ من ورطتي، لكن تفضلوا، أخبروني"

كان صديقي نصر هو الناطق الرسمي لهذه الورطة، فهو صاحب الامتياز في اكتشاف المخطوط، وأكثر المطلوبين للسلطات، لأنه باحث متخصص بالأسرار التاريخية، وقد رسم الخطط وزار قرية الدير، وقاد سيارته إلى الجبل، أما نحن فبوسعنا أن نقول إننا غير مهتمين باكتشاف السر، وإن وجودنا كان عفو الصدفة. لذا تكلم نصر عن المخطوط ومحتواه الرهيب، ورغبة الزيود باستعادته، وكشف له عن سبب موت سعد بن عبادة زعيم الخزرج، ونصارى نجران، ومقتل الرهبان الخمسة، ومواليد قرية الدير، وغيرها من الكوارث والأوبئة التي وقعت للناس. فتنهد المعلم عثمان وقال بصوت مغموم:

"لقد هانت عليَّ مصيبتي، سوف أقرر في الصباح ما يتحتم أن أفعل"

وفي الصباح، زودهم بالمؤونة والفرش والأغطية، وانضم إليهم، إذ لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه، والخيار المتبقي له هو السجن الذي لا يحب أن يذهب إليه.. مضوا شاقين طريقهم شرقا، كانت أشكال الناس آخذة بالتغير على نحو غريب، بحيث غدوا غلاظا وخشنين، حتى الأرض صارت مختلفة مكفهرة، والبيئة بدت أكثر عدائية وتطرفا، وفي قرية كبيرة، اقتنوا بعض البنزين، والمؤن بسعر كبير، وذهبوا بعيدا خوفا من المداهمة، لقد غدوا أقل حذرا، فالزيود لم يتبعوهم إلى تلك النواحي رغم أنها تتبع سلطتهم، فأصابهم العجب، وفكروا بالعودة من حيث أتوا، لكن نصر ذكرهم بالخداع الذي يتميزون به، إذ يريدون منهم أن يفقدوا حذرهم، أو يظنوا أن كل شيء انتهى، ومن ثم يباغتونهم في المكان والزمان اللذين لا يتوقعهما أحد. تكلموا عن هذا، واتفقوا أن يبقوا محتاطين ويواصلوا سيرهم، وفي قرية فوجئوا حين رأوا رجلا غليظا يجر فتاة من شعرها، وينزل عليها بسوط مضفور في يده، بدت رغم

حالها المشين جميلة وحزينة بشكل لا يصدق، وهنا استمر بن جرجور بالسير دون اكتراث، لكني قلت له بانفعال:

"أرجوك، توقف لنرى ما دها هذا الرجل الغاشم!"

زاد الرجل من سرعة السيارة، فأخرجني هذا عن طوري، كان بكاؤها مثل سمفونية حزينة ضاعفت غضبي، فلويت ساعدي على عنق بن جرجور وضغطت بقوة، فأوقف السيارة جانبا، وصاح المعلم عثمان بفجيعة:

"هذا مداعس، دعونا نبتعد، لا أحد يجرؤ على اعتراض طريقه"

وزجرني نصر بغضب:

"ماذا تفعل يا سام؟ توقف"

كانت عيون بن جرجور جاحظة، وراح يسعل ويشهق ملتقطا أنفاسه التي كادت أن تنقطع، قفزت من السيارة إلى الخارج قائلا:

"انتظروني، سأعود على الفور"

كان قلبي يخفق بسبب تلك الفتاة الغريبة، أي رجل قاس هذا الذي يقسو على كائن لطيف مثل تلك الفتاة! ركضت خلف الرجل والفتاة، رأيتهما عند منعطف الزقاق، كان هناك أشخاص يسيرون متحاشين النظر إلى تلك الناحية، ولا يقتربون من ذلك الرجل. البعض وقفوا منتظرين أن يدخل الرجل إلى منزله حتى يمروا. دفعتهم بكتفي جانبا، واقتحمت الممر، فقال أحدهم محذرا:

"هيه، أيها الغريب، تمهل، ستموت بضربة واحدة"

قلت باحتقار:

"أنتم رجال من ورق"

"الورق لا علاقة له بالأمر، إنها ابنته على كل حال، ناهيك أنه مصارع قوي رفع ثورا في الهواء، هيا، أرنا رجولتك يا هذا"

خطوت إلى آخر الممر، وسمعت صوت البكاء والضرب أكثر من ذي قبل، متصاعدا من خلف باب خشبي غير مغلق، دخلت منكمشا بفعل الأدب وليس الخوف، كانت الفتاة تتوسط الفناء، وأبوها يوبخها وينهال عليها ضربا، كان رجلا ضخما ذو عضلات بارزة، يرتدي مئزرا فضفاضا ملونا يدل على النعمة، ويبدو بشعر بني مجعد تكسوه خصلات بيضاء قليلة، فرفعت صوتي قائلا:

"صباح الخير"

التفت الرجل بشكل حاد غاضب، ونظر إليّ مستغربا، فظهر وجهه المتغطرس كاشفا عن حمق كبير وكبرياء لا يوصف، وأشار لي بيده أن انصرف باستخفاف ووعيد، وعاد يضرب ابنته، فاقتربت منه، وصحت بحدة يشوبها الحذر:

"هيه، أنا أكلمك، لا تتجاهلني يا أخي"

التفت ثانية وصاح عليّ بقسوة:

"كيف تجرؤ على مقاطعتي يا هذا؟ اذهب بعيدا"

"توقف عن ضرب هذه الفتاة"

ضحك بسخط وتقدم نحوي صارخا:

"لا شأن لك بهذا، ابتعد قبل أن أهشم عظامك"

وضربني بالسوط الذي في يده على كتفي، فأحسست أن الشرر طار من عينيّ بسبب الألم، ورفع سوطه ثانية، فسددت له لكمة أفقدته توازنه، لكنه لم يسقط، وهذا بحد ذاته أمرٌ غير مسبوق، وهجم عليّ ثانية ودفعني بقوة للخلف، فسقطت على الفناء متدحرجا ككرة مطاطية، ثم نهضت متألما غاضبا، وسددت له ركلة خلفية في وجهه، ثم لكمات متتابعة في خاصرتيه وذقنه، فهوى على الأرض دائخا، كانت الفتاة تنظر إلينا وهي شبه نائمة، فصحت عليها بغضب:

"تعالي معي، اهربي"

أقبلت نحوي، فخرجنا من الفناء إلى الممر، وحملق إلينا أولئك الأشخاص بذهول، وقدت الفتاة بعيدا نحو السيارة، فصاحت بحنق:

"دعني أنادي فارس، لن أهرب وحيدة"

قلت بعجب:

"فارس؟ هيا، إن رفاقي ينتظرون وأخشى أن يتركوني ويرحلون"

تبعتها إلى قرب منزل صغير فصاحت بملء الصوت:

"فارس، اخرج نحن في انتظارك"

خرج الفتى متلفتا بحذر وصاح:

"أوه، هند.. ماذا تفعلين هنا؟ سيأتي والدك..."

"هيا نهرب.. هذا الشاب سيأخذنا بعيدا"

"لن أهرب.. سيقتلنا والدك، هيا.. عودي إلى المنزل"

صاحت بحنق:

"ابحث لك عن فتاة تشبهك أيها الجبان، فأنا لن أعود إليك أو إلى أبي"

قلت باغتمام:

"هيا نذهب، هل لديك أحد آخذك إليه؟"

ردت بحنق:

"دعنا نخرج من القرية أولا، سيطاردنا أبي والأهالي بمجرد أن يصحو من ركلاتك، أنت الشخص الوحيد الذي صرعه، ولا شك أنه مازال دائخا الآن، ولا يود أن يظهر هكذا ضعيفا أمام الأهالي"

سرنا مسرعين إلى حيث كانت السيارة واقفة، وهناك لم نجد شيئا، فتحركت حولي متلفتا مضطربا..

"ذهب الحمقى، لا أصدق ذلك"

سقطت الفتاة على الأرض منهكة مثل حشرة مسحوقة قائلة بأسى:

"سيقتلني أبي على كل حال.. أنا سيئة الحظ دائما"

"ليس هذه المرة، لن أدع أحدا يؤذيك"

أوشكت أن أحملها حين وصل شاب يقود دراجة نارية وقال:

"اركبا، سأفعل هذا لأنك أشفيت غليلي، لقد كنت عند الممر حين اقتحمت فناء ذلك الغاشم"

كانت مترددة فوضعتها أمامي خلف الشاب، وقلت له:

" إنه قوي كالبغل، لكني أشبعته ضربا. هيا، انطلق"

ضحك وقال:

"أنت شاب نحيل، لا أحد يتوقع منك أن تكون قويا"

أجبت مازحا:

"الحب قوة لا يستهان بها، بحيث يجعلك صنديدا، وبوسعه أن يحييك، أو يقتلك أحيانا"

لكزتني الفتاة بمرفقها فتابعت:

"سأعطيك أجرا جيدا إن عثرت على رفاقي"

"لقد دفعت لي فعلا"

قالها الشـــاب، وانطلق مســـرعا حتى خشـــينا أن ننقلب ونتدحرج، وفي طريقنا رأينا سيارة شرطة تسير أمامنا، فأخذت طاقية الشاب ووضعتها على رأسي، وقلت:

"هل هناك قسم شرطة قريب؟"

أجاب بعجب:

"كلا، أول مرة أرى شرطة النجدة هنا"

وتجاوزنا سيارة الشرطة، ورأيت رفاقي يسيرون بعيدا على الطريق، طلبت من الشاب أن يقودنا إلى مكان آمن بعيدا عن سيارة الشرطة فقال:

"سأخفيكم عن الأنظار بالتأكيد، لدي خطة"

واقتربنا من التويوتا، وأخبرناهم عن سيارة الشرطة، وأشرنا لهم أن يتبعونا، وعند خط فرعي صغير انعطفنا، وتوغلنا في طريق ترابي قادنا إلى بناء حكومي مهجور، فدخلنا الفناء المهمل الذي تغطيه الشجيرات، ويلوح على جنباته هيكلي سيارتين متهالكتين، فتبعونا ووقفوا جانبا. وترجل بن جرجور غاضبا قائلا بحنق:

"هربنا من الشرطة بعد مغادرتك، وها أنت ذا تعود لتجعلنا محاصرين داخل مبنى حكومي على قمته يرفرف علم ممزق"

نظرت إلى الشاب المحلي الذي صافحهم وعرَّفنا على اسمه ونسبه المتواضع ومهنته المحتقرة دون خجل، ثم قال:

"لن يفطنوا إلينا، لا أحد يأتي إلى هذا المكان المهجور، هذا كان مبنى الارشاد الزراعي الذي بني بعهد الرئيس الحمدي"

ولاحظوا وجود الفتاة، فاقتربوا بافتتان وشفقة، ورمقها بن جرجور بغيظ، أصبح مؤخرا أكثر ضيقا وعدائية، وما لبث أن قال رغم علمه:

"لسنا ناقصي متاعب، هذه الفتاة لا يجب أن تكون معنا، سيعدون هذا اختطافا، ولسوف يجتمع رجال القبائل لاستعادتها، ومحو العار الذي لحق بهم"

رد عليه الشاب المحلي غالب الحلّاق قائلا:

"أؤكد لك أن الجميع يكره والدها، وسيفرحون حين يسمعون أن هند هربت منه، لا أحد بوسعه أن يتخيل كم كانت هذه المسكينة تعاني"

كانت هند تتوجع وتحاول أن تبدو متماسكة، فأخذتها إلى مقعد السيارة، وفتحت حقيبة الإسعافات الأولية، وطلبت منها أن تخلع رداءها لأدهن ظهرها، فرفضت قائلة:

"أستطيع أن أتحمل الألم حتى حلول المساء، انهم يقفون متطلعين إلينا كالنسور التي تنتظر حصتها من الجثة"

نظرت إليهم، كانوا فعلا يتطلعون بفضول، شعرت بالغيرة والحنق معا، هذا هو سبب هروبنا وتمردنا على الدين، فالناس ينظرون إلى المرأة من زاوية الفتنة والإغواء، ولا يرون الزاوية الأخرى منها، أنا كذلك جذبني جمالها اللافت، لكني بالتأكيد لا أدري إن كنت سأتجشم العناء ذاته في حال كانت قبيحة الشكل، أظنني سأفعل، لكن شيئا ما أكبر من ذلك جعلني أصر على انقاذها، واختطافها من والدها القاسي.

نظرت إليهم قائلا بحقد:

"هند، هي الفرد السادس من فريقنا، لذا لا تنظروا إليها هكذا وكأنكم لم تروا امرأة من قبل، إنها جريحة وجسدها صار ممزقا بضربات السوط"

قال بن جرجور بتهكم:

"أوه أيها الطبيب. كأنك تطلب منا أن نبتعد حتى تداويها، سنذهب لنجلس تحت ظل الجدار"

وأجاب المعلم عثمان باحترام وأدب:

"أحسنت، يجب أن تساعدها، نحن متوترون وخائفون قليلا، وصديقي بن جرجور متوتر أيضا بسبب سيارة الشرطة، لقد كادوا أن يقبضوا علينا ونحن في انتظارك"

واستأذن غالب بالانصراف واعدا أن يعود ثانية بالأخبار، وبعد أن انتهيت من مسح ظهرها وأطرافها طلبت منها أن تعتني بصدرها ووركيها، حيث كانت مثخنة بالجروح في مواضع كثيرة من جسدها. وما إن رآني بن جرجور عائدا حتى قال بضيق:

"هل تثق بذلك الشاب المحلي؟"

قلت بصدق:

"نعم، يجب أن أثق به بعد أن قدم لنا المساعدة"

"وهل ننتظر هنا في هذا المكان المهجور حتى يعود؟"

"بالطبع، لأن المغادرة الآن فكرة غبية"

في المساء، صعدنا إلى سطح البناء، وألقينا الفرش هناك، وما لبث رفاقي أن ناموا كالموتى، لكني تنازلت للفتاة عن فراشي، واستلقيت على دثار خفيف، وبقيت متيقظا بمكان قريب منها، وسمعتها تتألم وتئن بفعل الوجع، فزودتها بمسكن الألم. ولا أعرف متى نمت.

في الصباح، أقبل غالب بملابس لهند وملابس لنا، كما جلب معه دزينة من الموسى والمقصات والمناشف، وكثير من مساحيق التجميل، ومستلزمات عديدة يحتاجها في مهنته، وقال برهبة:

"هيه، ماذا اقترفتم يا قوم، صوركم في كل مكان، لذا أرى أن تتنكروا"

شهق الفلاح الذي ظل شارد الذهن وصامتا، وقال بيأس:

"سيقبضون علينا، أين بوسعنا أن نهرب؟"

قال غالب بيقين:

"أنا حلاق بارع، بوسعي أن أُغيِّر أشكالكم مئة وثمانين درجة، ولن يعثر عليكم الشيطان"

تبسم نصر قائلا:

"افعلها.. وستنال مكافأة"

"هذا مشجع، خذوا أدواركم"

وأخرج علبا كثيرة، وصبغات، وبدأ يجتث خصلاتنا بمكينة صغيرة تعمل بالبطاريات الجافة، ثم صبغ رؤوسنا، وأزال لحانا، ووضع للبعض لحى

مستعارة ثبتها بطريقة ما على الوجوه، كما وضع للأشخاص الصلع شعرا مستعارا، وحول الوجوه السُمْر إلى بيضاء، والبيضاء إلى سوداء، وجعل الذين يرتدون بناطيل يلبسون مآزر، وأصحاب المآزر جعلهم يرتدون بناطيل، كما أزال شوارب وأوجد أخرى، كانت هند تتفرج على ما يفعل، حتى انفجرت ضاحكة رغم آلامها وهمومها، فاستدعاها هي الأخرى، وحولها إلى فتاة قبيحة. كانت مهمته ببساطة هي أن يبرز النقيض في كل شخص، ولما أظهر لهم المرآة صرخوا بإعجاب أو بفجيعة، الفلاح المسن أعجبه أن يجد نفسه ذا وجه جديد رغم ما أصابه من استياء على فقدان لحيته وشاربيه، كذلك بن جرجور كان ذو وجه حجري أسمر وجد نفسه أحسن حالا من الجميع، أما نصر وأنا والفتاة فقد حولنا إلى مسوخ، وبالكاد أقنعنا هند أن تقبل شكلها الجديد، لأن الحال يستدعي هذه الإجراءات الغريبة التي قد تنطلي على أفراد شرطة النجدة الذين يبحثون عنّا، كما أن الجنود في الحاجز الأمني الذي يفصل المناطق الشمالية عن الشرقية سوف يتفحصون وجوهنا.

وأثار بن جرجور قلقنا حين ادعى أن جنود الحواجز الأمنية يطلبون البطائق والهويات الشخصية للمسافرين، وهذا يعني أن كل هذه الوجوه التنكرية لا جدوى منها، وهنا رفض الحلاق أن يستسلم، وقال بشيء من الجدية:

"سوف أجلب لكم بطائق أقاربي، ستكونون جميعا من فئة الحلاقين ليوم واحد فقط، لا شك أنكم لا تحبون أن تنتموا إلى هذه الفئة المبتذلة، لكن هذا هو الحال.. يوم واحد فقط"

ونهض إلينا، وجعل يتفحص ملامحنا مدققا النظر، ويقول بشيء من التفكير:

"أنت يا نصر تشبه رزق الجزار ابن خالتي، والعم سريع يشبه جدي ناصر، وأنت يا بن جرجور مثل عيّاش زوج أمي الذي لا أطيقه، وهند

تشبه حنبصة بنت خنفر، وأنت يا هشام الطباخ تشبه غيث الحجّام، وأنت يا سام تشبه زيد العنزة، والمعلم عثمان يشبه الخال مرزوق..."

وركب دراجته وهو يضحك، قائلا:

"سأجلب وثائق قومي، لن يرفضوا، إنهم يكرهون مداعس، ويتمنون إذلاله، انتظروني، لن أتأخر"

نظرت إلى هند وقلت باستياء:

"هل هناك شخص في القرية يدعى زيد العنزة؟"

ضحكت، وقالت:

"نعم، إنه شاب يضرب به المثل في الحمق، وهو يتأتئ بكلامه كالعنزة"

"هل يشبهني هذا الأحمق؟"

تبسمت وأجابت:

"قليلا، لست وحدك مشوها، لقد شوهني أيضا، أليس كذلك؟"

قلت مبتسما:

"قليلا، حتى إن شكلك غدا مضحكا، سأناديك حنبصة حتى اعتاد على هذا الاسم"

"لا يهم، يجب على كل شخص أن ينسى اسمه ليوم واحد فقط، دعنا نجاري هذا المحتال، لم يعد هناك سوى أربع ساعات حتى نصل إلى الحاجز الأمني، أبي يملك نفوذا كبيرا، وسيحاول إيقاف هروبي بأي ثمن"

بعد نصف ساعة عاد غالب حاملا معظم الوثائق وقال:

"انسوا أسماءكم القديمة، واحفظوا بيانات هوياتكم، فقد يسألونك مثلا عن تاريخ ميلادك، فجنود الحواجز كالشياطين، اكتسبوا مهارات التدقيق

ومعرفة الأشـــخاص الذين يكذبون أو يخفون شـــيئا، وســـوف نتفق على رواية موحدة يرددها الجميع، يجب أن نكون أكثر مكرا منهم"

وأخذ نفسا عميقا وتابع مضيفا:

"إن لم يكن لديكم مانعا سألازمكم في هذا السفر حتى أحرص على اجتياز العوائق التي تقابلكم، كما أني لم أعد أســـتطع تحمل المزيد من احتقار الناس لعائلتي، وأظن مداعس سـيدرك آجلا أو عاجلا أني سـاعدت ابنته على الهروب، ولن يتردد في كسر عنقي"

رد نصر بفرح:

"هذا سيكون جيدا، فقط يجب أن تدرك وحنبصـة سبب سفرنا وهروبنا، فإن كنتما مستعدان للمخاطرة معنا، فهذا من دواعي سرورنا"

صاحت هند بحدة:

"تكلم يا رزق الجزار، ماذا هناك؟"

ضـحكوا من صـوتها الحاد، فهي لا تحب اسـمها الجديد بالتأكيد، وجميعنا لم يحب أو لم يفهم سبب حصوله على اسم غريب، وما لبث أن ألقى لهما نصـــر خبرا عن المخطوط الرهيب، لكن هند وغالب كانا مشـــغولين بالتفكير في أمور أخرى، لذا لم يستوعبا سوى القليل مما قيل، وقالا دون تردد:

"ماذا تنتظرون؟ هيا بنا ننطلق"

وركب غالب معهم، وجعل يلقي لهم شـــيئا من الحيل التي يقوم جنود الحواجز بتقديمها للمســافرين، والأهم من كل ذلك هو أن يتســلحوا بالثقة الشـديدة والجرأة في الرد على الجنود، لأن أي تلعثم أو اضـطراب يعني الارتياب والمزيد من الأسئلة والتدقيق.

وعند الحاجز الأمني، وجدوا أنفســهم أمام طابور طويل من الســيارات المنتظرة، وكـأنهم في معبر ســـيقودهم إلى دولـة أخرى، كـان البعض

يشغلون أنفسهم بالتحديق بالآخرين أو التدخين أو التجول بين السيارات. كانت هند أو (حنبصة) ممن يحدقون في وجوه الناس، كانت تجلس على الجزء المكشوف من السيارة، كنت أجلس إلى جوارها على فراش مما جلبناه من منزل المعلم عثمان، وحولنا خليط من المؤن والحاجيات التي يحملها المسافرون.

كان ركوب النساء على مؤخرة سيارة مكشوفة من الأمور السيئة والمعيبة في أغلب المناطق الوسطى والشمالية، لكن هذا لا ينطبق على أصحاب الحرف المحتقرة كالحلاقين، إذ أن الغريب هو أن تجد امرأة منهم تجلس على مقعد داخل السيارة، وبدت هند غير مرتاحة لركوبها في المؤخرة، لكني أجبرتها أن تسند ظهرها وتتأقلم مع وضعها الجديد، بل يتحتم أن تحسب نفسها حنبصة الفتاة المحتقرة التي تتصف بالقحة وقلة الحياء، وقد نصحها غالب أن تدرب لسانها على الشتائم والثرثرة، فربما قابلنا أحد الأهالي أو أحد أقارب هند ممن يبحثون عنها، ولا ريب أن الحاجز هو المكان الأنسب للبحث عن فتاة هاربة. كان الجو جميلا مناسبا للأحاديث الشيقة والرومانسية، كانت مناظر الجبال والمناطق السكنية والزراعية الغريبة تثير الاهتمام، الهواء المنعش يهب قويا بسبب سرعة السيارة، وكان لا يفصل بيني وبين هند سوى حقيبة جلدية تخص غالب، وكم تمنيت أن نكون على سجيتنا، لكن هذا بدا مستحيلا بحيث تكون مجبرا على تقمص أدوار زائفة لا تحب أن تمارسها، وهذا ما لاحظته حين بدأت هند تتقمص شخص حنبصة الفتاة المُزيّنة التي تشتم وتثرثر، والشيء البغيض هو أن الناس لا يريدون أن تكون على حقيقتك بل يحبذون أن يسمعون منك ما يريدون وليس ما تريد أو ما تشعر به.

وهكذا بدأت هند تتكلم عن أشياء غريبة لا أفهمها، وسمعتها تشتم بشكل مضحك، وسألتها عن ذلك الشاب فارس، فأفصحت بسخط أن من المفترض أن يكون ذلك الشاب حبيبها، ويومئذٍ سمع والدها الخبر فأخذها إلى قرب منزل فارس وطلب منه أن يخرج، وحين خرج سأله إن كان حبيب ابنته، فأنكر الشاب أي صلة له بها، وظنت أنه فعل ذلك خوفا

عليها من العقاب، وأخذ أبوها يعايرها ويضـربها قائلا انظري كيف أنكر علاقته بك. لكنها سـامحته وظنت أنه أنكر علاقته بها حتى لا يتسـبب لها بالأذى، وقد صـــعب عليها أن تهرب دون أن تدعوه إلى مرافقتها، وحين رفض أن يرافقها عرفت أنه جبان ولا يستحق حبها...

وقطعت كلامها حين رأت والدها يســـير بعيدا متهاديا يحدق في وجوه الغرباء، ويسير خلفه بعض أتباعه البغيضين، وأوشكت أن تفر، فأوحيت لها أنه شـــخص أخرق لا يجب الخوف منه، وأن بوســـعي أن أصـــرعه ورفاقه بالضـربة القاضـية بواسـطة لكمات وركلات حامية تحطم فكوكهم وأنوفهم، ولكنّا متنكرون ونســـتطيع أن نخدع الجميع، ونمر في طريقنا بسـلام. حين سـمعت مني هذا هدأت وخف ارتجافها، وصـممت أن تنظر في عينيه، وتسـمعه كلاما لاذعا بصـوت حنبصـة، ولما اقترب تصـفح وجوه الراكبين في السيارة وصاح متعجبا بما يشبه الاحتجاج:

"هيه، غالب، ناصـــر، عيّاش، غيث، مرزوق أين تذهبون بهذه الســـيارة التي لم أرها من قبل؟"

رد غالب بجذل:

"كبيرنا مداعس، هل ترافقنا إلى سد مأرب؟ أرجوك، رافقنا لتكن ملهمنا ودليلنا، سنكون فخورين جدا وسعداء بك"

رد مداعس دون اهتمام:

"لا أستطيع أن أرافق مجموعة من الحلاقين والمزاينة، كما ترى، أنا هنا في عمل هام"

في تلك الأثناء نهضت هند صارخة بصوت حنبصة:

"يا كبير.. هل تبحث عن ابنتك هند هنا؟"

"اللعنة! حنبصة. اسكتي، سأقص لسانك الطويل هذا، ابنتي هند ستعود"

"لكنك تضربها بالسوط أيها المجرم، لذا لن تعود إليك أبدا"

"سأنكحك أيتها الكلبة"

قفزت إلى الأرض من الجهة الأخرى وهربت، وجعلت تدور حول السيارة وهو خلفها يدور كالثور، وبقي مرافقوه في حالة حياد وكأن المطاردة راقت لهم، أو أن الفتاة لا تستحق كل ذلك العناء، فيما ضحك المسافرون المنتظرون في الجوار، وعلقوا على الأمر، فاضطر إلى التراجع والانسحاب متوعدا. كان غالب الحلاق متجمدا من الخوف، وكنت متحفزا للانقضاض عليه، لكن لحسن الحظ أن الأمور انتهت بسلام.

وعاتبت هند على تهورها، فقالت إنها فقدت السيطرة على نفسها، وأحست بنشوة عارمة بأن تتمادى لاسيما أن ثمة رجل شجاع يجلس إلى جوارها.

بقينا ننتظر حتى الرابعة عصرا، ثم وقفنا أمام الضابط الخبير بالكذب والزيف، فجعل يسألنا ويتفحص بطائق هوياتنا مدققا النظر في صورنا واسمائنا، وسألنا عن سبب دخولنا مأرب، فأجاب غالب بهدوء:

"نريد أن نزور السد المشهور"

كان الجنود يفحصون وجوه الآخرين، والمحتويات التي تحملها السيارة، حين ارتفع صوت جندي قائلا:

"امرأة تجلس في مؤخرة السيارة! وهذا ينافي تعاليم ديننا وتقاليدنا"

انفجر الفلاح قائلا في غضب مفاجئ:

"هل أنتم حرّاس على الدين والأخلاق أيضا؟ هل كان قُثم وأصحابه يمنعون النساء من ركوب السيارات"

"احجزوا هذه السيارة وركابها، إنهم يفعلون ويقولون أشياء غريبة"

صاح الضابط بانفعال، وأسرع الجنود، وطلبوا من بن جرجور أن يركن السيارة أمام غرفة التحقيق، لكن غالب قفز إلى أمام الضابط قائلا بتواضع مفرط:

"أيها المحترم، نحن حلاقون ومزاينة ومهنتنا القذرة تجعلنا سليطي اللسان أحيانا، لذا لا تعط أفعالنا وأقوالنا ذلك القدر من الأهمية"

أشار الضابط مخاطبا الجنود باستخفاف:

"دعوهم يمروا، إنهم لا يستحقون الانتباه"

وعدنا إلى الطريق. كان الخوف قد جمدنا، وادعى غالب إن الصـــور في هوياتنا لا تتطابق تماما مع وجوهنا بأي حال، لكن الله أعمى الجنود، ولو زرع هذه الفكرة في رؤوســـنا قبل أن نجتاز الحاجز كنا لا محالة محجوزين للتحقيق، لأن الثقة هي العنصر الهام لأي عمل جاد أو زائف.

وصـــلنا مدينة مأرب في التاســـعة، وأخذنا بن جرجور إلى فندق الملكة، فحجزنا جناحا صغيرا يضم أربع غرف، وطلبنا العشاء للتو، إذ كنا في غاية الإرهاق والجوع. وما إن انتهينا من طعامنا حتى غرقنا في النوم.

طريق المهربين

نهضنا مبكرا في الصباح، فأزلنا كل المساحيق، وقمنا باستعادة صورنا، كما استعدنا هوياتنا الأصلية أيضا، وسلمنا الهويات الزائفة لغالب الحلاق. لم نتوقع أن يعود مداعس، ويجد ناصر وعياش وغيث وحنبصة في القرية. عجب من عودتهم المبكرة، وظن أنهم فشلوا في اجتياز الحاجز الأمني، وشرع يلوم الفتاة الغبية على قلة أدبها في الحديث معه عند الحاجز، فاستغربت أن يلومها على ذنب غريب لم تفعله، ما لبث أن اكتشف غياب غالب، وعرف أن الأخير أخذ هويات أقاربه ورفاقه، وأن الذين اجتازوا الحاجز الأمني هم الذين اختطفوا ابنته هند. ولا شك أن حنبصة التي قابلها هناك هي هند، لقد كان غبيا للغاية، وهنا ذهب بنفسه إلى الحاجز وإلى المديرية، وأبلغ أن مجموعة من الأشخاص اختطفوا ابنته، وغادروا نحو مأرب. وفوجئ باهتمام الشرطة الذين بعثوا إلى سلطات مأرب التماسا بالقبض على أولئك المتهمين، وبعثوا بالصور التي سلمها لهم مداعس، والأسماء التي أرفقت تحت هذه الصور كانت هي أسماء أبناء الحي من فئة المزاينة.

وحين خرجنا من الفندق في الصباح أوقفتنا دورية شرطة بالشارع، وفحص الجنود وجوهنا، ثم طلبوا منّا الانصراف، فابتعدنا بسرعة، وأشار غالب إلى صور أقاربه التي تغطي الجدران القريبة، مؤكدا أن مداعس كبير حيهم قد أبلغ السلطات عن اختطاف ابنته، وقال مستعظما الأمر:

"أخبرتكم سابقا، لن يسكت مداعس، سوف يقلب الدنيا رأسا على عقب"

اكتست ملامح بن جرجور بالشك وسأل بتشاؤم:

"أتظن أنهم يهتمون بشأن الفتاة ويطاردونا من أجل ذلك؟"

رد غالب مصرا على رأيه:

"بالطبع، فهذا الرجل يملك المال، ولديه أصدقاء ومعارف في كل مكان"

"يا لك من سخيف! ألم أخبرك وهند أننا مطاردون لسبب أعظم، وكذلك نصر حكى لكما شيئا عن وثيقة الوحي؟"

"لا أدري حقا، كنت مشغولا أفكر في طريقة لإخراجكم من الحاجز بسلام"

وردت هند قائلة باهتمام:

"نعم، لقد قال شيئا ما عن وثيقة خطيرة، لكني كنت أيضا مرتبكة ولم أفهم شيئا"

نظر بن جرجور إلى صديقه نصر، فتنحنح الأخير، وأخرج المخطوط ونشره أمامهما بتوتر، وأخبرهما بشكل دقيق عن محتوى الأوراق العتيقة، ولما انتهى صفع غالب وجهه بقسوة صائحا بحنق:

"يا ويلي، كما ترون، في مثل هذه الظروف سيتفق الزيود والإخوان المسلمون هذه المرّة على سحق كل شخص يعرف سر هذه الوثيقة، لا شك أن الحواجز حول المدينة مقفلة الآن، لذا أحبذ أن نسلك طرق المهربين إلى الجوف، ولو عرفت هذا الأمر ما كنت تورطت بمساعدتكم"

قالت هند ضاحكة بتهكم:

"هذا يعني أن أبي لم يعد هو الخطر الوحيد الذي يهددني الآن، أليس كذلك؟"

قلت بأسف:

"المجتمع كله صار عدونا، لذا من شاء أن ينسحب فليفعل الآن"

ردت الفتاة باستياء:

"فات الأوان على الانسحاب، مصيرنا الآن صار واحدا"

قال بن جرجور بانتباه:

"اســمعوا، أعرف بدويا منذ زمن بعيد كان يعمل في التهريب، ولا أدري هل مازال في مسكنه أم لا..."

قطع حديثه حين رأى ســيارتي شــرطة تقطعان الطريق، والجنود يتصــفحون الســيارات الذاهبة والقادمة ويخاطبان الركاب، لحســن الحظ وجد بن جرجور منعطفا صــغيرا قادنا إلى الشــارع الخلفي، وأخذ يسير مهتديا بذاكرته القديمة حتى وصــلنا إلى حي قذر في طرف المدينة، وهناك توقف أمام منزل مبني بالطوب الطيني على غرار منازل المدينة القديمة، وترجل ودق الباب متلفتا بحذر، حتى خرج فتى مراهق، فســأله قائلا:

"هل هذا منزل زبن الله؟"

رد الفتى:

"نعم، من يريده؟"

"محمد بن جرجور"

غاب الفتى قليلا ثم عاد يتبعه رجل بدوي راشــد، منهك الملامح، حاد النظرات، في الأربعينات من عمره، أقبل مهرولا، وصــافح الرجل باحترام قائلا:

"مرحبا، مر زمن طويل، أخبرني عن حاجتك"

"هؤلاء رفاقي، ونريد أن نتحدث في مكان آمن، أظن أننا ســنكون ضــيوفك هذا اليوم إن لم يكن لديك مانعا، لأن الأمر يســتدعي أن نمكث في ضيافتك"

"بكل سرور، إنه منزلكم"

ودخلنا إلى مجلس فسيح، وظهر القلق على ملامح صاحب المنزل، فأخبره بن جرجور أننا مطاردون ونريد أن نتهرب بعيدا عن الحواجز الأمنية والخطوط الرئيسية حتى نصل إلى الشيخ القبلي محمد بن ناصر الأفدع. سكت الرجل المهرب قليلا ثم أجاب بتلعثم:

"لقد اشتغلت بالتهريب منذ زمن طويل، لكني الآن صرت أعمل في مكتب الإسكان"

رد عليه بن جرجور بعشم:

"سأدفع أجرك ثلاثمئة ألف ريال"

وأخرج جرجور ثلاث رزم من المال، ورماها للرجل، فحك قرن رأسه والتقطها قائلا:

"سأقبل لأجل الأيام الخوالي، لقد كنت أمر على منزلكم دائما كلما سافرت إلى صنعاء، هل مازال والدك حيا؟"

"متوفٍ منذ ثلاثة أعوام"

"مؤسف جدا، رحمه الله"

وأضاف متبسما:

"الناس يهربون هذي الأيام! ما هي حكايتهم؟"

وروى أنه في مساء البارحة استقبل في منزله شابة محتشمة وضعت أمامه كوما من الذهب قيمته نصف مليون، وطلبت منه أن يأخذها إلى قبيلة عبيدة، ورفضت أن تفسر له سبب مغادرتها أو تكشف عن هويتها، وهو يفكر في حيلة للإبلاغ عنها للسلطات الأمنية، التي ستسارع لإيداعها في السجن على أنها امرأة ناشزة، أو متمردة خارجة عن طاعة ولي أمرها وعائلتها، لكنه يدرك أن أسرتها ستتخلى عنها بمجرد أن تذهب إلى السجن أو حتى تقتلها

محوا للعار. ناهيكم أن هذه الفتاة تبدو كاملة الأوصـــاف حميدة الخصـال، وامرأته غدت متوترة بسبب جمال هذه الشـابة، وتود أن تتخلص منها في الحال. وقد عرض على هذه الفتاة سرا أن يتزوجها وتكون زوجته الثانية، لكنها رفضـت أيضـا مفصـحة أنها ترفض الزواج المتعدد، ولا تقبل أن تشارك أي امرأة في زوجها..

قال زبن الله أخيرا بصوت غائر:

"أريد أن آخذ هذه الشابة معنا، لكني أخشى أن تعتقلني السلطات في حال علموا أني أخذتها إلى عبيدة"

رد نصر بانفعال:

"لا أحد سيلومك يا أخي، أخبرهم أننا نحن أخذناها معنا إلى عبيدة"

" أنتم أيضا مطاردون، ومن المحتمل أن أعتقل بسبب تهريبكم، ولا أعرف بعد ما يدعوكم للهروب!"

ضحك بن جرجور قائلا:

"أنت تقوم بعمل غير شـرعي على كل حال، وما الفرق بين تهريب البضـائع أو البشـر الناشـزين؟ الأولى تحتال على قانون الضـرائب، والثانية تحتال على أخلاق المجتمع فحسب. فأيها أقل كلفة وضـررا في رأيك؟"

رد زبن الله بتوتر:

"بالتأكيد الاحتيال على أخلاق المجتمع تكون محل نظر، وهي بلا كلفة، لكن الأمور تغيرت هنا، فالجماعات الدينية صـــارت تحكم البلاد كما ترى، وصـــاروا يولون الجانب الأخلاقي اهتماما كاملا. لذا أتمنى ألا تكونوا مطاردين لأسباب دينية أو أخلاقية"

رد بن جرجور:

"لن أخبرك بأي شـيء حتى نكون على الطريق، يجب أن نأخذ هذه الشابة المحتشمة معنا، وهذا أفضل من بقائها في منزلك أو دخولها السجن أو عودتها إلى أهلها. لا شك أن لديها أسبابٌ وجيهة"

سأل زبن الله:

"متى تنوون السفر؟"

"في أسرع وقت ممكن"

نهض زبن الله، وطلب مبلغا إضافيا لأجل المؤن والبنزين وصيانة السيارات، فقدم نصر مئة ألف ريال كانت بحوزته، ولا يملك غيرها، ورجاه أن يعيد الذهب إلى سفانة، لأنها في عوز شديد لحليها، ومن العار سلبه منها، وقد قدم صديقه بن جرجور الكثير من المال رغم أنه ليس طرفا في هذه المشكلة، وهكذا، اتفقنا أن نسافر في سيارة بن جرجور لأنها أكثر قوة ومتانة من غيرها، لذا نزعنا لوحة تعريفها كما يفعل رجال القبائل والمهربون، واستبدلنا إطاراتها بأخرى عريضة تلائم الطريق الصحراوي، وارتدينا ملابس البدو، وابتعنا مؤنا للرحلة، وغادرنا في الساعة الرابعة عصرا. جلسنا على مؤخرة التويوتا نحن الخمسة، أنا ونصر وغالب والشابة المجهولة وهند. كان ركوب النساء بالجزء الخلفي المكشوف أمرا شائعا في الصحراء، لكن الشابة الغريبة جلست متحفظة لا ترفع بصرها إلى وجه أحد، تضع برقعا على وجهها، وتظهر لها عينان زرقاوان ورموش طويلة، فاحترمنا خصوصيتها، ولم نتعرض لها بالكلام إذ بدت راغبة في الصمت.

وصلنا إلى مفرق صحراوي صغير، وفجأة خرجت لنا من خلف أحد الكثبان سيارة مكشوفة ممتلئة بالرجال الملتحين المسلحين، توقفت أمامنا بعشرين مترا، وانتشر أولئك الرجال في المكان متهيئين للقتال، فخرج زبن الله وصاح قائلا بلهجة بدوية:

"حيا الله بالرَبْع، هل لكم عندنا حاجة؟"

صدر صوت رجل كبير السن قائلا:

"لا حيّا ولا أهلا، نحن نبحث عن بنت شاردة اسمها سفانة"

أقبل زبن الله إلينا، ونظر إلى الفتاة الشـــابة باغتمام، فتحركت من جلستها ونطقت أخيرا قائلة بنبرات بدوية:

"أنا سفانة بنت الشيخ السلفي سلطان العوفي، ويريدون مني أن أكون زوجة لرجل سلفي كريه المنظر كبير السن"

سألها نصر باهتمام:

"ماذا تريدين؟"

"أريد أن أذهب معكم"

"دعينا نفاوضهم ونرى نواياهم"

رد زبن الله عليهم قائلا بحنق:

"أنا أفاوضهم لأني السائق ودليل الرحلة، وإن أصروا سوف نخضع لإرادتهم لأنهم أكثر عددا وعدة"

أشارت سفانة إلى نصر مخاطبة زبن الله:

" لو سمحت أيها السائق، دع هذا الشاب يفاوضهم"

رد زبن الله قائلا بانقباض:

"لا نريد المشاكل، يجب أن نسلمك لأهلك، ونذهب بسلام، لم يعد بوسعنا أن نفعل شيئا"

قالت سفانة باغتمام:

"سوف يقتلوني، ويرمون جثتي بين الكثبان أمام أنظاركم، إن كان يسركم أن تروا هذا المشهد، فسلموني لهم"

قلت بصوت حاد:

"كلا، لا تحزني، لن نسلمك لهم مهما كانت العواقب"

وقال نصر بحمية مفاجئة:

"على جثتي، دعوني أفاوضهم"

أومأت الفتاتان بالقبول، ونظر الجميع إليه بعشم وفضول، فطلب منهم أن يتأهبوا للمواجهة، وأن يشحنوا أسلحتهم الشخصية كالمسدسات، ويدعوا قطعة السلاح الوحيدة التي يملكها زبن الله في حالة تأهب، وعلى البقية أن يستتروا خلف السيارة، وينحنوا في لحظة إطلاق النار، وفي الحقيقة لم يكن هناك سوى مسدس واحد مختبئ خلف حزام بن جرجور، ولم يظهر سوى في تلك اللحظات، أما نصر فقد حبذ كمفاوض أن يظهر بدون سلاح، لذا تقدم وصاح مخاطبا الرجال الملتحين قائلا:

"لا توجد بنت اسمها سفانة، هناك فقط امرأتي وأختي، وهذا كل شيء"

قال الرجل الكبير بعنت:

"يجب أن أرى الفتاتين"

صاح نصر على الفتاتين:

"اظهري يا قمر وأنتِ يا بدور، (وأشار إلى إحداهما) هذه زوجتي قمر، والأخرى أختي هند.. أقصد بدور"

عند ذلك صاح الرجل السلفي بشكل مفاجئ:

" أطلقوا النار، ابنتي معهم.. "

انحنت الشابتان صارختين بخوف، كما انبطح غالب متذمرا سادا أذنيه بأصابعه، إذ لم يكن معتادا على هذا الجو الصاخب، وسرعان ما انهمرت الطلقات النارية على السيارة، فتهشم زجاجها وتناثر علينا، دون أن يصيبنا بأي أذى لحسن الحظ، بدا السلفيون مغرورين

بتفوقهم العددي وبنادقهم الحديثة بحيث أظهروا أجسادهم دون حذر، ولعلهم لم يروا أي قطعة سلاح لدينا، وشعروا أننا مسالمين مرتعشين، ولعل شكل غالب وارتعاشه وصراخ الفتاتين نقل لهم رسالة خاطئة بأننا سوف نرفع أصواتنا بالاستسلام، كانت طلقاتهم النارية تقع قرب رؤوسنا، وكأنهم ينوون قتلنا وليس إخافتنا، ورغم إصرارهم على إصابتنا بقينا للوهلة الأولى جامدين لم نطلق باتجاههم رصاصة واحدة، إذ وضع زبن الله بندقيته جانبا، وحبذ الاختباء خلف السيارة، وفجأة قفز نصر واختطف البندقية، واحتجب خلف الباب الأيمن المفتوح، وأطلق سبع رصاصات لم تخطئ، واندهشنا بسبب دقته في التصويب، وصاح زبن الله بفجيعة: "أصبت الشيخ العوفي أيها المعتوه" وبقي ثلاثة أشخاص من السلفيين استتروا خلف سيارتهم، وأخذوا يطلقون النار باضطراب، وطلب نصر منا بصوت عالٍ أن نوقف إطلاق النار، فعل ذلك بشكل مسرحي تمثيلي، إذ لم يكن أحد غيره يطلق النار، حتى بن جرجور بقي ممسكا مسدسه في يده وحسب، حتى ساورني الشك أنه خالٍ من الرصاص، لكن صديقي نصر حبذ أن يوهم السلفيين أنه ليس وحده من يقاتلهم، وبهذا تكون فرصة استسلامهم كبيرة، وما لبث أن صاح طالبا من الرجال الثلاثة أن يستسلموا:

"هيه، ضعوا أسلحتكم وجثث الرجال في السيارة، وعودوا إلى أطفالكم، ولكم العهد والأمان"

مكثوا قليلا من الوقت، ثم خرجوا وحملوا الجثث إلى مؤخرة السيارة المكشوفة، وغادروا المكان.

نظرت إلى صديقي نصر متعجبا، فأفصح أنه التحق بالخدمة الإلزامية في الجيش بعد الثانوية لمدة عام في لواء الصاعقة، وتخصص في شعبة القناصين والرماة، وحصل على المركز الأول في الرماية، كان يتكلم بشيء من الشفافية والضيق، ويواري سخطه لما جرى خلف كلماته الهادئة التي بدت متواضعة بما يكفي. وعدنا

إلى الطريق شـــاقين بطن الصـــحراء في طريق لا يعرفه ســـوى المهربون، كثبان كبيرة وصغيرة، وغبار يثور عاليا، وشمس حارة لاهبة، ولم نســـتطع تبادل الكلام لأن وجوهنا كانت متوارية خلف الشـــيلان، وبالكاد اســـتطعنا التنفس. لكن الجو اعتدل قبل المغيب، وشـــرع وهج الشـــمس يبتعد، وانقلب الأفق إلى شـــفق رائع مغطى بالألوان الشـــائقة. حين ذلك، اســـتطعنا أن نتحرك، فنزعنا الشـــيلان عن وجوهنا، ونفضنا الرمال عن ملابسنا المغبرة. وبشكل مفاجئ، نزعت ســـفانة نقابها عن وجهها كاشـــفة عن ملامحها المدهشـــة، وتنهدت بعمق، وقالت مخاطبة نصر دون أن تنظر في وجهه:

"من يراك لا يصدق أنك قاتل محترف، إذ تبدو مثل واعظ وقور"

رد بتوتر:

"لا تغرك المظاهر"

قلت بشيء من التفاؤل:

"انسوا الأمر، دعونا نفكر بما هو قادم"

ردت سفانة بلؤم غريب:

"كيف أنســـى أن هذا الشـــاب قتل والدي! اتركوني أفكر بهذا الأمر قليلا، لا يمكنني أن أتجاوزه بسهولة"

رد نصر بتأثر:

"لســت رجلا صــالحا، أعرف ذلك، قتلت ســبعة أشــخاص لكي أنقذ حياة شـــخص واحد، لا أعرف ما دهاني لأفعل ذلك، لم أفعل شـــيئا كهذا من قبل"

وأخذت الدموع تسـقط من عينيه الحمراوين، اكتشـفا أنه كان حزينا قبل أن تناقش سفانة الأمر، لكنها الآن مسحت دموعها وظهر عليها الوجوم، وما لبثت أن قالت بهدوء:

"انسوا الأمر، كل هذا حدث بسببي، أنا المذنبة"

حلق الصمت على الجميع حتى أضافت مسددة بصرها بخجل إلى نصر:

"شكرا لك لأنك فعلت ذلك من أجلي"

لم يقل نصر شيئا، بل ظل واجما مكفهر الوجه على حاله. كان هذا الحال غريبا عليه، لم يسبق أن رأيت هذا الجانب الكئيب في شخصه، حتى غالب الحلاق الذي ظل ساكتا رغم ميله إلى الثرثرة تكلم منفعلا:

"وفروا دموعكم لمن يستحقها، كان أولئك الملتحون سيقتلون الفتاة ثم يقتلوننا بدم بارد، كما ترون، لقد أنقذ الشاب حياة أكثر من عشرة أشخاص، لذا ينبغي أن نكون فخورين "

انفرجت ملامح نصر قليلا، وبدا أنه بعوز لمثل هذه الكلمات الداعمة والعبارات المسكنة لآلامه حتى لا يجلد نفسه وضميره أكثر مما ينبغي، فانبرت الفتاة مازحة فجأة:

"لقد قال زوجتي قمر.. هل هذا اسم زوجته المتخيلة أم الحقيقية؟"

لم يرد نصر، كان مزاجه مازال سيئا، فانحنيت وهمست قائلا لسفانة:

"ليس متزوجا بعد، لكني أؤكد لك أنه لن يجد أجمل منك في هذا الكوكب"

تبسمت لأول مرة، ومدت هند يدها نحوي مبتسمة وكأنها تريد أن تستعيدني أو تؤكد أنني أنتمي إليها، لكنها قالت لتغيظني:

"هذه الحياة غريبة، لا أحد يعرف كيف بوسعها أن تدور حتى تدع كل شخص يخرج عن هدفه المرسوم في باله، والحقيقة أن نصر شاب جذاب لا تستطيع أي فتاة أن تقاوم سحره"

حاولت سفانة أن تبرر سبب اكتئابها الظاهر، فقالت باضطراب:

"كان يتردد على مجلس والدي شاب يسمى عزيز من قبيلة عبيدة، التقينا خلسة مرة أو مرتين، وأخبرني ذات يوم أنه يريدني للزواج، وأنا أيضا شعرت ناحيته بالتقدير، لكنه اختفى منذ عام، ولم أعد أسمع عنه خبرا"

غمزت هند قائلة بمكر:

"عصفور في اليد ولا عشرة في الشجرة"

قلت معلقا بمرح:

"دعونا لا نفترق، ليست مصادفة أن نلتقي"

تبسمت سفانة قائلة بخجل:

"أنتم في وادٍ، وهو في وادٍ آخر، وأنا في وادٍ ثالث"

انتبه نصر إلى ما يدور حوله من غمز، ولاحظ أن عيوننا مصوبة نحوه، فقال بتوتر:

"ما بالكم تغمزون عليّ أيها الحمقى؟! توقفوا"

ضحكنا، وضحكت سفانة ضحكة فاتنة، كان واضحا أنها من نظرتها إلى صديقي تحاول أن تشجعه على نسيان الأمر. أو هكذا خيل لي. وظلت تنظر نحوه بإعجاب. وتساءلت إن كان ذلك الحزن والحنق اللذان انتاباه حقيقين أو أنه فقط أراد أن يجذب الانتباه والأنظار، ومهما يكن فقد استطاع أن يثير التعاطف في قلوبنا، ويحصد الإعجاب فعلا. وأظنه انتبه إلى أن الشابة الجميلة فقدت للتو والدها بإحدى رصاصاته، فيما هو في الوقت عينه يود أن ينال إعجابها، وهذا بحد ذاته أمر غير مستساغ، لكن التاريخ مليء بمثل هذه التصرفات البربرية، فالقائد قُثَم مثلا هاجم يهود المدينة، واغتال الزعيم اليهودي حُيي بن أخطب، ثم ما لبث أن اقترن بابنته

في اليوم ذاته، لكن صـــديقي فعل شـــيئا مختلفا، إذ دافع عن نفســـه وأصـــــابه أثناء تبادل إطلاق النار فانقذنا جميعا، وهو لم يطلبها للاقتران في اليوم ذاته كما فعل قُثم بن عبداللات، كنت أعرف أنه أحبها حين رأى وجهها اللذيذ، أنا أيضـــا أحببتها وتمنيت أن أخطفها منه بأي حال. ثم أشحت بصري عنها يائسا قائلا لنفسي هنيئا لك يا نصر، وقلت له بشيء من الارتياب:

"هل دار في ذهنك أن ما حدث يشبه ما فعله قُثم بزعيم بني النظير؟"

رد بصوت مخنوق:

"تخيل كيف كان شعور صفية بنت حُيي ليلة الدخلة! أنا أيضا وحش رغم أن والدها بدأ بإطلاق النار علينا"

"لا تفكر على هذا النحو"

اقتربت سفانة من صديقي وهي تقول بارتباك:

"أوه.. فهمت، لست حاقدة عليك بسبب موت أبي، لقد انقذتني"

أمسكت يده، فنزعها قائلا بخوف:

"أرجوك، ابتعدي عني، حياتي مليئة بالمخاطر، ولسوء حظك أنك تعثرتِ بي، لذا اذهبي إلى ذلك الشاب في عبيدة"

تهدج صوتها الرقيق حين ردت باغتمام:

"سأفعل ما تشاء، فقط لا أريد أن تظل مكتئبا، لأن ذلك يزيد من تعاستي"

وتراجعت إلى موضعها ببطء. فأمسكت هند بيدها وهمست:

"هو يحبك، لذا يشعر بالذنب، ابتسمي أرجوك.. هيا"

تبســـمت ســـفانة دون أن يراها أحد، فالليل كان قد أطبق على الصحراء، وشرعت النجوم تظهر بوضوح، والكثبان تتحرك وسط

ذلك البحر من الرمل مع حركة السيارة فتبدو كالأمواج المتلاطمة، واستمر سيرنا حتى الساعة العاشرة، ثم توقفنا عند سائلة تحف بها الأشجار كالنخيل وسنام الجمل، وتجري خلالها مياه جارية تأتي من المرتفعات الشمالية بسبب الأمطار، فنزلنا وافترشنا الأرض، وشرع الطباخ هشام يشعل النار ويصنع الطعام. وبعد أن أكلنا جلسنا على أغطية رقيقة فرشت فوق رمل ناعم، واستندنا على جذوع النخلات، واستضأنا بأضواء النار التي حبذ زبن الله أن نطفئها لأسباب أمنية، لكن الجميع استحسن بقائها متأججة، ودب المرح وسادت الأحاديث الجانبية الشيقة، فيما بقي نصر بعيدا عن كل هذا الجو، وأثناء ذلك، أعاد زبن الله كوم الذهب إلى سفانة قائلا:

"خذي جواهرك، هناك من دفع المال الذي تدينين به؟"

نهضت الشابة غاضبة وصاحت بحدة:

"لست بحاجة لشفقة من أحد، أخبروني من يكون فاعل الخير هذا"

"إنه نصر، وبصراحة لقد فكرت أن أسلمك للشرطة، لكنه أصر أن نأخذك معنا، وقال إن من العار أن نأخذ الحلي"

انكمشت سفانة، ونظرت ناحية نصر بامتنان وأسف وقالت:

"أوه. آسفة، ظننت أنه شخص آخر"

فانفجرنا ضاحكين، وقلنا إن نصر محظوظ إذ يملك حصانة من اللوم والتأنيب، فيما نحن مازلنا تحت طائلة العقاب في أية لحظة. وما لبث زبن الله أن أثار موضوعا آخر وهو أن نخبره عن سبب هروبنا كما وعدنا أن نفعل، وقال باهتمام:

"ها نحن قطعنا نصف الطريق، وأريد أن تخبروني عن سبب هروبكم كما وعدتموني"

أشاروا إلى نصر الذي مازال في مزاج سيء، لكني قلت مشجعا:

"أخبر زبن الله وسفانة يا نصر، يتحتم أن يعلما بما جرى"

"نعم، اقتربا مني"

اقتربا منه برهبة، فأخبرهما عن الوثيقة الخطيرة وما جرى دون تكتم. مكثا قليلا مشلولين لهول ما سمعا، وفجأة هجم زبن الله على نصر وضغط على عنقه صائحا:

"ألم تجدوا أحدا يهربكم غيري؟ الآن أصبح بيتي وعائلتي عرضة لهجوم الجماعات المتطرفة، أي حظ سيء قذفكم في طريقي؟ هاتوا هذا المخطوط نقدمه لهم حتى يدعونا نعيش بسلام"

قفزت سفانة فوق ظهر زبن الله، وجعلت تضربه قائلة بحنق:

"دعه وشأنه، إنه يخبرنا الحقيقة فحسب"

هرعنا وفصلنا الرجل عن صديقي نصر، فأخذا يلهثان بسبب الاجهاد، بعد قليل أضاف زبن الله بأسى:

"من الآن وصاعدا لن أر عائلتي، سأعيش مشردا معرضا للرصاص كمتعاون معكم أيها الأوغاد"

قلت له بنزق:

"كن رجلا متفائلا يا أخي، انظر، جميعنا تورطنا في الأمر، ولم نخضع أو ننهزم، فالتفكير بتسليمه يعني الاقدام على الانتحار، لأنهم يقتلون أي شخص يشتبهون بمعرفته بسر المخطوط، فاذهب لتأخذ لك قسطا من النوم والراحة"

قالت سفانة متنهدة:

"بما أننا معرضون للموت، فيتحتم أن نبحث عن السعادة"

واقتربت من نصر دون أن نشعر، وفوجئنا بهما ينسجمان ويألفان بعضهما، فأسرعنا في إطفاء النار، وغرقنا في نوم عميق.

عدنا للسفر في وقت مبكر من الصباح التالي، شاقين طريقنا نحو قبيلة الأفدع الشهيرة، كان طريق الصحراء مخيفا، وأي عطل قد يصيب السيارة يعني الموت المحتوم للركاب، لذا عرجنا على أقرب ميكانيكي في مديرية الحزم عند طرف المدينة، وهناك وجدنا القبض على هؤلاء صورنا عالقة على الجدران، ومطلوب الأشخاص الذين يشتمون الذات الإلهية والنبي محمد، وما لبثنا أن تفقدنا الإطارات والزيت والحرارة، وطلب منا المهندس أن ندع السيارة تبرد قليلا في الظل حتى تعتدل حرارتها، وحينئذٍ، عرض علينا أن نمكث بعض الوقت في منزل خالٍ قرب الورشة حتى يستكمل الفحص، فذهبنا ومكثنا في منزل واسع له شرفات تطل على الصحراء، أصبح نصر وسفانة مقربين بشكل لا يصدق، ولم يفترقا لحظة واحدة، كما كنت وهند أيضا لا نفترق تقريبا، لكن صديقي وفتاته اندمجا بحيث لا أحد يبعد بصره عن الآخر، ويظلا يمسكان بأيدي بعضهما وكأن كل واحد منهما يخشى أن يذهب الآخر بعيدا عنه، ويبدو أن بن جرجور ورفاقنا الآخرين لاحظوا ذلك، لكن زبن الله بدا غاضبا يتحرك بعصبية شديدة، وما لبث أن قال بانفعال مخاطبا سفانة:

"هل مازلتِ تريدين أن نعرج بك على منطقة عبيدة، لأننا في طريقنا إلى قبيلة الأفدع؟"

ردت دون مواربة:

"لم أعد أريد العروج على عبيدة، لقد أصبح طريقنا موحدا الآن"

نظر زبن الله إلى نصر ثم أشاح بصره متمتما بضيق:

"سبحان مغير الأحوال"

ضحك بن جرجور وقال بشيء من المزاح والجدية:

"لا أحد استفاد من هذا الحال المشين غير نصر وسام، إذ حظيا بفتاتين جميلتين"

قلت مبتسما:

"إننا محظوظان بالفعل"

علق زبن الله على كلامي قائلا:

"أي حظ هذا، أنتم مطلوبون من عائلة مداعس والعوفي، والزيود كذلك يبحثون عنكم، صـــوركم في كل مكان، لحســـن الحظ أن صورتي لم تظهر معكم على الجدران"

قفز نصـر بشـكل مفاجئ وخطف مفتاح السـيارة من كف زبن الله وقال مشيرا إليه:

"أليس غريبا ألا تظهر صورته معنا؟ أرجو أن تقابلوني في الخارج"

وخرج وفتاته سـريعا، وهنا تنبه بن جرجور إلى الأمر، فأمسـك في عنق صاحبه قائلا بسخط:

"احذر يا زبن الله، إن كنت تفكر أن تسـلمنا لتنجو سـتكون أول من يقتل في مجموعتنا"

وانتظرنا خارج المنزل، حتى أقبل نصر بالسيارة صارخا:

"اصعدوا، سيارات الشرطة قادمة، صفاراتها تدوي في كل مكان"

وابتعدنا من الخطر، واعترف زبن الله أنه في لحظة ضـعف أعطى إشـارة إلى أحد المسلحين الناجين من مرافقي العوفي، حيث أومأ له ناحية الحزم، لكن لحســـن الحظ أن الجنود ربما انتظروا في مكان آخر، ولم يتوقعوا أن يصـل المسـافرون إلى تلك الورشـة الصـغيرة عند طرف المدينة، وأقســـم أنه لن يفعل هذا مرة أخرى. لكنه كان أحد معجبي رجل الدين القتيل، وشـــعر بـالحزن عليـه وبتـأنيـب

الضـمير. ثم اسـتوى يشـك في الأمر بعد أن رأى وسـمع محتوى المخطوط السـري، ومن ثم عرف أن ديانة قُثم غير صـحيحة، وندم على تلك الإيماءة البغيضة.

عاد الوئام والانسـجام ثانية بين أفراد المجموعة، وقلنا إن ما حدث لا يجب أن يتكرر، وإن الواقعين في مثل هذه الأزمات بحاجة إلى التماسـك والتكتم، لأن أي ضـرر سـوف يصـيب الجميع، وأفصـح نصـر أن هناك نماذج من الخيانات التي حدثت في التاريخ، راح ضـحيتها الخونة أيضـا، وفي التاريخ اليمني مثال واضـح وهو الفقيه سـعيد صـاحب شـار الذي حشـد الرعايا والفلاحين ضـد الاقطاعيين الذين كانوا ينهبون ويسـرقون أراضـي وغلال الناس، وحشـد جيشـه وقام باعتقال الإقطاعيين ومشـايخ القبائل، ومن ضـمن أولئك المسـجونين الشـيخ القبلي أبو حليقة الذي أعلن في سـجنه الطاعة والولاء للفقيه سـعيد، ولما أطلق سـراحه بعث رسـالة للإمام يقول فيها إنه سـيخرج ورجاله في جيش الفقيه سـعيد، وسـوف يهاجم معسكر الفقيه من الداخل، وبالفعل غدر أبو حليقة بجيش الفقيه سعيد في مدينة يريم، وما لبث أن طلب أن يقابل الإمام طامعا أن يكافئه على فعلته، ولولا ما فعله لم يكن أحد ليتغلب على جيش الفلاحين. لكن الإمام أمر بقتله قبل أن يصل إلى صنعاء.

ودخلنا إلى منطقة الشـيخ محمد بن ناصـر قرب الظهيرة، وهناك قمنا بتحسين هندام الرجل المسن هادي سريع الذي سيقابل الزعيم الكبير، ويخبره عن ضـرورة سـداد ما بذمته من معروف بحمايتنا من مطاردينا الذين لم نهتك عرضـهم أو نخيف أطفالهم أو نسـلب حلالهم، وتولى زبن الله تلقينه بعض الأمور التي يجب أن ينتبه لها، فالزعيم القبلي بن ناصـر قد يحاول أن يتنصـل عن المعروف قائلا إن ذاك الوعد قدمه فتى لم يبلغ الحلم بعد، وبوسـعه أن يرد عليه قائلا إن الإنسـان حين يكبر ملزمٌ أن يرد لوالديه معروف رعايتهم له عندما كان ضـعيفا، فالوالدان يضـعفان أيضـا وبحاجة لرعاية

لاســـيما في البلدان التي تتخلى فيها الحكومات عن مواطنيها الذين يجدون أنفسهم بلا معاشات أو تأمينات. غير أن الرجل المسن خلع الملابس البدوية ورماها بغضب، وارتدى الملابس التي أتى بها من منزله، وقال بحنق:

"سأبقى على طبيعتي، ذلك الزي يشعرني بالضيق، ولا أظن أني أستطيع أن أتكلم، بوسعك أن تخبرني عن تقاليد الناس هنا"

نظر زبن الله إليه قائلا بضيق:

"لن أخبرك شيئا عن التقاليد، كن على طبيعتك كما تحب أن تكون، نصـــيحتي الوحيدة هي ألا تخبره عن المخطوط قبل أن يعلن عن حمايتكم"

رد الرجل المسن قائلا بضجر:

"سأقول ما يخطر في بالي، سئمت من الحذر والهروب من ذنب لم أرتكبه"

بدا واضـــحا أن هادي ســـريع لم يكن يعرف حقا إن كان ما يجري يستحق كل ذلك الانتباه والحذر، ويستغرب أن يهرب مجموعة من الرجال للنجاة بحياتهم بســـبب مجموعة من الأوراق البالية، لكنه هرب بســـبب مظهر أولئك الرجال الذين كانوا يلبســـون أقنعة مما تلبســـه القوات الخاصـــة أو الجنود الذين يدخلون إلى المفاعلات النووية، وكان ينوي أن يعود إلى منزله بعد يوم واحد، غير أن أولئك الملتحين الذي ســرقوا ماله وضــربوه أضــعفوا جســده، وقد أفزعه هؤلاء الرجال الذين يتحدثون عن مخطوط غريب يسيء إلى عقيدة مئات الملايين من المســلمين، زاعمين أن الزيود لن يترددوا عن قتله في حال أمسكوا به، ومن غبائه أنه أخبرهم عن المعروف الذي أســـداه لابن زعيم قبيلة قوية كبيرة، وهذا جعله مضـــطرا لمرافقتهم إلى هنا. وإذا كان يتحتم أن يموت فليكن ذلك في منزله

قرب عائلته، وليس في الصحراء أو بأي مكان آخر مجهول. وأضاف قائلا بهدوء:

"سأغادر بعد أن أقابل الشيخ، فأنا شخص لا أقرأ أو أكتب، ولا أهتم بالمخطوط ولا أفقه شيئا مما يجري"

رد زبن الله موافقا:

"وأنا أيضا جئت بالأجرة التي دفعوها لي، ولم أدرك شيئا عن المخطوط سوى في منتصف الطريق، ولعل إشارتي لذلك الرجل الملتحي ستنقذني، وسأبدو مجبرا على السفر"

وتشجع غالب الحلاق وهشام الطباخ والمعلم عثمان، وأعلنوا عن انضمامهم لمجموعة الأشخاص الأبرياء الذين ليس لديهم حيلة فيما يجري، وكل منهم وجد ذريعة ما مقبولة قد تغفر له السير مع شخصين عثرا على شيء غير مرغوب ظهوره للعلن، لكنهم رغم ذلك حافظوا على عذريتهم المعرفية بحيث لم يدركوا ما إذا كان هذا المخطوط حقيقيا أو مزورا، صحيحا أم كاذبا! كما أنهم على كل حال، لم يؤمنوا بمحتواه أو يهتموا، لأنه مجرد أوراق عتيقة لا يجب أن تبعث على الهلع والهروب بالرغم من أنها تبدو مثيرة للاهتمام.. وحين سمع بن جرجور خبر هذا الانشقاق أقبل متحفزا لقتالهم، لكني ونصر طلبنا منه أن يهدأ ويفكر في الانضمام للآخرين. فلا أحد مجبر على البقاء إلى جانبنا في هذه المحنة، ولو أدركنا أن تسليم المخطوط سيعفينا من أي لوم أو عقاب لن نتردد عن تسليمه. ولو وجدنا أي مؤسسة ثقافية أو مكتبة تقبل أن تتسلمه منّا بمحضر رسمي لن نتردد عن تقديمه لها كذلك. وبعد أن سمع المحتجون كلامنا الهادئ هدأت وساوسهم، ونظروا إلينا بشفقة، وأفصحوا أن ميعاد الانشقاق والتخاذل لم يحن بعد، وسينتظرون حتى يقابلوا الزعيم القبلي، ويسمعون ما يقوله بشأن المخطوط. ومازالت هناك مشكلة الفتاتين الهاربتين اللتين لم تتحدثا عن المخطوط لأنهما أيضا

واقعتان في مأزق الهروب، ومن الحكمة أن تقفا على الحياد، ولا تبديان رأيهما في أي شيء حتى تجدا حلا لمشكلتهما الخاصة، غير أن الحظ ساقهما إلى أشخاص واقعين في محنة تبدو أكبر مما تعتقدان، لأن لا أحد من أولئك الرجال أشار إليهما بأي إشارة، بل استحوذ المخطوط الخطير على مجمل حديثهم. لذا بدا عليهما العجب رغم معرفتهما أن موضوع المخطوط ليس هينا، وأن بوسعه أن يثير أزمة عالمية في حال وصل صداه إلى المسلمين المنتشرين في أرجاء العالم، ولاسيما أن معظمهم متزمتون يظنون أن بوسع الالتزام الديني أن يخرجهم من مأزقهم الحضاري كما يزعم رجال الدين.

الزعيم في ورطة

كانت حاضـرة الزعيم القبلي بن ناصـر قرية صـغيرة غير مرئية، وقليل من السـكان يظهرون، والكثير من الحيوانات لاسـيما الإبل تلوح في الزرائب الخلفية، أو سـارحة حول الطرقات تتمطى وتأكل من الأشـجار البرية، والقرية عموما للوهلة الأولى لا تشـجع على الاعتقاد أن يلقى القادم إليها حماية جيدة، ومنزل الزعيم أيضـا لم يكن قصـرا كبيرا كما اعتقدنا، بل هو منزل طيني صـغير، له ملحقات على شـكل غرف متلاصـقة، وثمة خيمة واسـعة بالجانب الآخر مزخرفة وأنيقة، وهناك عند الباب استقبلنا حارس مسن يقف في الخارج، وطلب منا أن ننتظر الزعيم في الخيمة، وصـاح على رجل ما، فأقبل مسـرعا جالبا قهوة في قلة محلية سـكبها في كؤوس صـغيرة قدمها لنا بطريقة آلية. نظرت إلى رفاقي بيأس، ورأيت على ملامحهم الخيبة ذاتها التي شـعرت بها، باسـتثناء زبن الله الذي فهم ما يدور في خلدنا فقال محذرا:

"ابعدوا هذه المسحة الغبية عن وجوهكم قبل أن تقابلوا الزعيم"

قلت بتجهم:

"ألا ترى هذا البؤس في المكان؟"

ضحك مجيبا:

"ستجدون هذا المظهر في كل مكان بالجوف، لكن القوة مختبئة في الداخل"

لم تتبدل ملامحنا ولم نفهم ما يعنيه، وقال نصر بشيء من القلق:

"البيوت قليلة متناثرة"

"لكن ساكنيها متماسكون متلاحمون عند الشدائد"

قلت باشمئزاز:

"انظر حولك يا أخي، الأرض فقيرة مجدبة "

"لكنك لم تر وجهها الآخر"

تكلم نصر قائلا باهتمام:

"هناك ممالك قديمة نشأت في المناطق الشرقية"

كانت أرضية الخيمة مفروشة بالسجادات المحلية المنسوجة من الصوف والوبر، وكان الجو في الداخل معتدلا ومنعشا مقارنة بالحر القاتل في الخارج. شعرنا بقدر كبير من الطمأنينة والمرح رغم أننا لم نولِ أمر الحصول على الحماية أي اهتمام لاعتقادنا أن المناطق القاحلة الفقيرة التي ليس بمقدورها أن تصنع لنفسها الرفاهية، لن توفر لنا الحماية بالتأكيد.

وأقبل الشيخ بن ناصر وخلفه رجل واحد مسلح، ورحب بالزائرين وصافحهم واحدا واحدا، حتى النساء، بدا مرتديا الثوب والحزام البدوي مثل زبن الله، ويقارب الخمسين من العمر أو أكبر قليلا، والتواضع في ملبسه جعلنا للوهلة الأولى نظن أنه أحد العاملين لدى الشيخ، وفكرنا أن نسأله عما جعل زعيم القبيلة يتأخر عن القدوم، لكنه قال بعد أن قدم واجب الترحيب:

"مرحبا، اعذروني على التأخير"

وجعل يردد كلمات الترحيب، فأجاب زبن الله قائلا في الحال:

"كافي ووافي يا شيخ"

وأضاف بشيء من الكلفة:

"هؤلاء الرجال جاؤوا إلى منزلي في مأرب، وطلبوا أن أعبر بهم طريق التهريب لمقابلتك"

صاح الشيخ أو الزعيم مخاطبا المجموعة:

"علومكم وأخباركم؟"

غمزنا الرجل المسن سريع ليتقدم لأنه الأكبر في السن، ويملك معروفا قديما قدمه للزعيم، وبوسعه أن يطلب مقابل ذلك حماية المجموعة، لكن الرجل شعر بالحرج من الحديث عن المعروف، وحبذ أن يخبره بكل شيء دون مواربة، والأمر بحد ذاته لم يعد مقتصرا على الاستنجاد من الزيود، بل أن هناك أكثر من مشكلة، وأكثر من غريم، فقال بصراحة رجل لا يعرف اللف والدوران:

"قادنا إليك فضول شابين كانا يبحثان عن شيء ما في الجبل، فعثرا على شيء فظيع، فطاردهما بعض الناس الخطرين للحصول عليه، فآويتهم دون أن أدرك ما يجري، وبعد أن غادرا هاجم الجنود منزلي، فهربت حتى عثرت عليهم، وقادنا القدر جميعا إليك"

رد الشيخ قائلا بارتباك:

"إن كنتم تبغون النجدة، فاخبروني بما حدث حتى أكون على عِلم"

وتابع بحزم:

"أريد أيضا أن أعرف أسماءكم وإلى أي القبائل تنتمون، لأني أرى امرأتين بينكم"

قال نصر بضيق:

"سأخبرك بما جرى، وأتمنى أن تجد الصبر لسماع قصتي"

رد الشيخ قائلا:

"أرجو أن توجز"

"سأفعل ما في وسعي"

وروى نصـــر ما جرى دون أن يذكر التفاصـــيل أو حتى محتوى المخطوط، وذكر كيف عثروا على الفتاتين والظروف التي كانت تهدد سلامتهما، ولما انتهى طلب كوزا باردا من الماء.

وأول شيء تكلم به الشيخ هو الدَيْن الذي عليه أن يسدده قائلا بشكل مباغت:

"لست مدينا لأحد إلا لرجل واحد"

فقال الرجل المسن بضيق:

"لا أهتم باسترداد المعروف لأن من العار أن أقطع كل هذه المسافة الطويلة لأذكرك على شيء حدث قبل زمن بعيد، وبوسع أي رجل أن يفعل ذلك"

"ذلك الرجل أنقذني قبل أربعين سنة دون أن يذكر لي اسمه أو لعلي نسيت الاسم فعلا، وأنا ملزم أن أرد له المعروف"

"هذا أنا هادي سريع، وجدتك في حادث سيارة، وأخذتك بسيارتي إلى والدك، وليس عليك أن ترد لي ذلك الدين"

نهض الشيخ بن ناصر قائلا بامتنان:

"حقا؟ في هذه الحال، سأحميك ورفاقك من الزيود، وأفاوض أهالي الشابتين على الزواج، ونقيم الزفاف هنا، هذا أمر سهل"

هتف نصر قائلا بتوتر:

"أيها الرجل الشهم، ليس سهلا كما تظن، ألا تحب أن تعرف محتوى المخطوط السري الذي لم تعلم شيئا عنه بعد؟"

في تلك الأثناء دوى صوت الأذان من مسجد القرية الذي بدا مواربا صغيرا بالكاد يرى، فقال الشيخ:

"اذهبوا للصلاة إن شئتم، ومهما يكن ما جاء بالمخطوط لن يكون سببا يبرر مطاردتكم وقتلكم"

رد نصر بشيء من الحرج:

"لن أصلي، لأن المخطوط يثبت أن ديانة محمد بن عبدالله باطلة، وأن المساجد ليست بيوت الله بل بيوت الشيطان"

فزّ الشيخ القبلي مندهشا وقال بشيء من الاضطراب:

"هلا تقرأ لي هذا المخطوط، فأنا متشوق لمعرفة ما جاء فيه!"

قرأ نصر المخطوط، وظل وجه الشيخ بن ناصر يتلون ويقتم مع مرور الوقت، ولما انتهى نصر منه، هتف الشيخ قائلا بجذل غريب:

"هذا أخطر مما يتصور المرء، ومهما يكن لن أدع أحدا ينال منكم"

وشرد مفكرا بعض الوقت، بدا رغم ذلك سعيدا مبتسما، ثم أضاف:

"سيأتون من أجلكم بالتأكيد، ليس الزيود وحسب، بل جميع الطوائف الإسلامية سوف يحاولون محاكمتكم واستعادة المخطوط"

قلت بشيء من العجب:

"تبدو مغموما وسعيدا في الوقت عينه أيها الزعيم"

رد باهتمام:

"نعم، الأمر شائك قليلا، فأنا سأحميكم بالتأكيد لأن هذا المخطوط إشارة جيدة من القدير، وفي الوقت عينه أريد أن أحافظ على وحدة القبيلة من الانشقاق والتشرذم، لذا يجب أن نفكر في حل يبقي كل شيء متوازنا وكل شخص راضٍ عن ذاته"

وجلسنا نفكر ونتحدث عن المشكلة، وفهمنا المأزق الذي يشعر هذا الزعيم أن عليه مواجهته، فالتحزب الديني قد استشرى في القبيلة، والمذهب الوهابي السلفي تسلل إلى القرى التي تنزوي مختبئة في جوف الصحراء، حتى أصبحت مساجدها مليئة بالوعّاظ الذين يأتون من كل اتجاه لنشر أفكارهم الشاذة هنا، حيث يبنون المساجد

على نفقة جمعيات مجهولة، وقد انتبه مبكرا إلى هذا الخطر، لكنه عجز عن منع التطرف والتحزب من غزو القبيلة، وظل يرى بعض رجاله الأشاوس الطيبين يرمون أنفسهم في حلقات الدروس، وهم أشخاص لم يتلقوا تعليما مدرسيا من قبل، وليسوا محصنين من الأفكار الشريرة، لذا بوسع أي شخص يملك منطقا شريرا أو لحية مشذبة معطرة أن يقنعهم أنه يملك الحقيقة البحتة، ولا يعلم هو ولا أحد غيره يعلم، من يكون الممولين والداعمين لهذه المشاريع التي تقوم بتغيير الاعراف الاجتماعية المحببة التي حافظ عليها الناس منذ قرون، وحمتهم من الصراع والانقسام أمدا طويلا.

كانت بعض العائلات الكبيرة في القبيلة تنتمي عرقيا للهاشميين، الذين ظلوا يحافظون على طابعهم العرقي والسلالي والديني، وهؤلاء وأولئك انتموا لمذاهب يتزعمها رجال دين في بلدان بعيدة، وهكذا أصبح الأهالي منقسمين بين مذاهب بني أمية السنية ومذاهب بني هاشم الشيعية، وبات الطرفان يتنافسان ويخزنان السلاح، وأمسى الزعيم يؤمن أن الحرب الأهلية غدت وشيكة الحدوث، وخطر في باله إنقاذ قبيلته وقبائل الجوف قاطبة من الحرب الطائفية، وكف عن الذهاب إلى المسجد، وظل يفكر باغتمام منتظرا معجزة ما، حتى أتى هذا المخطوط الذي عرف أنه خيط النجاة الوحيد رغم ما يصحبه من مجازفات ومخاطر جمة، ها هو الدليل أو المخطوط قد وصل إلى الجوف، واطلع عليه زعيمها القبلي، وأدرك أنه حقيقي، حتى إن لم يكن حقيقيا فهو البلسم الذي يجب أن يداوي به جروح المجتمع القبلي في الجوف، لقد ظهر هذا المخطوط لأول مرة منذ أكثر من ألف واربعمئة عام، وهذا يعني أن هذه الفوضى الدينية يجب أن تنتهي، وسكت الشيخ بن ناصر للحظات، ثم زفر بضيق، ولخص رأيه فيما يجب أن يكون قائلا بصرامة وحزم:

"في الغد يجب أن نفرز الشياطين والملائكة في القبيلة، لأن شيطانا واحدا بوسعه أن يفسد عددا كبيرا من الناس، لقد كنت انتظر هذه الإشارة منذ زمن"

قلت بشيء من الخوف:

"ماذا عن الزيود القادمين من الشمال؟"

"سوف نسبقهم إلى توحيد صفوفنا، ثم نقاتلهم أو نفاوضهم"

وسأله نصر بقلق:

"والمخطوط؟"

"سوف نسلم لهم نسخة منه"

وسأل غالب بعجب:

"ماذا عن الفتاتين؟"

"لو هربت ألف فتاة، لن يهتم الزعماء الفاسدون سوى بالمخطوط، لن يخلطوا الأوراق، سيأتون مطالبين بهذه الأوراق البالية فقط، لكني سأنقلب عليهم واتبع الرب يسوع"

نفض الرجل المسن صمته واقترب من الشيخ القبلي ببطء، وقال مشيرا بحركة حادة من يده:

"ماذا تريد أن تثبت يا بني؟ دعنا نسلم المخطوط ونتقي الشر ونعود إلى عائلاتنا بسلام، لا نريد المتاعب"

غضب الشيخ بن ناصر الأفدع وقال بصوت حاد:

"كان بوسعكم أن تعودوا إلى دياركم قبل أن تعرجوا على بلادي وتورطوني في هذا الأمر، أمّا الآن فيجب أن نتقدم ونفعل الصواب دون خوف، أريد أن أحمي بلادي وقومي وأوحدهم على كلمة الله"

وأضاف بحنق:

"أعرف أنكم لم تتوقعوا ما سأقوم به من انقلاب على الديانة القديمة، بل أن جميعكم سيعجب كيف بوسع مخطوط عتيق ـ قد يكون زائفا ـ أن يحولني بسهولة"

قلت بصراحة:

"نعم، دار هذا في ذهني رغم أني لست معترضا على ما تريد أن تفعله"

سدد إلى الرجل المسن نظرة ثاقبة متفحصة ورد بمثابرة:

"إن كنتم تريدون حقا أن تعرفوا السبب؟ فاتبعوني، لاسيما العم هادي سريع الذي قدم لي المعروف القديم، وينصحني بالاستسلام للأوغاد"

وتبعناه إلى منزل طيني صغير في القرية، بالقرب منه لاح بضع رجال مسلحين، وهناك في الداخل وجدنا زنزانة حديدية يقبع خلفها عشرة رجال ملتحون، حين رأونا نهضوا متحفزين للمواجهة، ثم ما لبثوا أن شتموا الشيخ وطلبوا منه بتغطرس أن يطلق سراحهم أو سينال عقاب الله، وسأل الرجل المسن قائلا بتوتر:

"ماذا فعلوا؟"

رد الشيخ بن ناصر قائلا بانفعال:

"طبقوا حد الرجم على امرأة متزوجة قيل إنها ارتكبت الزنا، وهم في الحقيقة كانوا يترددون عليها ليلا يريدون منها أن تسلمهم نفسها لهم، وحين امتنعت تحولوا إلى قضاة وشهود، فحاكموها ورجموها"

قلت بامتعاض:

"هذا يشبه ما كانت تمارسه محاكم التفتيش المسيحية في القرون الوسطى"

"هذا هو الإسلام الذي يريدون أن يفرضوه على بلادي وقومي، وإن شئتم أن تقفوا مؤازرين لديانة قُتم، فالخيار الوحيد هو أن أسلمكم والمخطوط ليحاكموكم ويقتلوكم، ومن ثم تصبحوا مشوهين في تاريخهم مثل مسيلمة وعبهلة وسجاح وغيرهم من الأشخاص الذين قالوا لهم لا"

سالت الدموع من عيني سفانة وهند، وقفزت الأولى وبصقت في وجوه الملتحين، فأمسكها نصر طالبا منها الهدوء، وأطلق أولئك المساجين حشرجة متوحشة من صدورهم، وتمتموا بالتسبيح والاستغفار، وهم ينظرون إلى المرأتين بغضب وشهوانية في آنٍ.

قال زبن الله مخاطبا الشيخ باحترام:

"أليس من الحكمة أن يسلموا للمحكمة حتى ينالوا العقوبة؟"

ضحك الشيخ قائلا باستياء:

"لقد تمت تبرئتهم في المحكمة رغم أن أهالي القرية شهدوا ضدهم، فسجنتهم حتى لا يفتعلوا جريمة أخرى، وهناك الآلاف غيرهم في الجوف، ولن يطول الوقت حتى يخرجوا عن السيطرة، وآن الأوان لإيقاف هذا العبث"

سكتنا محتارين، وهمس الشيخ بن ناصر في أذن مرافقه شيئا ما، ثم غادر المكان مسرعا، فتبعناه عائدين إلى الخيمة. وهناك كانت المأدبة موضوعة على الأرض، وهي وجبات محلية يغلب عليها المنتجات الحيوانية والنباتية كاللحم والحليب وعصيد الذرة والأرز والخبز.

وبعد أن أكلنا رأينا سبع سيارات مكشوفة خارج الخيمة، وعشرات الرجال المسلحين بدوا واقفين منتظرين لنا في حالة تأهب قصوى،

ولم نعرف الغرض من وجودهم حتى طلب الزعيم من نصـــر أن يذهب معهم، وهو بدوره نظر إلى فتاته بعشـم، وطلب منها أن تظل في انتظاره لأنه سيعود قريبا، ثم نظر نحوي، فأرتفع صوت الشيخ حاسما الأمر قائلا:

"خذ صـــاحبك معك، دعا الفتاتين هنا، لأن المهمة لا تحتاج إلى الفتيات"

وصـعدنا إلى مقدمة سـيارة، وأنا ممسـك بالمخطوط في يدي وسـط قماشـــه الأصـــلي، وســـرنا بعيدا عن القرية متوغلين في باطن الصـحراء، وأقبل الليل ونحن نسـير، ثم ما لبثنا أن دخلنا في مدينة صـــحراويـة، وتوقفنـا أمـام منزل عريض مصـــنوع من الطين المحروق، وترجلنا، واقترب نصر من رجل بدوي يدعى حسين هو المسؤول عن الموكب وقال يخاطبه:

"أين نحن يا حسين؟"

رد الرجل بصوت جامد خال من الاهتمام:

"في صرواح أمام منزل عُمَر الورَّاق"

ودخلنا الثلاثة، أنا ونصر وحسين، فيما بقي المسلحون في الخارج يحرســون المكان، تقدمنا من رجل يجلس على مكتب عتيق بين كم هائل من الورق المهمل والســـجلات والوثائق العتيقة والجديدة، وأمامه أنواع عديدة من الأحبار والأقلام وريشـــات الكتابة حتى الأحبار القديمة، وهو ناسخ يقوم بالتزوير، وصنع نسخ متطابقة من الوثائق القديمة أو الجديدة، حيث يملك مهارة تقليد الخطوط، ويكتب على الجلود وأوراق البردي، ويعرف كثير من الطرق التي تجعل من أوراق البردي تبدو عتيقة وكأنها كتبت قبل قرون كثيرة، رغم أنه ينســـخها خلال يوم أو أيام. بدا الورّاق نحيلا منهمكا في العمل يقوم بنسـخ كتاب مخطوط، وعجينة القات محشـوة في فمه المفتوح الذي لا يهدأ عن الحركة، وهنا اقترب حســين منه، ووضــع أمامه

رزمـة كبيرة من النقود فئـة الألف، وتقـدر بمئتين ألف ريال، فقـال بعجب:

"ما هذا؟"

رد حسين بهدوء:

"مقابل نسخة مطابقة لهذا المخطوط"

وقدم له المخطوط، فتناوله ملقيا عليه نظرة عامة فاحصـــة، ثم قال باستغراب:

"هذا أقدم مخطوط أصادفه، كما ترى الحروف بلا تنقيط، لكن المبلغ جيد"

قلت بهدوء:

"هو كذلك"

رمقنا بنظرة عابرة وقال:

"إلى متى تريدون هذه النسخة؟"

رد حسين دون تردد:

"نريدها فورا، نحن في انتظارك"

وقدم له رزمة إضافية تساوي مئة ألف ريال، فأخذها قائلا بعجب:

"أنتم كرماء جدا، وتريدون أن أقوم بمعجزة.. ســـأفعل، اجلبوا لي القات الفاخر من السوق"

خرج حســـين، وبعث أحدهم إلى الســـوق، فجلبوا لـه قات عالي الجودة، لكنه كان قد توقف عن الكتابة محتجا، ورفض أن يفصـــح لي ونصر عما أصابه، وما إن رأى حسين حتى قال بغيظ:

"أتريدون أن أقتل بسبب هذا المخطوط الرهيب؟ إن الزيود يحومون بسيارتهم ورجالهم حول المدينة، وهم بين لحظة وأخرى سيهاجمون المنزل دون شك"

رد حسين ببرود:

"تابع النسخ، إن منزلك محروس بسبعين مسلحا من رجال قبيلتنا"

"هذا لا يكفي، ما هي القبيلة التي تنتمون لها"

"إننا رجال الشيخ محمد بن ناصر الأفدع"

ابتسم الناسخ عمر الورّاق وأجاب باطمئنان:

"سأنسخ الآن، هذا الرجل قوي جدا، وهو كبير مشايخ الجوف"

دار في سري أن هذا الناسخ الغريب الأحوال لا يعرف أن هذا الشيخ يعيش في قرية صغيرة، ويملك منزلا أصغر حجما من هذا المنزل الذي يملكه، فضلا أن المسلحين الذين يتبعون الشيخ هم هؤلاء الرجال السبعين الذين حشدهم لمرافقتنا وحراستنا هذه الليلة.

وبقينا داخل تلك الغرفة المليئة بالأوراق والغبار، وفي تلك الأثناء، راقبت هذا الناسخ النحيل وهو يغمس ريشة نسر في محلول أسود مستخرج من سخام سراج قديم يعمل بالكيروسين، ويكتب بعناية مدققا النظر في الكلمات والحروف، وحين تعبت جلست على كرسي متهالك، ونمت جالسا. أما نصر وحسين فقد بقيا ساهرين منتظرين الناسخ حتى ينتهي من عمله، ولما أفقت في الصباح كان الثلاثة يستعرضون النسخة المكتوبة على أبخرة نار مشتعلة في موقد قديم، ثم طووها ووضعوها في يقطينة جافة بدت مهجورة مسكونة بالغبار، وجعل الناسخ يحرك كل ورقة على حدة داخل اليقطينة المهملة، واستمروا طويلا يكررون هذه العملية حتى شعرت بالملل.

وما إن فرغ الناسخ من تحريك جميع الأوراق داخل اليقطينة حتى قام بتجميعها وتلصيقها بواسطة خيط مماثل رفيع يكسوه الغبار، كما انتزع بعض خصلات الشعر من المخطوط الأصلي القديم وألصقها بالجديد، أما الدم فلم يعد له أثر على النسخة القديمة كما قال، ثم رد ظهره المنهوك زافرا بارتياح، وحين رآني مسترخيا على المقعد دعاني بهزة من رأسه، فأقبلت حتى وقفت أمام طاولة مكتبه، فأشار إلى نسختين موضوعتين أمامه قائلا:

"أخبرنا أيها الكسول، أيهما النسخة الأصلية وأيهما المنسوخة؟"

قلبت النسختين مدققا النظر، ولم أجد فرقا، ثم وجهت بصري مدققا في الخيط الرفيع وقلت:

"هذه النسخة المطابقة على ما أظن لأن الخيط يبدو جديدا قليلا"

ضحك وقال بنبرات حادة:

"الآن نضع النسخة الأصلية في قماشها، وهذه المطابقة سنطويها في قماش مختلف اللون، أما الخيط فما يلبث أن يكسوه الغبار ويبهت لونه قريبا"

أخذنا النسختين وغادرنا ذلك المنزل دون متاعب. وسرنا نحو مدينة الحزم دون أن ندرك ما يخطط له حسين الذي ظل يردد أنه يتبع تعليمات الشيخ بن ناصر، ولم يبح لنا بشيء نحن قادمون إليه، وهناك تسللنا ليلا إلى منزل شبه مهجور، وقابلنا داخله رجلا ملتحٍ يعيش في عزلة، وعلى الجدار مكتبة خشبية تحوي كتب إسلامية في معظمها، وكان القرآن مفتوحا على الطاولة المخصصة للقراءة. كان الرجل الأجنبي يبدو أمريكي الجنسية يلبس ثوبا فضفاضا وسروالا قصيرا وكوفية بيضاء، وذلك هو الزي السلفي الذي رأيناه على أجساد الرجال السلفيين الذين هاجمونا عند المفرق. وحين صافحناه قال بلهجة عربية مكسرة قليلا:

"السلام عليكم، أنا سليمان المسلماني"

رد نصر بحذر:

"أهلا. تشرفت"

"اطمئنوا لا أحد يعرف شيئا، هاتوا المخطوط وخذوا أوراقكم موقعة"

أشار حسين إلى المخطوط الذي في يدي قائلا بجدية:

"اعطه المخطوط، لدينا هنا شيك بنصف مليون دولار، وكل شخص منكم سيحصل على نصيبه من المال"

هز نصر رأسه رافضا قائلا باستغراب:

"لن أسلمه لشخص لا أعرفه، كان من الضروري أن أعرف بعض التفاصيل قبل أن نأتي إلى هنا"

"هذه تعليمات الشيخ بن ناصر، وأنا لا أفعل شيئا دون توجيهات منه"

قلت له بثقة:

"نحن نثق بك بالتأكيد، لكن الأمر يحتاج إلى نقاش"

رد نصر بارتياب:

"لم يخبرني الشيخ بهذا الشأن ولا أستطيع أن أجازف..."

قاطعنا ذلك السلفي الأمريكي قائلا:

"انظر، نحن نفعل هذا بالسر، كما ترى. أنا رجل مسلم سلفي، لذا يجب أن تثقوا بي"

ضحكت وقلت:

"لهذا السبب أيضا لا نثق بك"

وأجاب نصر بتهكم:

"هذا غريب حقا! نحن سنعتنق المسيحية بسبب هذا المخطوط، وأنت تتقمص دور المسلم لكي تنتزع منّا المخطوط ذاته..."

"اعطه المخطوط أيها الحمار"

قالها حسين وسدد ضربة من الخلف بعقب البندقية إلى رأس نصر، فسقط على الأرض والمخطوط في يده لم يتخل عنه، وانحنى الأول ليأخذه ويسلمه للرجل المتقمص دور المسلم، فطلبت منه ألا يلمس المخطوط، فرفع البندقية ثانية ليضربني بعقبها كما فعل بنصر، لكني قابلته بلكمة قوية ألقته أرضا، ولم ينهض إثرها. وقفز الرجل السلفي إلى درج مكتبه وأخرج مسدسا، فسددت له ركلة خلفية جعلته يرقد خلف مكتبه. وساعدت صديقي على النهوض، وخرجنا إلى السيارة الواقفة جوار المنزل، صعدنا إلى مقدمتها بصعوبة، وقلت للسائق:

"انطلق سريعا، أعدنا إلى القبيلة"

رد الرجل بعجب:

"ماذا جرى لكم؟"

"لقد خان حسين الشيخ، ويريد أن يسلمنا للسلفيين المحليين، خذنا إلى الرجال"

فجأة سمعنا أصوات طلقات تتردد في المكان حيث كان الرجال ينتظرون، فتوقف السائق ومط رأسه هنا وهناك بقلق واضح، وقال بتوتر:

" نعم، هناك خيانة"

وأضاف بعد لحظة وجيزة:

"أعرف طريقا يقودنا بعيدا عن الرصاص، وهو طريق العار"

"هل هذا اسمه حقا؟"

"نعم، إنه طريق باعة الخضار، ولا أحد من سكان الجوف يسلك هذا الطريق"

وانتحى شمالا عبر طريق صغير على شكل انعطافات كثيرة، وهو درب ضيق قادنا إلى مزارع الخضروات، ولا يسلك هذا الطريق سوى باعة الخضار في أسواق الجوف، ومعظم رجال القبائل يحتقرون مهن البيع والمتاجرة بالبضائع أو الخضروات، لذا كان السائق واثقا أننا لن نواجه أي متاعب، وعند وصولنا إلى مزرعة خضار واسعة، تعثرنا ببعض الباعة الذي ليسوا من أهالي المنطقة في الغالب، بل بدوا من تعز وريمة وإب، وقد تعجبوا حين رأوا السائق البدوي، الذي طلب مني على استحياء أن أسأل الباعة القادمين لابتياع الخضروات عن الدرب الذي يقودنا إلى صرواح، فضحكوا وأشاروا لنا إلى طريق جانبي، ولعلهم ضحكوا حين لمحوا ذلك الخجل الذي يطل على ملامح السائق البدوي الذي اضطر أن يسلك درب العار هذا، وكنت غاضبا بسبب هذا السلوك البغيض، لكن نصر نصحني ألا أكون مثاليا هنا لأن هذا سوف يجعلني منقبضا على الدوام، أو قد يودي بصحتي أو بعقلي للانهيار، وأجاب السائق بأسف:

"ماذا نفعل؟ لقد تربينا على احتقار المهن، وعلينا السير في هذا الدرب أكثر من مرة حتى نعتاد عليه"

قلت بانفعال:

"ما الذي يجبرك على السير في طريق تحتقره يا أخي؟"

"غايتي هي الحرص على سلامتكم وحسب، لأن كل الطرق كانت مسدودة"

صاح نصر مرددا بعجب:

"طريق الباعة هو طريق النجاة الوحيد في الجوف! هل هو الوحيد حقا؟!"

رد السائق محركا رأسه باستسلام:

"هذا صـــحيح، لا أذكر أن أحدا من الباعة ســقط قتيلا قبل عقد من الزمن، بل كان من العار أن يقوم بدوي بإطلاق النار على بائع أو تاجر، أو حتى إطلاق الرصاص في الهواء داخل السوق"

سألت بارتباك:

"والآن ماذا حدث؟ هل يطلقون النار على الباعة؟"

"لقد تغيرت الأمور بعد انتشـــار الجماعات الدينية، أصـــبح اقتتال الناس في الســـوق أمرا طبيعيا، ويمكن أن يموت بعض الباعة من الطلقات العشوائية"

قال نصر الذي لم تفقده الضربة تركيزه:

"لذا ابتكر الباعة لهم طريقا آمنا"

قلت بعشم:

"ليت رفاقنا يعبرون هذا الطريق، لا ريب أنهم الآن يواجهون معركة ضـــارية مع الخصـــوم، لكنهم ســـيخســـرون حياتهم بســـبب خشيتهم من العار"

"لن يعبروا هذا الطريق بأي حال حتى لو يقتلوا جميعا"

قال نصر بشيء من العتب:

"من العار أن نسير آمنين ولا نطلب لهم النجدة على الأقل"

رد السائق بتلبك:

"خذ الهاتف من جيبي، وأخبر حليفنا الشـــيخ بن غرامة أننا على طريق صــرواح، وليس طريق الباعة.. وأن أصــحابنا يقاتلون أمام مزارع الخضار، فأنا لا أستطيع أن أكلمه"

أخذ نصــر الهاتف وبحث عن رقم الشـيخ بن غرامة، واتصــل به، وأخبره أنه عابر سـبيل، ورأى جماعة يقتتلون، وطلب منه شـخص جريح أن يدق على هذا الرقم ليخبره فقط بما يجري، وأن المعتدين ينتشــرون حول مزارع الخضــروات، والجماعة المغدور بها كانوا ينتظرون آمنين في الجانب الآخر من الطريق. ولا شك أن المعتدى عليهم حلفاء لكم يا بن غرامة، رغم أن الجريح رفض أن يفصـــح عن ذلك أو يخبرني عن القبيلة التي ينتمي إليها للحفاظ على الكرامة وماء الوجه. وأقفل نصر المكالمة في الحال.

وصاح السائق قائلا بجذل:

"أحسنت صنعا، أنت ماكر في الحديث، وقد حفظت ماء وجوهنا حقا"

لم يرد نصر. وتوقفنا عن الحديث حتى وصلنا إلى صرواح، وهناك عبرنا بالمصادفة قرب منزل الناسخ، وفجأة كشفت أضواء سيارتنا دورية شــرطة وســيارة اســعاف واقفتين أمام المنزل، وإشــارات أضــواء الطوارئ في أعلاهما تومض دون توقف، ولم يكن المكان آمنا، رغم ذلك نزل الســائق وســأل عما يجري، فأخبروه أن رجال الشيخ بن ناصر الأفدع اقتحموا بيت الناسخ وقتلوه، وهربوا، فصاح الغبي نافيا أن يكون رجال الشيخ هم الذين ارتكبوا هذا الفعل القبيح، لأنه كان حاضـرا، فقفز الجنود وأمسـكوه، ولم يسـتطع الإفلات من أيديهم، فأخذت الســـيارة ومضـــيت بهدوء مبتعدا عن المكان. ولم أجرؤ أن أسلك طريق الصـحراء حتى لا أتوه. لذا بقيت أحوم حول صـرواح عاجزا عن المجازفة بالوقوف أمام الناس حتى شـع ضـوء الصــباح، ثم فجأة لمحت فتاة تقود ســيارة مكشــوفة مثل ســيارتي،

رأيتها تســـير في خط فرعي، فتبعتها فاتحا إشـــارة الضـــوء، ثم ضـــغطت على البوق بخفة، فانتحت الفتاة جانبا، وعند ذلك اقتربت منها وقلت بعد أن ألقيت التحية:

"العفو، يبدو أنني تائه عن الطريق الصـحيح، هل تعرفين شـخصـا بوسعه أن يقودني في الصحراء؟"

ردت باهتمام:

"أين تريد أن تذهب؟"

"قبيلة الشيخ بن ناصر الأفدع"

ردت بانقباض:

"هناك رجال من قبيلة الأفدع في مستشفى الحزم أصيبوا البارحة، وسنجد هناك دليلا، اتبعاني"

واستدارت، وانطلقت صوب المدينة، وسرت خلفها خائفا، إذ لم يعد هناك أي أمان لنا، فالمخطوطان الأصـلي والنسـخة المطابقة مازالا في حوزتنا بالسيارة، ولا ريب أنهم يبحثون عنّا، وقال نصر بتهكم:

"لماذا اخترت أن تذهب خلفها لتسألها؟"

"كما ترى لقد جربنا رفقة الرجال فغدروا بنا"

"عيناها الجميلتان خلف النقاب سوف تجعلنا نخسر المخطوطين"

"دعني أعتذر لها وانصرف"

اقتربت من الفتاة، وشغلت إشارة الضوء فانتبهت وتوقفت، فاقتربت منها قائلا بخجل:

"لا أريد أن أزعجك، فأنا أستطيع أن أجد المستشفى العام، لذا بوسعك أن تعودي إن شئت"

نظرت إليّ بتمحيص قبل أن تقول:

"تبدو خائفا يا هذا، لا تخش شيئا، أنا بنت الشيخ بن غرامة، ورجال أبي يسيطرون الآن على المديرية بعد حادثة الأمس"

"لقد تكلمنا مع والدك البارحة على الهاتف، وأبلغناه عن الحادث، نحن ضيفا الشيخ بن ناصر"

صاحت بحماس:

"نحن نبحث عنكما، لأن الشيخ كلف أبي بمهمة حفظ الأمن بالمديرية والحفاظ على سلامة الضيفين، هيا بنا"

قلت بانفعال:

"مهلا من فضلك، دعينا نفكر، لم نعد نثق بأحد"

"سأدع الشيخ يكلمكما"

وأخرجت هاتف نوكيا قديم، ودقت على أزراره، وتوقعنا أن نكلم والدها، سمعناها تقول بفرح إن الضيفين لم يصابا بأي أذى، ثم قدمت الهاتف إليّ، فمد نصر يده وأخذ الجهاز وتكلم، كان ذلك هو الشيخ محمد بن ناصر الأفدع الذي سأل عن صحتنا، ثم سأل عن المخطوطين، ولما وجد أن كل شيء على ما يرام، طلب منا أن نتبع تعليمات الفتاة ووالدها حتى يصل إلينا، فسرنا خلف الفتاة حتى دخلنا منزل الشيخ بن غرامة.

الانقلاب الكبير

كان الحادث الذي وقع قرب مزارع الخضـروات مريعا، فقد سـقط عشرون قتيلا من قبيلة الأفدع، وعشرة من الزيود الذي ينتمون إلى قبـائـل كثيرة، إذ أن انتمـاءهم كـان عرقيـا ومـذهبيـا، لـذا يـأخـذون التعليمات من جهات خارج القبيلة، وليس لهم قيادة واضـــحة، وما زاد الطين بلــة كمــا يقولون، أنهم غـدوا متحــالفين مع الإخوان المســـلمين والســـلفيين، الذين كانوا من قبل أعدائهم اللدودين، لكن بطريقة ما، اتحدوا هذه المرّة، وأمســوا قوة لا يســتهان بها. وهاهم يضـربون بلا خوف أهم قبيلة بالمحافظة، وأفصـح الشـيخ بن ناصـر أن المعركـة القـادمـة ســـتكون بين القيم الـدينيـة المســـتوردة وبين الأعراف الحميدة.

حين وصـــل الشـــيخ بعث النداء إلى جميع قبائل محافظة الجوف، فاجتمعوا من كل حدب وصـــوب، وغصـــت مدينة الحزم بآلاف السـيارات القادمة من الأرياف والصـحاري البعيدة، ودخل المدينة عشـرات الآلاف من رجال القبائل، وفي صـالة الاجتماعات الكبرى بالحزم اجتمع ألف زعيم محلي، وطلب الشـيخ أن يحضـروا طشـت التحكيم القبلي، ثم أخرج خنجره وجرح باطن يده، ونثر قطرات من الدم في الطشـــت العريض، وهو إجراء غير اعتيادي لم يلجأ إليه أحد من قبل، ولا يحدث إلا في ظروف طارئة واستثنائية تؤثر على حياة الأهالي ومستقبلهم، أو عندما يجد الزعيم الكبير نفسه أمام أمر عظيم يود مشـــاركة الناس به، كما يلجأ إلى الطشـــت لتجديد العهد والاتفاق أو لخلق اتفاق جديد يصـــب في مصـــلحة المجتمع القبلي، وأي شـخص يريد أن يشـذ عن هذا التصـرف فإنه يضـع نفسـه في الجانب المعادي للقبيلة، ويتحتم عليه أن يغادر أو يتلق الضـــربات

الموجعة من الرجال المتحدين. وســـارع الزعماء الآخرون وحذوا حذو الشـــيخ الكبير، ونثروا دمائهم في الطشـــت، ولم يتخلف أحدٌ منهم. إثر ذلك، انتصب الشيخ بن ناصر أمام الجميع وقال بصوت عالٍ:

"هل تريدون الصدق والصراحة ولو كانت جارحة ومؤلمة؟"

صاحوا جميعا باحترام:

"بلى، نريدها مهما كانت"

"الزيود والسلفيون والإخوان هم العدو الأول للمجتمع القبلي، ومن أراد أن يخالفنا الرأي أو يشذ عن تعاليمنا فهذه فرصته الوحيدة، فليتحدث الآن"

صاحوا قائلين بقلق:

"وكيف ذلك يا شيخنا الكبير؟"

"إنهم يتغلغلون في بلادنا كالفئران، ويفسدون أبناءنا وبناتنا بأفكارهم المتطرفة، ولن يمر وقت طويل حتى تنتهي أعرافنا، ويقتل الجار جاره ويطعن الشقيق شقيقه"

"هذا خطير جدا، أرشدنا.. ماذا يريد هؤلاء المعتوهون؟"

صاح الشيخ بن ناصر الأفدع بقهر:

"قتلوا عشرين رجلا من رجالي بسبب مخطوط بغيض جلبه ضيفان أتيا من جبل السر، وطاردهم الزيود والسلفيون لاستعادته، لكنه وقع في أيدينا وتورطنا بالحصول عليه دون قصد أو سوء نية، وهؤلاء الرجال الســيئون ســيســتمرون في قتالنا، لذا توجب علينا الاتحاد لمواجهتهم"

ردوا بفضول عارم:

"ماذا يوجد في هذا المخطوط؟"

"هل تقبلوا بحكمي أيا كان؟"

"سنقبل بالتأكيد، لقد جمعنا الدماء في الطشت، ولا أحد يجرؤ أن يخالف؟"

أشار الشيخ لنصر أن يتقدم إلى أمام الميكرفون، ويقرأ المخطوط العتيق، كان الحراس منتشرين في الصالة والمديرية، وكنت مرعوبا أن يقوم شخص ما باغتيال صديقي نصر أو الشيخ بن ناصر، لأن تلك كانت من أساليب أولئك المتطرفين لإسكات خصومهم، حتى نصر بدا قلقا يتلفت في أرجاء الصالة، فهمس الشيخ في أذنه شيئا، وعرفت أنه يطلب منه الهدوء والاطمئنان، لأن كل شيء منظم ومرتب كما يجب، وفعلا سكن حال نصر، وقرأ المخطوط بصوت جهير، حتى أنهاه. وساد ذهول عارم ووجوم غير مسبوق بين الزعماء، ثم انفجروا يتكلمون. فأوقفهم الشيخ بيده وقال:

"اسمعوا، كل ما جاء في هذا المخطوط صحيح تماما، وهذا يعني أننا خدعنا بهذا الدين الباطل، ليس هذا وحسب، بل إن بني أمية وبني هاشم مازالوا يأكلون خيراتنا ويحتلون بلادنا باسم هذا الدين حتى هذه اللحظة"

كان معظمهم متوترين غاضبين وكأنهم يكتشفون هذا الخداع لأول مرة، فصاحوا بامتعاض:

"ماذا نفعل حتى نتخلص من هذا الشر المحض؟ نريد الخلاص"

رد الشيخ بشيء من اليقين:

"لا أريد أن أخدعكم، لأن ما يذاع في العلن هو شر محض، لكن ادخلوا غرفتي الواحد تلو الآخر لأخبركم بما تفعلون! ومن أراد ألا يتبعني فليس مجبرا أن يفعل، ومن اليوم ادعوني بالمعلم، لأنكم لم

تعودوا بحاجة إلى زعيم، فأنا أعرف من سيحكمكم أجدر مني"

وظل المعلم محمد بن ناصر الأفدع يرشدهم إلى الخلاص واحدا تلو الآخر، ولم يعتب على زعماء رفضوا أن يسمعوا ويتبعوا طريقته للخلاص، وقال دعوهم سيتذكرون ما قلت لهم حين تعم فوضى الإسلاميين الجدد في أرضهم وقراهم، سيأتون متأخرين وهذا أفضل من ألا يأتون! وهم قليلون الذين رفضوا صوت الحق والخلاص، سيرون كيف يعم السلام في المناطق التي تنتشر فيها محبة الله، بدلا عن العبودية، فنحن لسنا عبيد الله، بل أبناء الرب. وشتان بين الابن والعبد، شتان بين رباط المحبة ورباط العبودية. فالابن يحب والده، والعبد يخاف سيده. وهمس في آذانهم بما يعملوا في مناطقهم حين يعودون، ليقيموا بيوت الرب بهدوء ودون قسوة أو إرغام، وليخبروا المسنات والمسنين والذين يجهلون أمر المخطوط أن المخلص أتى إلى الأرض، ويريدها أن تكون مقدسة خالصة للرب وليس للشيطان. وأوصاهم أن يضعوا أسلحتهم تحت أسرتهم في صناديق مقفلة، ويسيروا مسالمين بلا خناجر أو حديد، ويبتعدوا عن الخطيئة ما استطاعوا، وإن أخطأوا فليعترفوا بتواضع القديسين. وفيما كان المعلم يتلمذ الزعماء القبليين، أقبل الزيود والسلفيون والإخوان المسلمون يهاجمون أطراف المحافظة بأعداد كبيرة، فتوجهنا لحربهم وشتتناهم في كل الاتجاهات. ثم جاء وفد كبير منهم طالبين لقاء المعلم، ومكثوا منتظرين في دار الضيافة حتى فرغ من دروسه.

وحين قابلنا ذلك الوفد تقدموا بثقة وتعالٍ، ولاح فيهم رجل دين ذو لحية كثة، وهو مفتي الديار الزيدية، وبدأ بالصلاة والسلام على نبيهم ثُثم (محمد)، وقال إن الدين عند الله الإسلام، وأن هناك وثيقة مشبوهة عثر عليها فردان ضالان من الشباب، وهما هاربان متواريان في أرض قبيلة الأفدع، وهذا عدوان صارخ على الزيود

والمسلمين بشكل عام، ثم إنه نما إلى قائد الزيود أن أهالي الجوف شرعوا يبتعدون عن الدين، ويبنون الكنائس بدلا عن المساجد، وهذا بحد ذاته ارتداد خطير يجازى بالموت في التشريع الإسلامي.. وأخذ يرغي ونحن صامتون نتميز غيظا، لكن المعلم أشار لنا أن نسكت، ونسمع ما يقول، وطلب الرجل تسليم الوثيقة المهرطقة، والشابين اللذين أخذاها. وظل كذلك حتى شرغ بحروفه الغليظة، وأشار لنا حينئذٍ أن نرد على ادعائه.

فابتدأ المعلم بصلاة وجيزة، ثم قال إن الوثيقة لم تكن مملوكة لأحد، ولم تنتزع من أملاك شخص ما، بل عثر عليها الشابان على رأس جبل من جبال الله، مختبئة تنتظر من ينتشلها من سباتها الطويل، لذا فهي ليست ملكا لأحد، والخوف منها ليس مبررا، وقد أراد الله أن تظهر وتفضح جشع قريش الذين زرعوا نبيا محتالا لكي يحولوا طرق التجارة إلى مكة، ويجعلوها مجمعا عربيا للحجيج. وبذلك زرعوا الشر في كل مكان، وتركوا أتباعهم وعبيدهم يصولون ويجولون في كل البلدان، يدمرون ويقتلون ويسلبون دون وجه حق، حتى نشروا الإسلام بالقوة، ثم زجروا الناس عن الارتداد، واجازوا قتلهم إن ارتدوا. وهذا ليس دينا مقدسا فيه خير الإنسان، بل هو اتفاقا أبرم بين أشخاص جشعين لديهم مطامع بشرية خالصة، ومن المؤكد أن ما كان خديعة لن يظل كذلك، ويكفي هذه البلاد ما جرى لها من حروب وويلات. أما المساجد فستظل في المناطق التي يوجد فيها مسلم واحد أو مسلمة، وإذا لم يوجد فمن الطبيعي أن تستبدل بكنائس، لأنها بيوت الرب الحقيقية. وأما الوثيقة فسوف تسلم لهم منها نسخة مطابقة للأصل حتى يمعنوا النظر إلى ما جاء فيها من أمور بشعة وغير عادلة. وأما الشابان اللذان عثرا عليها فلا أحد بمستطاعه أن يأخذهما لأنهما يعملان في خدمة الرب، وسيعملان على تأسيس حكومة مدنية تحافظ على الدنيا والدين.

وحين سمعوا ذلك الكلام الرقيق الصلب في الوقت عينه، انصرفوا غاضـــبين متوعدين من يخالفهم بالهلاك. لكن رجال الجوف كانوا متكتلين، وطلبوا من الأشخاص الذين ينتمون عرقيا ومذهبيا للزيود والســـلفيين أو غيرهم أن يتوقفوا عن أنشـــطتهم المعادية للقبيلة أو يخرجوا مطرودين.

وفي طريق العودة إلى قرية بيت الأفدع، شردت متعجبا مما جرى، لم يكن يخطر في بالنا أننا صرنا مسيحيين، بهذه السهولة المفرطة، وحين رآني المعلم محتارا اقترب مني وسألني بهدوء:

"أراك مشوشا كما لو كنت محتارا"

قلت بصدق:

"هل كنت مسيحيا من قبل أن نلقاك؟"

"كلا، لكني مذ شعرت بخطر الإسلاميين أخذت أدعم خفية رابطة المسيحيين اليمنيين، وبقيت انتظر إشارة ما من الرب لأعلن إيماني وأبشر بالمسيح"

قلت بعجب:

"وكيف استطعت أن تقنع الزعماء المحليين باعتناق المسيحية؟"

"غالبيتهم كانوا يشعرون أيضا بخطر الجماعات المتطرفة، كما أني كنت أدع أكثر الأشخاص معرفة وحصافة ليكونوا زعماء على مناطقهم"

"أقصد كيف فعلت ذلك بهذه السرعة؟"

"بواسطة التحكيم القبلي، وطشت الدم، وقد انفردت بكل زعيم على حدة، وشرحت لهم جلية الأمر، راجيا أن يحددوا موقفهم بكل وضوح، وغالبيتهم وافقوا أن يتتلمذوا ويتعمدوا كمسيحيين"

"هذا يعني أن للأعراف تأثير قوي على السكان المحليين، أليس كذلك؟"

"بالطبع، فهي قوانين القبيلة ونواميسها القديمة، فالأعراف مازالت راسخة رغم محاولة الأوغاد زعزعة إيماننا بأهميتها "

"نعم، هذا واضح، إننا محظوظون"

"بل مباركون"

وجعل المعلم يقول إن الرب يقود الناس الطيبين إلى فعل أشياء صالحة دون أن يشعروا، لأنه يحبهم، والله بالتأكيد هو الذي قادنا إلى هذه الصحاري القاحلة، بواسطة الرجل المسن هادي سريع الذي قدّم معروفا، وابتغى عوضا عنه الحماية له ورفاقه، وكان من الأحرى أن يطلب الخلاص لنفسه، وهو الآن محمي وليس مُخَلَّصا مثل رفاقه، والغريب أن هذا الشيخ الصامت لم يعترف بالمسيح كما فعلنا، كما لم يذكر محمدا أمامنا أو يصلي في المسجد، ومع ذلك ظل يرافقنا، ويحدثنا بين حين وآخر عن قلقه على أهله، ونحن بدورنا لم نحب أن نلح عليه بطلب الخلاص، بل رأينا أن ذلك هو جوهر الحياة المسيحية القائمة على الرفقة والمحبة، ومن يعلم لعل هذا الشيخ المسن كان أكثرنا صلاة وإخلاصا للرب رغم أنه لم يفصح في لحظة عن وازعه الديني، لكن بوسعك أن تشعر بصلاته الخفية المتألمة، وأول عمل كلفنا به حال عودتنا إلى القرية هي أن نقرر مصير المسجد، هل نزيله كاملا أم نبقيه ونبني جواره كنيسة أو نزيل جزءا منه لاسيما الأجزاء الإسلامية، ونضع بدلا عنها معالم الكنيسة؟ وبعد تفكير طويل وجدنا أن نبقي على المسجد، ونبني بالقرب منه كنيسة، والسبب هو أن بعض كبار السن كانوا يتبرمون مما نفعل، وطلبوا أن ندع لهم شيئا من ماضيهم.

خطابي في المجمع الكنسي

استمر الرجل المسن هادي سريع يشكو من ابتعاده عن أهله حتى جعلنا جميعا نشعر بالحنين إلى أهلنا وأقاربنا، حيث انقطعت أخبارهم، وكذلك هواتفهم لم تعد ترد وكأنهم أرغموا على تغيير أرقام شرائح اتصالهم، والبعض بلا ريب قاموا بمقاطعتنا وخصامنا بسبب هجرنا الدين القديم، فالناس في الأرياف يظنون أن الدين من الأشياء التي لا يمكن تغييرها، ويمكنهم أن يخونوا نسائهم أو أوطانهم، لكنهم لا يساومون في الدين، وهذا أمر يثير النفور والاستغراب في الوقت عينه. وأثناء القراءة الكثيفة للكتاب المقدس أخذت جذوة الحب بيننا تبرد، حيث أمست هند منشغلة بالدروس في غالب الوقت، وصار نصر يشجعها على فهم الكتاب المقدس. وظلوا أكثر وقتهم في الكنيسة يتعلمون من المعلمين اللبنانيين والأقباط، أو يعلموا السكان المحليين القراءة والكتابة أو ما تعلموه من معلميهم. فيما بقيت أنا وسفانة محتارين نراقب ما يجري بحنق. كان يغيظنا أنه لم يكن في وسعنا الاندماج في ذلك الجو الروحي الخالص، كنا نحاول أن نجبر أنفسنا على الانغماس في المجتمع الكنسي، لكن الملل كان يعيدنا ثانية إلى حالة الفراغ التي كنا نعاني منها. حتى أمسيت أكره نفسي وأغبط صديقي نصر على صبره، أما هند فقد أقامت بيني وبينها حاجزا، وظلت تحثني مليا على مرافقتها إلى الدروس، قائلة إن علاقتنا ستكون أكثر قوة ومتانة حين نجتمع في حضيرة الرب يسوع، وفي البداية، عزمت على مشاطرتها هذه التجربة التي تجعلها تبدو سعيدة، وتمنيت أن أجد ذلك الدفء الذي أشعر به حين أكون قريبا منها، لكني حين مددت

يدي لأمســـك يدها ونســـير على ممر الكنيســـة نزعت يدها قائلة باضطراب:

"أتظن أن بوسعنا أن نلمس بعضنا في بيت الرب يا سام؟"

قلت بشيء من الاستياء:

"أتظنين أبانا الذي في السماوات يكره أن ألمس يدك؟"

"لا أدري، لكني لا أريد، هذا ما أشعر به هنا"

فكرت بما أجيب، لكن الكلمات ضـــاعت بســـبب ارتباكي وحزني، حتى أنقذتني رئيســـة الراهبات القبطية التي أقبلت متجهمة كعادتها، وأشارت إلى هند قائلة بحزم:

"اذهبي إلى جناح التلميذات لتلقي درسك"

ســـارت دون أن تلتفت إليّ، فيما رمقتني الأخت القبطية ياســـمين بنظرة غامضـة تحمل شيئا من التغاضـي، ولا شك أن المعلم الأكبر طلـب من المعلمين والمعلمـات المحليين والعرب أن يعـاملونـا بمـا نســـتحق من التبجيل، لأننا من أوائل المبشـــرين والمرســـلين الذين أرشـدهم الرب إلى مكان المخطوط الذي كان له الفضـل في دخول الأهالي المحليين في المســـيحية. وكانت منزلتنا تضـــاهي منزلة المعلمين العرب والمحليين، بـل وأكبر قـدرا، لكن عزوفي عن الدروس وشرودي الدائم في الكنيسة أو قرب غرف الدراسة أوحى لهم أن شـيئا من عبث الشـيطان مازال مسـيطرا على روحي، ولا ينقصـــني ســـوى أن أذهب إلى غرفة الاعتراف لأطلب الغفران، وأتطهر من حب هند ومن التلهف المســـتمر للقائها والتحدث إليها. كان الغالبية في المجمع الكنسـي يخشون أن أغوي فتاة نذرت نفسـها للرب يسـوع، لذا كانوا ينظرون إليّ بشـيء من الحذر والعتاب، ولا يجرؤون على توبيخي كمـا يفعلون حين يخطئ أحـد التلاميـذ المحليين، ولكن بعد أن كـاشـــفت المجمع الكنســـي عن خططي

للإصلاح الديني فقد تحولت نظراتهم نحوي إلى شيء من الغضب والاحتقار. حتى أنني شعرت بالضعة والذل من الجري خلف فتاة كنت أعرفها من قبل باتت تميل إلى أخذ الدروس من رفيقي وغيره من الرهبان والراهبات. وكنت أجد سفانة في الممرات تجري خلف نصر الذي لم يعد يعيرها أي انتباه، وكنت أتعزى حين أجد مغفلا آخر أو بالأصح مغفلة تشبهني في هذا الحال. وفي الحقيقة، كانت سفانة هي الفتاة التي استقامت كل خلية في جسدي تقديرا واحتراما لسمو اطلالتها البريئة والمشرقة. لكني يومئذٍ كنت قد علقت بهند، وها نحن الآن حين نتقابل مازلنا مثخنين نعاني من مرارة الإخفاق في التعلق بالوهم، ومع ذلك نقول لأنفسنا من العار أن ننهزم بسهولة، وأظن أن سفانة ساورها شعور مريح ناحيتي، إذ كنت أبدو أكثر تمردا ورومانسية، ولا أكف عن الابتسام والتفوه بالجمل الغبية التي تحبها النساء. وكنت أتأملها وتتأملني بنظرات حاسرة تشبه الاعجاب، لكننا كنا نمنع أنفسنا بدافع اللياقة والإخلاص.

مكثت ليال طويلة أفكر باغتمام في الحال الذي وصلنا إليه، ثم تقدمت بدعوة رسمية للمجمع الكنسي طالبا منهم الاجتماع، إذ كان يجوز للمعلم الأكبر أو أحد الأشخاص الذين جلبوا المخطوط أو وثيقة الوحي أن يدعو أعضاء المجمع للاجتماع لمناقشة أمر هام، ولم يسبق لأحد من رفاقنا أن دعا للاجتماع، فأتوا في مساء الأحد من أرجاء الجوف إلى كنيسة قرية بيت الأفدع الكبيرة، ووقفت أمامهم بجرأة بثياب معلم مدني، وألقيت خطابا حاميا حول كثير من الأفكار التي تنتابني لإصلاح الشأن الديني والإداري في المحافظة، حدثتهم ألا شيء تغير، وأن الروتين هو العدو الأول للنفس البشرية، وأننا نعيش بشكل مثالي خالٍ من الإثارة، وأن بعض الأعمال الشريرة أو بالأحرى التي نظنها شريرة، تكون ضرورية لإضفاء بعض المصداقية على الحياة، فما المعنى أن يكون الناس جميعهم مؤمنين بالرب والقيم الروحية! والحقيقة أننا هنا في هذا البلد نميل

إلى الروحانيات بقوة حتى نفقد صـــوابنا، بل وقد نرتكب الخطايا بسبب انغماسنا في التظاهر بمحبة الله والخوف على دينه ومعابده، هذا ما جرى، غدا كل رجل في الجوف مسيحيا معمدا من الكنيسة، لكن كثيرا منهم، بقيت حياتهم الاجتماعية دون تغيير، فالنساء لازلن يرتدين تلك الملابس الســـوداء، ويخفن من الغرباء، ويهربن من الجميع بدافع الحشـــمة. هذا ما كان يحدث في عهد الإســـلام المتطرف، حيث الرجال ينوون افتراس الإناث في ســـرهم، لكنهم يتظاهرون بعكس ذلك، والنساء يرغبن أن يكن عاهرات في السر، وفي العلن يظهرن كقديســـات. هذه ليســـت التربية التي كنا نريدها، ولا المجتمع الذي كنا نرغب بصـــنعه، فالإيمان وحده ليس بوســـعه أن يخلق الإنسان السوي، لا يهم أن نكون مختلفين مع قدر هائل من اللطف والاحترام المتبادل، أما أن نكون متشـــابهين في الشـــكل والطباع والاعتقاد مع قدر كبير من التنافر والكراهية، فهذا الأمر لا يطاق فعلا، لأن بوســـع الصـــحراء أن تكون جنة حين تزول التعقيدات الاجتماعية والدينية التي تفصـــل الجنســـين عن بعضـــهم، حيث أصـــبحت التربية الدينية ذاتها للأطفال والمراهقين تتكرر في المدارس، بهذا تحدثت إلى رفاقي طالبا أن يقفوا بمؤازرتي، لكنهم حبذوا أن يكونوا على الحياد.

وفي اجتماعنا الأسبوعي يوم السبت أتى أكثر من ألف معلم وجهت لهم الدعوة لأمر هام، وفي صـــالة الاجتماعات الكبرى طرحت عليهم مســـألة المثالية ومعنى الأخلاق بمفهومه الواســـع، وليس الضيق الذي يقدمه الكتاب المقدس، فالزمن أيضا وتحولاته يجب أن يؤخذ كل ذلك بالاعتبار، فاليوم ليس كالأمس، وبوســـع الروح أن تتغير وتواكب الزمن، أيضا طرحت عليهم مسألة خلق مجتمع غير مقفل موازٍ لمجتمعنا المسيحي، فنحن لسنا كل شيء في هذا العالم، وقيمنا أيضا لا ينبغي أن تسود الأرض، وعلى كنيستنا المباركة أن تحترم الأفكار الحرّة والابداع، حتى لو كانت الأفكار ضد قيم الرب

يسوع، فالرب الذي ترك الشيطان طليقا بعد الخطيئة الأولى لم يشأ أن يدع هذا العالم فاضـــلا على الطريقة الدينية، بل ترك للشـــيطان وأفكاره حيزا للحركة والنشـــاط، لأن الابتكار والابداع جاءا من التفكير الحر والشك والتخيل، ومن فرضية أن الإنسان كائن أرضي هامشـــي وليس مقدســـا، وأنه يجب أن يكون حرا مقيدا بحقوق الآخرين فقط، وألا توجد قوة غيبية عظمى تراقبه أو تضـــع له نواميس يجب اتباعها، لكن الجمود والغوص في الروحانية والعبودية أتت نتيجة للإيمان بأننا مخلوقون مســـيرون يتحتم أن نخضع لسلطة عليا مقدسة، ومهما يكن، فالسلطة الروحية لا يجب أن تخرج عن جدران الكنيســـة، وألا تُفرض على الناس كنوع من التربية الإلزامية، أما الســـلطات المادية الأخرى فيتولاها الخبراء، ونحن نكتفي بكنيستنا وملكوت الرب، وتلك المناهج المدرسية يتحتم أن تكون خالية من تعليمات الرب، لأن الأطفال لا يكونون قادرين على الاختيار، والتعليم الديني للصغار عموما مخالف لوصايا الرب يسوع، وهو نوع من الخداع، وعلى الكبار الذين يجدون في أنفسهم هذا الوهج المضـــيء أن يتجهوا إلى الكنيسة ويخدموا الرب برضا تام ومحبة شاملة، أما صنع تماثيل وأصنام من الورق والشمع، فإنها ستحترق وتذوب سريعا، ولعل الرب يريد منا أن نكون أكثر تواضعا مما نحن عليه، وأن ندع للشيطان وممارساته فسحة وحيزا كافيا، فالرقص والغناء والعلاقات الجنسية والمشـــروبات الروحية هي جزء من ملكوت الرب، وهي مثل غيرها من الأنشطة البشرية بحاجة للتنظيم وليس التحريم، حتى الدين بحد ذاته يعوزه العقلنة والتنظيم أو يصبح وبالا على المجتمع والأرض، فالتوازن بين القيم الروحية والدنيوية أمر هام، والكنيسة يجب أن تدع الماخور وشأنه، ولا يعوزنا سوى شيء ما يحمي جميع هذه التناقضات والأنشطة بحيث يصبح البلد شعلة من نشاط، فالعاهرة مثلا يجب أن تجد في أرض الله ملاذا آمنا، لتمارس عملها الشيطاني حتى تشعر بالملل أو تتقاعد وتعود إلى الرب عودة حقيقية، وهكذا أرى أن يكون المعيار

الأساس للأعمال هو الضر والنفع وليس الحلال والحرام، فإذا كان قرع الأجراس في الكنائس يوقظ طفلة نائمة أو يزعج مريضا فتوقفوا عن قرعها للصلاة، ولعل من المخزي أن نطارد عاهرة تبحث عن لقمة عيشها بكد فرجها، فيما نرفع من شأن تاجر دين يقيم صلواته على جثث الجوعى والمحرومين والمشردين، فإما أن تصنعوا شيئا مفيدا واصلاحا دينيا حقيقيا، أو دعوا الأعراف الاجتماعية القديمة تعمل، ولا تشوهوا جوهر الروح القدس بالمُثل الأخلاقية العتيقة التي ثبت فشلها. فذلك النوع من تشريعات العهد القديم ساهمت الشياطين في كتابته، ولم يعد أي مجتمع في العالم يعرف عنه شيئا.

وهنا ضج المعلمون وأبدوا استيائهم مما سمعوا، وقالوا بشيء من الصلف: "ماذا يقول هذا المعلم المجنون؟ هل شرب خمرا أم هو محموم؟ لقد كرر كلمة "يجب" كثيرا، من يحسب نفسه؟"

وبعد أن ذهبوا اقترب مني نصر قائلا بفتور:

"شيئا مما قلت يدور في نفسي منذ زمن، لكنك نثرت أفكارك في وجوههم بقسوة مفرطة! نحتاج إلى الصبر، لأن عادات المجتمع ومبادئ الدين، كلاهما يتكئ على الآخر، ولا يمكن محوها جميعا بين ليلة وضحى"

تبسمت وقلت بعجب:

"لا أريد محو أي شيء، فقط لنفسح مجالا للقيم الجديدة والفنون، أليس غريبا أن يضجر المرء من هذا الجو الروحي الخالص؟"

"لا شك أن الروح أكبر وأوسع من الإيمان، وأن هناك حاجيات أخرى تجعلها ممتلئة، لكني لا أشعر بالنقص"

فكرت قليلا وهتفت بتأمل:

"حقا؟ هذا أمر مقلق، أظن أن هناك أعمال صالحة كثيرة لم يخبرنا بها الرب يسوع ربما لرغبته في أن نكتشفها بأنفسنا"

"بالطبع، فالإنسان يجب أن تكون له اختياراته ووصاياه أيضا، فالرب يسوع يعطيك وصايا جيدة، لكنك أيضا يجب أن تبتكر لنفسك دروبا أخرى تجعلك مثمرا"

وأقبل المعلم الكبير وقال يخاطبني بألفاظ جافة:

"المعلمون غاضبون منك، ويخشون أن تشق الكنيسة اليمنية، لقد أفرطت في الحماس لأفكارك البشرية"

"وأنت ما هو رأيك في توصيات الإصلاح الديني التي سمعتها مني؟"

"إنها توصيات غريبة فعلا، وهذا لا يعني أنها غير جديرة بالتأمل والاهتمام، لكن المجتمع لن يتقبلها في الوقت الحاضر يا بُني"

"الناس يثقون بك أيها المعلم، وقد هجروا أسلحتهم، وهذا بحد ذاته معجزة حقيقية، لذا بوسعك أن تلغي الدروس الدينية للصغار في المدارس على الأقل"

"الأطفال يجب أن يعرفوا الله مبكرا"

قلت بقحة:

"لا أريد أن أجادلك، فأنت معلم كبير القدر، لكني في الوقت عينه لا أحبذ أن أشارك في هذه الجريمة، فالأطفال ينبغي أن يلعبوا في الحدائق التي لم توجد بعد، لذا أرى أن بناء الحديقة أهم من بناء الكنيسة"

"كما تعلم، إنها بيئة صحراوية جافة ونحن بحاجة إلى ثروة طبيعية كالنفط لتمويل هذه المشاريع، وما يدفعه المؤمنون من العشور يذهب لبناء الكنائس ودفع رواتب المعلمين"

"أنت تعلم أننا في طريقنا للمغادرة إلى مناطقنا، وقد قلت ما يدور في رأسي من أفكار، وبهذا أستطيع أن أنام بضمير مرتاح"

رد المعلم بإصرار:

"لا بأس، لكنكم محكومون بالإعدام، وذهابكم هو انتحار مؤكد"

قلت بشيء من التهذيب:

"سنذهب متنكرين عابرين طرق التهريب"

"أقول لكم إنها مخاطرة لا يستحسن أن تقوموا بها"

"أعرف، لكن يسوع المسيح دخل بيت لحم دون خوف"

"إن كنتم مصرين حقا بوسعي أن أصل بكم إلى مأرب بسلام بواسطة معارفي القدامى، وأرجو أن يكون لديكم خطة للعبور خارج مأرب"

نظرت إلى غالب الحلاق وقلت مبتسما:

"أظن هذا الأخ المبارك يستطيع أن يشوهنا حتى لا يعرفنا أحد"

وضحكت بخفة محدقا في الوجوه الجامدة التي تحيط بي كأني أشجعهم على مشاركتي في الضحك، ضحكت سفانة فقط، واستطاع المعلم الأكبر أن يبتسم بصعوبة بالغة، وكذلك نصر ارخى شفتيه قليلا على استحياء، كان هذا غريبا، إذ أن الرجال المتطهرين لا يضحكون في الغالب، كنّا قد نسينا الضحك منذ عام، إذ يجب أن تظل متنبها ومتوقعا قدوم الابن المقدس بأي لحظة ليخلص العالم من شروره وخطاياه، بدت لي هذه الفكرة غريبة، فالمسيحية في العالم غدت متصالحة مع العلم بقوة القانون، وليس باختيار الرهبان أو المعلمين، لكن البابا بولس بحلته الوقورة يبدو أكثر شخص بوسعك أن تسمعه يدعو إلى التسامح والمحبة بين البشر، وهو رجل ملهم، تخرج كلماته الأبوية من صدره بإرهاق وكلل، ولا يحاول أن

يبدو صارما كالمرشدين والدعاة، وليس بوسعك إلا أن تفهم الكثير منه. ومما نعرفه هو أن الكنيسة الأم في القدس وغيرها من الكنائس في العالم تحظى برعاية الحكومات العلمانية في أمريكا وأوروبا، وكم تمنيت أن تنشأ حكومة علمانية في الجوف ترعى كنيستنا أيضا، وكان من المتوقع أن تتغير المناهج الدراسية وفقا لهذا الفكر، وكذلك تعشمنا أن يتجه الاعلام الرسمي نحو هذا الهدف العام، لكن أحدا لم يسمح لنا أن نقوم بالإصلاحات اللازمة. كان نصر يتفق معي على بعض الإصلاحات الضرورية، ولا يتفق على أخرى مثل تشجيع الفنون كالغناء والرقص الذي يعتبرهما من أدوات الشيطان لتدمير القلوب وإفساد العقول، ويظنهما لهوا وعبثا لا نفع فيهما، غير أنه لم يكن يحبذ أن تمنع أو يلاحق ممارسوها، كما يرى أن تعميم مبادئ الدين المسيحي على الصغار هو سم قاتل لأي مجتمع، ويتنافى مع تعاليم الرب يسوع، وهي المسألة الجوهرية التي أقلقت نومه ونومنا جميعا، حتى هند المتطرفة في آرائها وحبها ليسوع قالت مرددة رأي نصر إن تعليم الصغار مبادئ المسيحية في المدارس خطيئة، أما المعلم الأكبر والمعلمون الآخرون فكان لهم رأي مخالف، لذا وجدنا أنفسنا فائضين عن الحاجة، وقررنا المغادرة.

الرحيل إلى قلب سُفانة

غادرنا باكرا، المجموعة ذاتها، باستثناء زبن الله الذي عاد إلى منزله في وقت أبكر، بعد أن اكتشف أنه غير ملاحق، وليس لاسمه أو صورته حضور في الصحف أو في وسائل التواصل الاجتماعي، أما نحن جميعا فقد كنا مطاردين، وصورنا وأسماؤنا كانت في كل حاجز أمني خارج المحافظة، لاحظنا بأننا جئنا خائفين متنكرين، وسنعود خائفين متنكرين بمساحيق غالب الحلاق، ووقف نصر أمام المجموعة كقائد لا يحمل أي تكليف رسمي، لكن مادام هو الذي وجد المخطوط، فهذا أعطاه الثقة بأن يتقدمنا في السير، وبدا مثل قائد المجموعة، وهكذا عرجنا على المعلم الكبير لتوديعه، وقال له نصر بجرأة غير مألوفة:

"أيها المعلم، لا أريد أن أعود خاويا من الأهداف، لقد جئنا إليك حاملين المخطوط، ويجب أن نعود بالمخطوط إلى بلادنا لنبشر بالرب هناك"

رد المعلم بشيء من الضيق:

"وماذا بوسعك أن تفعل بهذا المخطوط بعد الآن؟"

قلت بغيظ عجزت عن منعه من الظهور:

"لا أظن التبشير بالمسيحية انتهى، وهذا المخطوط هو دليلنا لإبراز ما حدث في بلادنا من خداع"

"وما يدعوك للوثوق بقدرتك على التبشير في أرض الزيود الهاشميين؟ سوف ينزعون منكم هذا المخطوط حتى تصبحوا بلا دليل"

قلت بعناد:

"لن يأخذه أحد منّا بالقوة، أعدك بذلك"

قال نصر مشيرا إليّ:

"خذ المخطوط يا سام، إنه في عهدتك، لأنك ملاكم وكاتب"

نظرت إلى المعلم الكبير، ومددت يدي نحوه، ثم اقتربت منه بجرأة شديدة، فبقي جامدا للحظات، ثم غاب قليلا، وعاد وهو يحمل المخطوط مطويا بالقماش الثقيل ذاته الذي جلبناه به، وناولني قائلا بعبارات مهزومة:

"خذوا المخطوط، لقد عرض عليّ ممثل الفاتيكان مبلغ خمسة ملايين دولار، ولم أقبل"

قلت بشيء من الأسف:

"ألم يكن هذا كفيل بالحصول على مباركة البابا بولس، والاحتفاظ به في مكتبة الفاتيكان الشهيرة بدلا من الخوف الدائم من فقدانه أو سرقته؟"

"نعم، فكرت بهذا الأمر، لكن أمر المخطوط انتشر في العالم كله، لذا تعرضت لضغوط شديدة من أمراء سعوديين عرضوا عليّ مبلغ مئة مليون دولار مقابل استعادته، كما عرضت عليّ مكتبة أكسفورد عشرة ملايين"

قال نصر بتأثر:

"أصبح أعداؤنا في الإقليم المجاور، ملوك النفط، يا لنا من تعساء!"

"أعيدوا المخطوط، إنه هنا أكثر أمانا"

نظر إليّ نصر باغتمام، وأشار لي أن أعيده بحاجبيه، فقلت بحنق:

"هذا ليس قرارك وحدك يا نصر، هذا المخطوط هو نقطة قوتنا الوحيدة، وبوسعنا أن نساوم بواسطته على حياتنا أو أي شيء آخر نريده، لأننا الآن صرنا مكشوفين معرضين لأي مكروه"

انتبه نصر إلى قولي، وقال بشيء من الاعتذار:

"هذا الكلام يبدو صحيحا أيها المعلم، لذا سنحتفظ بالمخطوط، ولن نتخل عنه بالتأكيد"

رسم المعلم الكبير علامة الصليب مجيبا بنبرات حارة:

"ستتركون فراغا كبيرا في أرضنا، إن رحيلكم خسارة للمجمع الكنسي في الجوف، ليباركم الرب"

وبعث بضع سيارات لمرافقتنا إلى الحدود، وقلقت من هذا الاحتفاء، وطلبت من نصر أن يمنع هذا الأمر، لكنه لم يفعل، وطلب مني تبريرا للقلق الذي أشعر به، كنت أشعر كأن المعلم يقوم بتوديعنا للمرة الأخيرة، بعد عام ونصف من البقاء في الجوف قررنا أن نذهب، وقد فعلنا ذلك بقناعة شديدة، ولم نتنكر حين خرجنا من القبيلة، وها نحن نزف بموكب كبير كالأبطال، وهذا لم يعجبني، ليس بسبب التواضع أو المشاعر الدينية أو الحس المدني الذي ننادي باتباعه، بل لأن مثل هذا الموكب يلفت الأنظار إلينا وهو كفيل بأن يجرنا إلى المتاعب، فقلت مخاطبا رفاقي بغضب:

"لا أصدق أن نزف بهذا الشكل! سيعرف القاصي والداني أننا خارجون من المحافظة"

رد نصر موافقا:

"لا يعجبني هذا المظهر أيضا، إننا نحاول الهروب وهم يفضحون أمرنا، لا أظن أن بوسعنا إيقاف الموكب، وقد أخبرنا المعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام"

خاطبني غالب معاتبا:

"لا تنس يا سام أنك ضحكت أمام المعلم بشكل قبيح، وبهذا جرحت وازعه الروحي"

"لا أظن الضحك هو السبب، بل انتزاع المخطوط هو الطامة الكبرى"

نظرنا إلى هشام الطباخ بشيء من الذهول، لقد لفت انتباهنا إلى المخطوط الذي لا نعرف ما يدعو المعلم الكبير للحرص على اقتنائه بعد انتشـــار المسيحية في الجوف.

رد نصر بارتباك:

"هذا غير صحيح، ماذا يبغي المعلم من بقاء المخطوط في داره؟"

فكرت قليلا وقلت:

"عدنا إلى نقطة الصــفر في الهروب بهذا المخطوط، أتمنى لو نودعه في مكتبـة غربيـة بحيـث يكون متـاحـا للـدراســـة، لأن هنـاك من يريـد إحراقه"

"لا تتهربوا عن الجواب، ماذا يريد المعلم من المخطوط؟"

أجبت قائلا بارتعاش:

"إذا أتيح لنـا أن نرتـاب من المعلم الكبير دون أن تلحقنـا أي خطيئـة، فـإن بوسعنا القول إنه يطمع بمبلغ أكبر مما عرض عليه"

تلقت هند جوابي بتكشيرة امتعاض، قائلة بحمية:

"هذا تجديف يا أخي، لأن المعلم ذو إيمان غزير"

صـــفعتني بهذا النداء الأخوي المألوف في النظام الكنســـي، وفتحت لي كثيرا من أبواب التفكير المضني، لا أعرف ما يدعو المؤمنين في كنيستنا إلى التنصل عن مشاعر الحب بين الجنسين، بل في غالبية الأديان تُحتقر هذه العلاقة وتعتبر من مصــادر الإلهاء والفســاد الأخلاقي، حتى إن كان الحب والتراضي والانسجام والاستمتاع قائما بين حبيبين يمران في لحظة ضـــعف أو انجراف عاطفي، ومن جهة أخرى، يكون الأمر طبيعيا بين الزوجين غير المتحابين اللذين يكون من المحتمل أن أحدهما على الأقل يقيم علاقة جنسية خالية من الوداد والمتعة، هذا الأمر لا يسمى زنى، ولا

يترتب عليه أي خطيئة، وهذا يأخذنا للتساؤل هل الرب يكره هذه العلاقات القائمة على الاستمتاع الجسدي والعاطفي بسبب الأضرار الصحية التي ترافق الإجهاض أو الأمراض الجنسية؟ أم إن السبب هو غيرة الرب من هذه العلاقات الروحية التي تتماهى وتصل إلى مصاف التعبد بين الحبيبين، فالمحبوب في الوجدان الروحي والعاطفي يصبح كإله تقف له الحواس والمشاعر بخشوع وإذعان، لاسيما الأنثى التي امتلكت الشيء الكثير من السحر والإغواء، ما يجعلها مثل آلهة حقيقية ملموسة تُرى وتُسمع، ولا حدود لعطائها وقوتها.

دارت أشياء كثيرة في ذهني أثناء تفكيري بنداء هند "يا أخي"، وقلت لنفسي فيما استطعنا أن نخترق أخبث الحواجز الأمنية، فإن "يا أخي" هو الحاجز البغيض الحقيقي الذي لم أتمكن من تجاوزه، بحيث أصبح حبنا مشروطا وخارجا عن المألوف. كنت أعرف أن هند تحتفظ لي بحب جارف متكلف، تعوقه اللغة وتحاصره الشبهات والمثاليات، حتى بدا مثل دور وظيفي في مؤسسة صارمة أو مسرح، حيث يظل المدير أو المخرج يراقب أقوالك أو أفعالك، ويضع لك عقوبات مؤلمة في حال خرجت عن النص السخيف الذي كتبه سيناريست فاشل مصاب بجفاف فكري وعاطفي، وأحداثه مستوحاة من رواية كتبها سارد سوداوي لا يجيد سوى كتابة الحوارات والمشاهد الحزينة أو المرعبة. شعرت بالخلل الذي أصبنا جميعا به، إذ أننا في العمر الذي لا يليق لك فيه أن تصير مؤمنا، لأن طاقاتك الحيوية مازالت قوية لا يعوزها شيء من الطاقات الروحية الأخرى، فقدرتك على ممارسة الحياة والابداع والابتكار مازالت في أوجها، ولا يعوزك سوى استكشاف طاقاتك. فقدرتك على المرح وممارسة الجنس والتفكير لا يعوزها ذلك الإيمان الحزين والوجه الوقور الذي يجب أن ترتديه في المعبد. لا أعرف لماذا الرب يريدك أن تكون مكتئبا ومثاليا ومؤمنا بكل ما جاء بالكتاب المقدس! ألا يكفي أن نؤمن بالرب يسوع إلها مخلصا زرع الحب والفرح في قلوب البؤساء والمعذبين؟ هذا يكفي.. نعم.. باقي الأشياء التي جاءت في الكتب المقدسة

هوامش تستحق التأمل فقط، لكنها فائضة عن الحاجة. لأن بوسع الإنسان المليء بالفرح والحب أن يسير في درب مضيء. ولعل الرب القدير هو قيمة الحب التي لا تنتهي، لأنها أعلى قيمة في الحياة. وممارسة الحب تخلق الحياة بكل معانيها وصورها كاللذة والفرح والحلم والتأمل الفلسفي والتحرر الفكري...

"دعوني وشأني، لا أريد أن أعيش حزينا، لا أستطيع..."

قلتها وانفجرت باكيا دون أن أجد سببا كافيا يدعوني للبكاء، بكيت بذلك الانكسار الشغوف، بذلك الضعف الذي يجعلك تشعر بالورطة الروحية التي وقعت فيها دون روية أو تفكير، بكيت أيضا لخسارة حبي وفتاتي التي أرادت أن تعيش حياة الأخوات في الكنيسة، بكيت لأني لم أستطع أن أجاريها في ذلك. فأنا أحب الرب يسوع أيضا، لكني لا أريده أن يتحكم في تفكيري أو جسدي أو مشاعري، هذا كل ما في الأمر.. نظروا جميعهم إليّ باندهاش، والقليل منهم فهموني لاسيما سفانة. كانت الأخيرة تعارض فكرة الارتباط بالدين بذلك الشكل الغريب الذي يعطب نفوس المؤمنين ويجعلهم كالمرضى. لذا انقلبت على رفيقها الذي حاول أن يقيم زفافا عاجلا في الكنيسة، حيث رأت أن هذا سابق لأوانه، ويجب أن تتمهل قليلا حتى تجد حافزا يشجعها على قرارها، كما أن أهلها يجب أن يشاركوا في فرحها، وسينكسر قلب أمها التي تنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، فالزواج بشخص غريب سيكون مخجلا لعائلتها مثل هروبها تماما، ولعلهم يفضلون موتها قبل أن تقدم على هذه الخطوة الرهيبة. لديها أعمام أجواد طيبون وأشقاء لئام بغيضون، وبوسعها أن تعود لتمتحن طيبة أقاربها ولؤمهم، وقد يرضون عن قرارها بالعودة وعدم الزواج دون علمهم، فهم وإن كانوا حمقى فقد يكون لديهم بعض من التقدير والنخوة ما يجعلهم يعيدون التفكير في قرارهم بنبذها من العائلة، وحضورها هو أمر بهيج يخفف من شعور العار الذي ينتابهم، ومن ثم يستطيعون أن يرفعوا أنوفهم أمام الناس ثانية، كم ستفرح أمها حين تراها، وهو شعور نقي وصافٍ لا تشوبه شائبه.

لم يفهم نصـــر هذا الأمر لأن إيمانه بيســوع ملأ جميع نوافذ روحه، ولم ينظر لأي شـــيء ســوى عبر هذه النوافذ العميقة، ولعله ابتعد قليلا عنها، وهي أيضـــا أحســـت أنه شـــخص تقليدي غير صـــبور لا يفقه شـــيئا عن التضحية في الحب، وبمجرد أن بزغ ضوء الإيمان في صدره انغمس في الدين حتى النخاع، وبالكاد احتفظ بقدر يســـير من أفكاره التنويرية، لذا وجد نفســـه يميل إلى هند التي تشـــبهه في إيمانها الروحي العميق، وتجرأ أن يخاطبها ويقترب منها، فابتعدت أنا عنها بشكل تام بعد نداء "يا أخي.

حدث هذا، بعد خطابي عن الإصـــلاح الديني، الذي نفضـــت فيه أشـــياء كثيرة من صـــدري، ســـفانة اقتدت بي أيضـــا، فابتعدت عن نصـــر، وكأن أفعالها صـــارت بمثابة الصـــدى لأفعالي، وفي تلك الفترة، طفقت أفكر فيها كثيرا، وهي لا ريب كانت تبادلني التفكير، غير أن عائقا ما ظل يفصـــلنا عن بعضـــــنا ويجعلنا متباعدين قليلا، وهو الألم والخواء اللذان يعقبا كل علاقة حب غير متكافئة أو مكتملة الأركان، لأجل ذلك، لم اقترب من سـفانة التي كانت تميل إلى الفرح ومشـاعر الحب، وهي كذلك لم تشـأ أن تكون الطرف الذي يبادر كعادة الفتيات، لكنها اقتربت مني هذه المرة لعلمها أنني سأظل مدى الحياة متألما ومخلصا لصديقي نصر الذي ذهب بحياته بعيدا عنّا جميعا، وقد ذهلت وأحســـت بالشـــفقة حين رأت دموعي، لذا تنحنحت قبل أن تخاطبني قائلة برقة:

"إن رفيقتك تملك وازعا دينيا صلبا، ألهذا السبب أنت حزين؟"

"لا أدري، رفيقك أيضا يملك هذا الوازع الصلب، وهو الآخر يظن أن الرب يسوع يحب أن يراه قاسيا كالحجر"

"لكن هذا لا يجعلني أبكي رغم الألم الذي أشعر به"

قلت ماسحا دموعي بسرعة:

"لا أعرف، أحيانا ننهار بعد مقدارٍ هائل من الهموم"

"بل هناك سبب واحد على ما أظن"

شعرت باقترابها من أسراري الخاصة، ومحاولتها لمس الجرح الحقيقي الذي أعاني منه، فأجبت بحنق:

"توقفي يا سفانة، أرجوك، أنا نفسي لا أعرف سبب بكائي، ولا أريد أن أعرف"

"لا أظنك تبكي لأجل هند"

شردت قليلا ثم قلت باهتمام:

"بالتأكيد، لقد اختارت يسوع الرب الذي يكره الحُب، وهذا شأنها"

"ما هو السبب الذي دفعك للبكاء إذا"

فكرت ثم قلت بحيرة:

"لا أعلم حقا! أليس هذا غريبا؟"

"أخبرني، هل كانت صداقتك ونصر قوية؟"

"نعم، لم يفرقنا شيء منذ الطفولة، حتى في الجامعة كنا نبيت معا في غرفة واحدة "

"نعم، كما توقعت، أنت حزين على صديقك وتخشى أن تفترقا"

قلت باستغراب:

"لا أعرف، لكني حقا أخشى أن يصير راهبا حقيقيا"

"وماذا عني؟"

"أنت تشبهينني كثيرا، تحبين العيش خارج الكنيسة، لذا فإن مصيرنا محسوم"

ضحكت قائلة بمكر:

"ماذا تقصد بمحسوم؟"

"يعني أننا... توقفي.. أرجوك"

وهربت من أمامها، بقيت متهيبا وخائفا ومخلصـــا لصـــديقي نصـــر، ثم فكرت مليا في أمره حتى شعرت بالغيظ والغيرة، فانسجامه وهند لم يكن خافيا رغم أن علاقتهما لم تتجاوز الحب الروحي الناجم عن الارتباط المقدس بالرب، وهو لم يطلب مني الإذن أو يشـــعر بأي تأنيب ضـــمير، مثل غالبية رجال الدين يظنون أن كل ما يريدونه أو يطلبونه هو هبة قدمها لهم الرب، ولا يبالون بأي شـــيء آخر. لذا كنت في حل من تبكيت الضـــمير، واقتربت منها بكل قلبي وعقلي وجحافل مشـــاعري، حتى انسجمنا في حب جارف، وكانت سفانة ملاكا يمشي على قدمين.

الفخ

في الطريق إلى مأرب أقمنا امتحانا للقدرات اللاهوتية التي نتمتع بها أو شيئا من هذا القبيل، ورغم أن هذا النوع من التنافس الروحي غير جائز بالتشريع المسيحي، إلا أننا جميعا حاولنا التنبؤ بمستقبلنا، لذا دعونا جميع الذين يمجدون الرب يسوع لخوض هذه المنافسة، فيما بقي الشيخ المسن هادي سريع خارج هذا السباق لأنه لم يكن يقيم الصلوات المسيحية، ولا يشارك في الدروس، وإذا حضر معنا يظل صامتا شاردا في عالم مجهول. كان مهملا متساهلا بكل شيء حتى الفرائض الإسلامية تركها كالصلاة والصوم في رمضان. وبدأ رفاقي الذين اشتركوا بالمنافسة يغمضون عيونهم محاولين الاتصال بقواهم الروحية التي ستكشف لهم الأمور التي ستحدث لاحقا خلال الساعات القادمة. أما الرجل المسن فقد ظل محدقا في الفراغ بلا مبالاة. وكان نصر هو المرشح الأول للفوز بسبب ارتباطه الوثيق بالعمل الديني وإيمانه العميق بيسوع الرب، وهو الشخص الأول لذي وصل إلى مرتبة راهب ومعلم في الوقت عينه. وهو أول من فتح عينيه قائلا بانبساط:

"لا أعرف، لم يبد لي شيئا سيئا، وسنمضي في طريقنا دون أن يوقفنا أحد"

وقالت هند بصوت وقور:

"سيوجهون لنا بعض الأسئلة، ويتصفحون وثائقنا المزورة، ثم يخلون سبيلنا على الفور"

قلت بحيرة مفرطة:

"يساورني شعور غير مريح في هذه الرحلة، لكني لا أستطيع أن أجزم بأي شيء"

قالت سفانة أيضا ببرود:

"لا أدري ما سيحدث، لكني أشعر بالخوف والتهيب وحسب"

قال هشام الطباخ:

"أشعر بفراغ كبير داخلي وحزن، ربما لأننا سنفترق"

وهتف المعلم عثمان قائلا بقلق:

"سأجد نفسي بلا وظيفة أو عائلة، وسأضطر إلى نيل قوتي من التعليم الخاص، فأقدم دروسا خاصة لأبناء العائلات الميسورة"

ضحك غالب الحلاق قائلا بقلق:

"إن استطعنا عبور أول حاجز أمني، فإن بوسعي أن أضمن عبوركم جميع الحواجز الأمنية"

صاح بن جرجور بصوت جاد:

"سأجد عائلتي في ضيق شديد، وأدع أطفالي يهجرون التعليم الحكومي الفاسد المحتوى، وسأدعو المعلم عثمان ليقدم دروس خاصة لأطفالي"

وتكلم الشيخ هادي سريع قائلا بغضب وتشاؤم:

"أشعر بالخوف كلما اقتربنا من مفرق مأرب حيث أول حاجز أمني، وأظن أننا لن نصل إلى عائلاتنا في الشمال"

رد نصر بعصبية لا تتناسب مع مرتبته اللاهوتية:

"لا خوف علينا من حاجز مأرب، انظر، ها هم رجال المعلم يرافقونا للحرص على سلامتنا"

نظر الشيخ هادي جانبا وأجاب:

"هذا الموكب يخيفني أكثر! يا لكم من أغرار!"

" سترى، سترى أن كل شيء سيكون على ما يرام"

وظل نصـــر يردد هذه العبارة طيلة المســـافة التي تفصـــلنا عن الحاجز، وحين وصـلنا إلى المفرق اسـتقبلنا الجنود وقائدهم بحرارة، ومكث رجال المعلم قليلا، ثم انصـــرفوا بســـياراتهم عائدين إلى الجوف. وأخذنا الجنود إلى منزل مخصـــص للشـــخصـــيات المهمة كما هو موضـــح على لوحة لاصقة قرب بابه الخشبي. وقدموا لنا مشروبا باردا، وطلبوا منا أن نرتاح قليلا قبل أن نواصـــل ســـفرنا إلى مأرب. بدوا دمثين وطيبين للغاية، ولم يبدر منهم أي تصـــرف يدعو للريبة. نظر نصـــر ناحية الرجل المســـن وهمس قائلا:

"أرأيت؟ نحن بخير، إنهم في غاية اللطف والكرم"

رد الرجل المسن دون أن يخفف من نبرات صوته المتشائم:

"لقد سبق لي أن انخدعت بالواعظين، وقد نلت علقة لم أذق مثيلا لها طوال عمري، لذا لن أنخدع بطيبة العسكر!"

تبسم نصر بوقار، وبقي جالسا باسترخاء واثقا من حدسه الذي استمده من إيمانه بيســـوع، كان هناك باب خلفي مفتوح، وفي تلك الأثناء، شـــعرت بمثانتي تضـغط عليّ، فتسللت إلى حمامات المسجد القريب التي بدت شبه خاوية قبل الظهيرة، وأقبلت سـفانة خلفي، ودخلت الباب الخاص بالنسـاء. كان العرق قد غســلنا غســلا أثناء الرحلة بســبب حرارة الصــحراء. لذا وضـــعت المخطوط المطوي بالقماش على حاجز قصـــير يفصـــل بين حجرتي والحجرة المجاورة، واسـتحممت غاسـلا أوسـاخ الطريق، وبينما كان الماء يندلق على جسدي من أعلى، خيل لي أن ثمة فوضـى وأصوات عالية تصـــدر من الجوار، ولم أكترث في البداية لأن مثل هذه الفوضـــى تحدث كثيرا عند الحواجز الأمنية، يقوم بها مسـافرون عصـبيون أو تجار أو مواطنون محليون يتبرمون من ســـوء المعاملة والإجراءات المتطرفة ضد العابرين، وتنبهت إلى أننا كنا نتوقع أن تقابلنا ظروف سيئة، ونخشى من الوقوع في فخ السـلطات الأمنية. وهكذا بدأت أصـغي جيدا، وما لبثت أن ارتديت ملابســـي بســـرعة، وحين خرجت من الصـــالة كان الجنود

يركضون طالبين من المسافرين الفضوليين الابتعاد عن طريقهم، وراحت دوريات النجدة تجوب وهي تعوي وأضواؤها تومض دون توقف، وفهمت أنهم يبحثون عنا، فهرعت باتجاه حمام النساء، وترددت قليلا عند باب الصالة، ثم اندفعت إلى الداخل مرعوبا. انتصبت خلف الباب الذي يؤدي إلى الخارج، مختلسا النظر عبر الفجوات المفتوحة، وفجأة رأيت سيارة شرطة النجدة تقترب من الحمامات وصوتها يرتفع، فقفزت من مكاني نحو الحمام الوحيد الذي يأتي منه صوت الماء، صائحا بهلع: "سفانة.. سفانة" لكنها لم تسمع، إذ كانت تستحم والماء يطش عند أذنيها، فطرقت بابها بقوة، فتوقف صوت انسكاب الماء، وصاحت بذعر:

"من هناك؟"

"هذا أنا سام، الجنود قادمون.. افتحي الباب بسرعة"

فتحت الباب دون شعور، ثم حاولت اقفاله صارخة:

"اذهب إلى حمام آخر"

دفعت الباب بقوة ودخلت كالمجنون هامسا برجاء:

"لا أستطيع تقليد صوت النساء"

صاحت سفانة باحتجاج لأنها كانت عارية:

"هيا، أخرج حالا"

أطبقت على فمها مشيرا لها أن تصمت، وفتحت صنبور الماء، وأقبل الجنود واقتحموا الحمامات طالبين من المستحمين الخروج، وقرعوا الباب الوحيد المقفل، فصرخت سفانة بصوت مرتعش:

"هذا حمام النساء، ألا تخجلون؟"

وأصابتهم صرختها بالرهاب، وخرجوا قائلين بأسف:

"العفو! ظننا أن هناك رجل فار من العدالة هنا"

كانت ترتعش بعنف، وأنا أرتجف بشـــدة، وأكثر خوفي وحرجي أني مختبئ في حمام امرأة عارية، ليس هذا وحسب، بل كنت ملتصقا بجسدها بشكل غبي بلا خجل أو شعور بالذنب، لم أدرك فداحة وضعي سوى بعد أن غادر الجنود، حيث بقيت متجمدا قليلا، حتى سـمعتها تهمس بصـوت غاضب:

"ابعد يدك عن جسدي واخرج حالا"

تراجعت إنشـات قليلة، وبقيت يدي اليسـرى تطوق كتفيها واليد الأخرى فوق صدرها، كنت قربها أشعر بأمان لا يوصف، وهمست لها بشيء من الاضطراب:

"آسف، فقط تمهلي قليلا حتى يبتعدوا"

صفعتني في وجهي بيدها الصغيرة صفعة ناعمة قائلة بحنق:

"أنت لسـت آسـف، أنت قليل أدب، وأنا أسـتحق كل هذا لأني فتحت لك الباب دون قصد"

أمسـكت على خدي، وخرجت منكسـرا مهتاجا، إذ نلت أول صـفعة في حياتي، من أكثر إنسان أحبه، وانتظرت في الصالة حتى خرجت ورائي، ولما رأتني واجما، قالت بارتباك:

"ماذا كنت تتوقع مني أن أفعل؟"

قلت متبسما بحرج:

"إنها أول صفعة، هذا كل ما في الأمر"

"هل كنت تفضل أن تنالها من أيدي الجنود؟"

ضحكت وقلت:

"اللعنة على الجنود، هيا بنا نبتعد عن المكان"

خرجنا ونحن نتلفت بحذر، فقالت لي فجأة:

"هل كنت تمسك بيدك شيئا حين جئنا إلى هنا؟"

"أوه، نعم"

صـــحت بســـخط، وركضـــت نحو حمامات الرجال، وهناك في الصـــالة وجدت المخطوط في كف رجل مسلح، فتقدمت منه قائلا باحترام:

"العفو، هذا الشيء الذي تحمله يخصني، أعده لي لو سمحت"

أجاب الرجل باحتقار:

"اغرب عن وجهي يا هذا"

طرحته أرضـا بلكمة واحدة، إذ كنت متوترا بسبب ما حدث سـابقا، وفجأة خرج بضـــعة رجال من الحمامات، فطرحت ثلاثة على أرضـــية الصـــالة أيضـــا، والرابع هاجمني قرب الباب، فركلته على وجهه حتى انقذف إلى الخارج ووقع أمام سفانة، فصاحت بخوف، وسألتني بغضب:

"لِمَ لا تعمل أي شيء دون عراك؟"

"لقد أغلظ لي بالرد"

وعدت إلى المخطوط الذي كدت أن أنساه ثانية لدى أول رجل صرعته، وأخذته وقلت متبرما:

"سنبيع هذا المخطوط اللعين قبل أن يتسبب في قتلنا"

وســـرنا بعيدا عن الحاجز حتى وصـــلنا إلى فرع طريق جانبي يقود نحو الصـــــحراء الممتدة، وهناك وجدنا رجلا واقفا على الطريق بســـيارته التويوتا، فقلت له بعد أن حييته باحترام:

"هل تأخذنا في طريقك بعيدا عن الحاجز الأمني؟"

رد بشيء من اللطف:

"نعم، أنا فقط انتظر رفاقي حتى يعودوا من الحمامات"

لكزتني سفانة بيدها طالبة مني المغادرة، لكني قلت متقمصا الجدية:

"لقد اعتقلهم الجنود قبل قليل، وهمسوا لي أن أخبرك أن تغادر على الفور"

أدار مفتاح التشغيل بسرعة قائلا باضطراب:

"هل أمسكوا بهم حقا؟"

"بالطبع، لقد كنا سويا في حمامات المسجد"

"هيا، اصعدا، سنغادر المكان.. إن الجنود القذرين يطمعون في مبلغ أكبر مما اتفقنا عليه"

قلت بحمية نحن نصعد إلى المقعد الأمامي:

"لا يجوز لهم أن يلمسوا الرشوة"

"الخيار الآخر هو أن يصادروا بضاعتنا كلها، ونخسر مئات الملايين"

وأضاف بعد وهلة قصيرة:

"أخبراني أين تذهبان؟"

"كنت ورفاقي في طريقنا إلى مأرب، لكن الجنود الأوغاد هجموا عليهم حينما كنا في الحمامات، كما ترى نحن متشابهان"

"لهذا السبب أعرض عليكما الضيافة في عبيدة، اسمي غيث بن ناجي"

لكزتني سفانة بعجل هامسة:

"عزيز في عبيدة..."

كنت قد سمعت قصتها وعزيز كما روتها لي من قبل، لذا عصرتني الغيرة عصرا وقلت بحنق:

"ماذا تريدين منه؟ لا أقبل أن يساعدنا لمجرد أنه كان يتردد على والدك وأنك أحببته!"

" اخفض صوتك، لم أعد أهتم لأمره، ولا أود دخول عبيدة"

هتف السائق بشكل مفاجئ:

"هل تتحدثان عن عزيز بن زهران؟ إنه عريس نهاية هذا الأسبوع، إنها المرأة العشرين التي يتزوجها خلال هذا العام، زعيمنا شاب عابث، والكثير من رجالنا ليسوا فخورين بأفعاله"

قلت مداريا جزعي:

"بل هو عزيز آخر"

وأضفت بعد لحظة وجيزة من التفكير:

"أرجو أن تغفر لي يا غيث لأني كذبت عليك مرغما"

نظر إليّ باستغراب، فأخبرته أن رفاقه سقطوا صرعى داخل الحمامات، ولم يأخذهم الجنود، وأني كنت مضطرا لمغادرة المكان، والذهاب إلى مأرب دون عبور الحاجز، فضحك بتوتر وقال بعجب:

"تخبرني الآن بالحقيقة! لماذا؟

"لأني لم أعد أحتمل أن أخدعك أكثر من ذلك"

"لم نبتعد كثيرا، من الجيد أنك أخبرتني في وقت مبكر، لأن رفاقي أشرار، ولن يسرهم أن يعودوا ويجدوك أمامهم، لذا سأضعك عند رجل طيب سيأخذك إلى المدينة"

قلت له بارتياب:

"أرجو ألا تخدعني كما خدعتك، ها أنا أسلمك رقبتي، ومن خان ضيفه يلطخ العيب وجهه"

ضحك وقال باستغراب:

"حصنت نفسك مني أيها الماكر، سأغير الخطة الآن، وآخذك إلى الشخص الصحيح"

قالها ومال في سيره باتجاه طريق جانبي صغير، وقادنا بين الكثبان إلى قرية تسمى الحصن، ثم انصرف في الحال، وهناك وقفنا أمام خيمة رجل ذكي ثاقب النظر، يبدو في الخمسين من العمر، امتنع لسبب ما عن إعطائنا اسمه، فقررت أن أطلق عليه اسم أبو علوة، لأنه يشبه رجلا أعرفه يدعى بهذا الاسم، وسرعان ما طلب منا أن نخبره عن حالتنا وظروفنا، وما نريده منه، فأخبرته بالشيء الكثير، وكتمت عنه خبر المخطوط، تعشمت منه أن يساعدنا في الحصول على هويتين جديدتين لأجل استئجار غرفة في فندق هادئ، فأخذنا بسيارته إلى المدينة سالكا طريقا مختصرا، وهناك حصل لي على بطاقتين شخصية وعائلية تعودان لأحد أقاربه، أما سفانة فلا أحد سيسألها عن هويتها لأنها أنثى وتلبس نقابا يغطي ملامحها، وقدم لنا ملابس بدوية جديدة دون أن نطلب منه ذلك، ثم قادني إلى حلاق عند طرف المدينة، وقدم له صورة قريبه هامسا في أذنه:

"اجعله مثل هذا الشخص مقابل خمسة آلاف ريال"

مكث الحلاق يضيف إلى وجهي أشياء جديدة، ويزيل أشياء أخرى، حتى صرت بشاربين كثين ولحية تشبه حذوة الحصان، وحين ركبت قرب سفانة صاحت حتى أرعبتني، فقلت بفزع: "توقفي يا صالحة، هذا أنا زوجك ناجي" ضحك الرجل الخمسيني رغما عنه، وقالت سفانة زافرة الهواء بضيق: "لا تباغتني هكذا، سأصاب بنوبة في القلب بسببك" فاعتذرت بصدق، وما لبث الرجل الخمسيني أبو علوة أن قال دون مواربة: "أريد خمسين ألف ريال ثمن خدماتي، وعشرة ألف في اليوم مقابل انتحال شخصية ذلك الرجل، إضافة إلى خمسة آلاف للحلاق" ولما كان المبلغ كبيرا، وما أملكه ليس كثيرا، التفت إلى سفانة وهمست قائلا بخجل:

"ليس لدي ما يكفي من المال لتغطية مصاريف هذا الرجل ورسوم الفندق، لكني..."

قاطعتني قائلة باستغراب:

"صديقك حافظ على الذهب وتركني، ولعلك تفعل العكس"

"لا أعرف ما تعنين! لكني بكل تأكيد سأرد لك المال"

"لا أهتم بالمال، خذ هذا المعدن البغيض ولا تخجل"

وذهبنا إلى السوق وبعنا الذهب، ثم قادنا أبو علوة الرجل الخمسيني إلى فندق في ضاحية هادئة قريبة من المدينة القديمة، وحجز لنا غرفة عائلية، وحاولت سفانة أن تحتج، لكن الرجل همس لها قائلا إن استئجار حجرتين لزوجين هو أمر يدعو للشك، وأكدت لها أنني سأنام على الأرض، وسأحترم خصوصيتها، فقالت بشيء من الخبث:

"ما حدث في الحمام يجعلني التزم جانب الحذر"

ضحكت بحرج وأجبت:

"لم يحدث شيء خطير لحسن الحظ، إن شئت سأعيدك إلى عمك الطيب، لأن هذا سيجعلني أتحرك بسهولة"

ردت بغضب:

"لا تفكر في تسليمي لهم قبل أن نبني خطة سليمة"

"لدي خطة لبيع المخطوط، وبواسطة هذا المال سنحاول تحرير أصدقائنا من السجن، ونضع لعائلتك مبلغا جيدا مقابل الزواج"

ردت بقلق:

"وإذا لم ننجح في بيع المخطوط، ماذا ستفعل؟"

"سنسلم أنفسنا للسلطات أو نعيد المخطوط إلى المعلم الكبير، ونعيش في صحراء الجوف"

حين دخلنا إلى الغرفة، تصرفت بحذر شديد، أشحت نظري عنها، وتجنبت خلع ملابسي وإظهار عضلات جسدي أمامها، ولما كان الحر

شديدا، فقد أطفأت النور، واستبدلت ملابسي في الظلام، ثم اندسست تحت ملاءة خفيفة ونمت على الأرض نوما سـيئا. وفي الصـباح، صـحوت مبكرا، وطلبت من خدمة الغرف أن يجلبوا الإفطار، ثم خرجت إلى الشـرفة، وجلسـت على مقعد خشـبي أتفرج على منازل المدينة القديمة المبنية من الطين، وبهذا التصرف أتيح لسفانة أن تغتسل وتبدل ملابسها دون إزعاج. وحين أتى الإفطار عدت إليها فقالت مبتسمة:

"أنت ممثل سيء يا سام"

أجبت بعجب:

"حقا؟"

ردت ضاحكة:

"لم تترك لي مجالا لأحتشم وأهرب منك في الغرفة"

"وهل من الضروري أن تقومي بهذا الدور؟"

ردت محركة رأسها بتهكم:

"لا بد أن نشكل بعض الزحام لنلفت النظر، لكنك الآن غدوت تصنع هذا الزحام رغم أن الطريق خالٍ من المارة والمركبات"

انفجرت ضاحكا وقلت:

"لا أحب هذا الدور البغيض، لكنك تجبريني على تمثيله، على الأقل اكتشفت مرحك وخفة دمك"

"دعنا نتصرف على طبيعتنا، ولا نبالغ. ما رأيك؟"

"نعم، هذا أفضل"

أصبح الجو طبيعيا في الغرفة، لذا انشغلت بالتواصل مع موقع الفاتيكان الخاص بالمكتبات، وعرضت عليهم صورة من المخطوط المعروض للبيع، فطلبوا أيضا ملخص عن فكرة المخطوط ومحتوياته، فأرسلت لهم ملخصا صغيرا عنه، فعرضوا علي مبلغ خمسة مليون دولار وهو المبلغ

الذي عرضوه على المعلم الكبير، وطلبوا مني أن أضع لهم عنواني ورقم هاتفي، حتى يرسلوا لي المال، فأعطيتهم موعدا للقاء بعد ثلاثة أيام الساعة الخامسة مساءً، في المطار القديم عند المدرج الشمالي، وهو مطار مهجور قريب من الفندق حدثني عنه أبوعلوة بأنه أنسب مكان للقاء بين طرفين متكتمين، ولم تعد تهبط عليه سوى مروحيات الشركات الأجنبية التي تعمل في حقل النفط..

التقيت بعد الظهيرة بالرجل الخمسيني أبوعلوة، وطلبت منه أن يدلني على ناسخ كتوم شاطر يصنع لي نسخة من مخطوط قديم، فأخذني إلى ناسخ في بيت صغير، تحيط به الأوراق والكتب من كل جانب، وبوسع أي رجل أن يقضي عليه بواسطة عود ثقاب يلقى بالخطأ على الأرض، لذا كان مكتوبا على ورقة كبيرة معلقة بالحائط "يمنع التدخين، وإذا شئت أن تحرق رئتيك فافعلها خارج منزلي المكتظ بالورق"

قال الناسخ ـ الذي لم يكشف عن اسمه ـ بصوت حاسم:

"أريد صور ورقية وصور هاتفية ومبلغ مئة ألف ريال"

قدمت له تلك الصور الورقية، ونقلت الصور الأخرى إلى هاتفه وقلت:

"لكني أريد هذا المخطوط المنسوخ بعد يومين"

وبعد أن أفصح عن موافقته سلمت له مبلغ خمسين ألف ريال، وهمس الرجل الخمسيني له أن يكتم الأمر عن السلطات، فهز الرجل رأسه باحترام، واندهشت من تصرف رفيقي، إذ كنت أظن أنه يجهل أهمية ذلك المخطوط، وفي طريق عودتنا إلى الفندق قلت له باهتمام:

"سمعتك تطلب من الناسخ أن يكتم أمر المخطوط عن الشرطة"

رد بصوت هادئ:

"نعم"

"أتظن أن هذا المخطوط مهم للغاية، وأن هناك من يراقبنا؟"

"بالطبع، إنهم دائما يراقبون الناسخين، ولا ريب أن المخطوط مهم لأننا عرضناه للبيع"

قلت باهتمام:

"هل تعرف محتواه؟"

"وكيف أعرف محتواه وأنا لم أتصفحه!"

بدت عيناه ضبابيتين، ونبرات صوته تخفي شيئا ما، وحدست أنه يعرف أشياء كثيرة، لكنه رغم ذلك يقدم خدماته بتفانٍ قل نظيره، وهذا ما يهمني في الأمر. كان يتحتم أن أثق به، لذا عرضت عليه مشكلة رفاقي المعتقلين راجيا منه أن يعرف مكان اعتقالهم، ويفهم سبب ذلك، ويرى إذا كان هنالك إمكانية لإطلاق سراحهم، فدق الرجل صدره وانصرف.

وبقينا في حالة فراغ وانتظار في الفندق، لذا اقتربت من سفانة وصارحتها أني أحببها منذ رأيتها أول مرّة، لكني كتمت مشاعري بسبب ارتباطي بهند، واحتراما لصديقي نصر، وأني حقا أريد أن أكمل حياتي معها، وقد سبق أن لمّحت لها أنني سأقابل عمها لأجل الزواج، فقالت بدلال:

"لقد كنت تبدو مضطربا حين تراني أتحدث ونصر، وسأرى إن كنت تحبني فعلا أم لا!"

ومدت يدها نحوي كأنها تود أن تصافحني، فوضعت يدي في يدها مبتسما وقلت في حيرة:

"ماذا تريدين مني أن أفعل؟"

صاحت بارتباك غريب:

"اطلبني للزواج"

ضحكت وظننتها مزحة، فقلت بمرح:

"يا سفانة بنت سلطان العوفي، هل تقبلين بي زوجا لك على تشريع الرب وميثاق الحب؟"

ردت بصوت عالٍ:

"نعم، أقبل"

وأضافت بشيء من الخجل:

"يا سام بن علي شادين، هل تقبل بي زوجا لك على شريعة الرب وميثاق الحب"

أجبت بجذل:

"أقبل من كل قلبي"

كان هناك خاتم بسيط رخيص على الطاولة، أشارت لي أن ألبسها إياه، فألبستها الخاتم باهتمام، ومن ثم قالت لي بخجل:

"الآن يجوز لك أن تحضن زوجتك وتقبلها..."

وأغمضت عينيها، وقفزت إلى صدري، وتشبثت بي وهي تضحك، وكنت أضحك أيضا وأحاول عبثا أن أوقفها، لكني شعرت بي أسقط معها على السرير، وإثر ذلك لم أشعر بأي شيء سوى اللذة المفرطة، وحين انتهينا تنهدت، وبقيت صامتا أفكر فيما حدث، حتى أفاقت سفانة بعد لحظات من الخدر، وقالت بشيء من الحرج:

" أصدقني القول يا سام! هل مازلت تحبني الآن؟ "

قلت بانتباه:

"ما يجعلك تشكين في حبي؟"

ردت بصوت مختنق بالبكاء:

"لأني لست عذراء كما ترى"

قلت بانفعال عجزت أن اكتمه:

"أهو عزيز بن زهران زعيم القبيلة؟"

ردت بحنق:

"إنه هو، لكني لم أجرؤ أن أصارحكم بما حدث عندما التقينا للمرة الأولى، حتى نصر لا يعلم شيئا"

قلت باستخفاف ظاهر:

"إنه مجرد غشاء، لكن الخداع أمر بغيض"

ردت بخوف:

"دعنا نتجاهل ما جرى، ونمضي في حياتنا بسلام"

قلت والدموع تتراقص في عينيّ:

"سأتجاهل الأمر بعض الوقت، لكني سأكسر عنقه حين أفرغ من مشاغلي"

"ماذا بوسعك أن تفعل أمام ذلك الطاغية؟"

"سأثبت لك أني أحبك، وسأشفي غليل دموعك المجروحة منه"

وضممتها إلى صدري بحدب شديد وحب خالٍ من الشفقة المؤذية للنفس، كانت المسكينة ذاهبة إلى تلك القبيلة لترمي نفسها في منزل ذلك الزعيم البغيض الذي من المحتمل أن يقذفها إلى الخارج منكرا أن يكون هو الفاعل، ومن ثم ستجد نفسها عرضة للفضيحة والقيل والقال، وأما إن بقيت صامتة لا تحرك ساكنا، ثم تزوجت من شخص أحمق فإنه لا ريب سيرمي بها إلى عائلتها في ليلة الدخلة، مطالبا باسترداد المهر الذي دفعه، وقد تذبحها عائلتها كنعجة لتمحو العار الذي لحقها، يا له من مجتمع سخيف يربط شرفه وكرامته بغشاء البكارة. ما يدفع بعض العائلات للذهاب خلسة إلى أطباء الجراحة لصنع غشاء بديل، وكأنهم بهذا يستعيدون شرفهم وكرامتهم. دار هذا في ذهني، فتفلت على الأرض بتأفف وتناسيت الأمر. وقضينا أجمل يومين في حياتنا، نأكل ألذ الوجبات المحلية، وتفرجنا على معالم مدينة مأرب القديمة، ثم أخذنا جولة كاملة في السد الشهير.

في اليوم الثالث، في الساعة الخامسة إلا ربع، تركت سفانة بالفندق رغما عنها، تحسبا للمفاجئات السيئة، وذهبت وأبو علوة أو الرجل الخمسيني إلى المطار القديم، وانتظرنا أمام المدرج الشمالي، وفي تمام الخامسة أتت طائرة هيلوكوبتر تابعة لشركة أرامكو كما ظهر من شعارها المرسوم على جسدها الملون بالأحمر الغامق، وهبطت قرب المدرج، ونزل منها أربعة أشخاص يلبسون ملابس مدنية حديثة، اثنان عليهما بذلتان رسميتان ذوات لون كحلي، لهما سحنة أجنبية واضحة، ويحملان حقيبتين إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، والثالث يلبس بنطال جينز أزرق وسترة رمادية ويبدو من سحنته أنه رجل محلي من المناطق الساحلية، ولكن حين تكلم ظهرت نبرات لهجة بلاد الحجرية في صوته. والرابع يلبس زي حارس أمن مفتول العضلات مسلح بمسدس أمريكي الصنع نوع أوكلوك، رأيناهم يتلفتون بحذر، فأشرنا لهم أن يقتربوا، فأتوا إلينا للتو، وحين وصلوا أمامنا رفع أحدهم أصهب الملامح راحته بالتحية، وابتسم كعادة الأجانب، وتكلم باحترام فيما كان الرجل المحلي يترجم قوله:

"مرحبا! أدعى كيفن جوزيف، وأنا هنا لمقابلة السيد سام شادين"

فقلت مبتسما برحابة:

"مرحبا! أنا سام شادين"

وصافحته فقال:

"سعيد بمقابلتك، لا شك أنك تعرف أننا هنا من أجل المخطوط"

فقلت بسرعة:

"نعم، أعرف. إنه معي"

وأشرت للرجل الخمسيني، فقدم لهم المخطوط قائلا بنبرات جافة:

"أين نقودنا؟"

رد الرجل الأجنبي الآخر الذي يمسك الحقيبة الكبيرة قائلا:

"ليس قبل أن نتأكد أنه الأصلي والمطلوب"

قلت بشيء من التسامح:

"هذا أمر لا يدعو للقلق"

أخرج كيفن من حقيبته جهازا يشبه الاسكانر وضع ورق المخطوط على شاشته واحدة تلو أخرى، وظل يضغط على الأزرار، وما لبث أن أشار قائلا بخيبة أمل واضحة:

"نسبة الكربون ضعيفة، ما يعني أن هذا المخطوط عمره يوم واحد"

قلت بيقين:

"هذا نموذج، ومازال الأصلي في حوزتنا"

وأشرت إلى رفيقي أبو علوة أن يقدم المخطوط الأصلي، فقدمه مبتسما قائلا:

"ها هو، إياكم أن تنكروا"

ورأيتهم يبتسمون ويهزون رؤوسهم برضا وهم يشيرون إلى الشاشة بفرح، ثم ما لبث الرجل الأمريكي كيفن أن قال مبتسما:

"المدة الزمنية صحيحة، وبقي أن نتأكد أنه هو المخطوط المطلوب حسب الملخص، وسندع المترجم يترجم لنا سطور عشوائية من كل صفحة"

وراح المترجم ينتقل، ويقرأ سطور عشوائية من كل صفحة، لأني كنت قد بعثت لهم نسخة مصورة منه كما طلبوا، ولا شك أنهم ترجموا كثيرا منها، واكتشفوا أهميتها، لذا لم يمكثوا طويلا في الترجمة، بل انتهوا سريعا، وقال كيفن مبتسما للرجل الآخر الذي يحمل الحقيبة:

"قدم لهما المال"

وفتح الرجل الحقيبة الكبيرة، وأراني النقود المرصوصة داخلها بانتظام، وقال بشكل آلي:

"خمسة ملايين"

"مهلا حتى نفحصها ونعدها، سأدع أبوعلوة يجلب الجهاز"

وأشرت لرفيقي الخمسيني أن يجلب الجهاز، فبدا مرتبكا لا يفهم شيئا، إذ لا يوجد جهاز أو شيء من هذا القبيل، لكنه ذهب إلى السيارة، وعاد مبتسما بجهاز قياس الهواء في الإطارات، فانفجر أولئك الرجال ضاحكين، وقال كيفن باستمتاع:

"شكرا على هذه الطرفة، هذه من أموال الفاتيكان، ولا يمكن أن تكون مغشوشة"

قلت باهتمام:

"رغم أن بركات الرب تحيط بها، لكن صديقي أبو علوة سيفحص رزم عشوائية من هنا وهناك"

وجعل الرجل الخمسيني ينزع رزمة من هنا ورزمة من هناك، ويفحصها بعينيه الخبيرتين، ولا أعرف إذا كان حقا يدرك الفرق بين النقود الأصيلة والمغشوشة أم إنه فقط يفعل ذلك لمجرد إرباكهم وإظهار أننا لسنا من الأشخاص الذين يسهُل الضحك عليهم. وما لبث صديقي أن قال باهتمام:

"النقود جيدة"

قلت بشيء من الحذر والخوف:

"بقي شيء واحد وهو أمر أخلاقي نرجو أن يكون ملزما لكم في حال طرأ أمر ما"

رد الأمريكي كيفن قائلا بحذر:

"ما هو هذا الأمر الأخلاقي؟"

قلت بجدية وحرص ناظرا نحو المترجم:

"يحاول الكثيرون في الداخل والخارج الحصـــول على هذا المخطوط، وهناك من يطاردنا لاستعادته، حتى صارت حياتنا عرضة للخطر، لذا لا قيمة لهذا المال إن قبض علينا الأصوليون المسلمون"

نظر كيفن إلى ساعته بقلق، ثم ما لبث أن أخرج كرتا خاصا عليه عنوان أو شيء ما باللغة الإنجليزية، وقال ببساطة:

"المعذرة، لا أعرف ما ترمي إليه بشكل دقيق، لكن إن قابلكم أمر خطير، احضروا إلى مقر شركتنا، ونحن نستطيع أن ننقلكم جوا إلى مكان آمن خارج البلد"

رفعنا أيدينا بالتحية، وعدنا نحو الفندق، بدت الحقيبة ثقيلة للغاية وكبيرة بحيث لا مجال للشك أن مبلغ مقداره خمسة ملايين دولار يسكن فيها، وقد حملها رفيقي ووضعها بيني وبينه على المقعد الأمامي، وبالكاد استطعنا حشرها بشكل طولي، ولاحظت أنه صار لائذا بالصمت وشاردا، وانعكس من عينيه وميض غريب، وفهمت أن مثل هذا المبلغ الضخم يجعل الأنبياء والقديسين يتخلون عن وقارهم ومبادئهم، لاسيما ونحن نقيم في منطقة صحراوية عدائية، لا يتورع رجالها عن اقتراف أي شيء مقابل المال. لذا نظرت إلى الرجل الخمسيني الطيب وقلت محذرا:

"اسمع يا رفيقي الطيب، مازلت أجهل اسمك وأشياء كثيرة عنك، وهذا لا يهم، الأهم هو أن نكون صادقين مع بعضنا قدر الإمكان، كما ترى، إنها مجرد أوراق سخيفة رغم أهميتها، وسأعطيك منها ما يجعلك ثريا بقية عمرك، لذا أنصحك أن تطرد أي أفكار سيئة قد تدخل إلى رأسك"

نظر إليّ باستخفاف وقال:

"ماذا تنتظر إذا، ها قد انتهينا؟"

قلت ضاحكا:

"بل نحن في البداية، ومدة أسبوع ليست كبيرة على ما أظن، وبعدها ستحصل على نصيب واحد منا بعد أن ننتهي من المهام"

انفرجت ملامحه بسرور وقال:

"وكم نصيب الواحد منكم؟"

قلت مجازفا بالتكهن:

"حوالي نصف مليون قد تزيد أو تنقص حسب الظروف القادمة"

"كيف بوسعها أن تزيد أو تنقص يا رجل؟"

قلت بشيء من التوقع:

"تزيد مثلا بانسحاب أحد رفاقنا أو رفضه المال، وقد تنقص مثلا باحتياجنا لمبلغ كبير أثناء تأدية المهام أو انفاقنا مبالغ إضافية لم تكن في الحسبان، سأحتفظ بهذا المال، وأنت تصدر لي التوجيهات بالنفقات التي نحتاجها لتحقيق المهام، ولا أخالف لك أمرا"

بدا مستمتعا بهذه اللحظة وعاد إلى طبيعته السابقة تقريبا، وقال:

"اتفقنا، لقد طرت الشيطان من رأسي، وقررت أن آخذ اللقمة السهلة، لذا أرجو أن أعلم ما هي المهام المتبقية التي سنؤديها حتى نسرع في تنفيذها"

"هي ثلاث مهام فقط، نكتب وثيقة زواج، ونساعد رفاقنا على الخروج من السجن، والثالثة نذهب إلى إحدى القبائل لأصفي حسابي مع شخص خائن"

رد أبوعلوة بنشاط:

"سأتولى المهمة الأولى وكذلك الثانية"

"هذا جيد، وأنا سأنفذ المهمة الثالثة، لكني أيضا لن أستغني عن مرافقتك لي أثناء الرحلة"

كان الرجل الخمسيني قد أمرني أن أدفع مبلغ خمسين ألف دولار لصالح مجموعة من الضباط لكي يوقفوا تحقيقاتهم القاسية لرفاقي المعتقلين، وقدمها أبوعلوة لشخص ما ذي سحنة عسكرية واضحة رغم أنه كان

يرتدي ملابس مدنية، ووعده بالمزيد في حال أُفرج عنهم، وسمعت أنهم أوقفوا تعذيبهم بالفعل، وباتوا يضغطون على قادتهم، قائلين إن اخلاء سبيل أولئك الأسرى هو الحل الأمثل لأنهم أبرياء لا يملكون أي مخطوط، ويستحسن اخراجهم ومراقبتهم بدلا من تعذيبهم على شيء لا يعرفون عنه شيئا، ولو كانوا يعلمون شيئا لاعترفوا بسبب ما تعرضوا له من آلام، كما تم إيقاف التحقيق معهم بشكل نهائي، لكن القادة ظلوا يتشاورون حول ما ينبغي أن يفعلوا بشأنهم زاعمين أن تهمهم كانت كثيرة، وعلمت أن مداعس هرول إلى الأمن السياسي حين سمع عن القبض على امرأتين ضمن خلية تهريب خطيرة، وأخذ يناشد أصدقائه مليا أن يفرجوا عنها، حتى قيل له إنها قد تكون متورطة بتهريب مخطوط خطير، واعتناق دين جديد، ومطلوبة من جميع الأجهزة الأمنية والطوائف الدينية الإسلامية رغم أن صورتها لم تظهر في الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي، لكنها لسوء الحظ رافقت أخطر عصابة تهريب في البلاد، ولا دليل يثبت أنها مختطفة كما يزعم... بعد أن سمع الأب ذلك هز رأسه بغضب، ثم أفصح قائلا إن على الساقطة تحمل عواقب أفعالها، وأنه لا يعرفها، وعاد للتو إلى قريته في الشمال متجاهلا أمرها.

وأقبل السلفيون طالبين من السلطات الأمنية بتسليم ابنة مرشدهم الروحي، فأخبرهم الضباط أن الفتاة التي يريدونها مازالت هاربة هي وأحد المطلوبين، غير أن السلفيين لم يستسلموا، بل قاموا بإثارة موضوع اختفائها في صحفهم، ونشروا صورتها وهي ترتدي النقاب، بيد أنهم ربما أرادوا أن يجبروا السلطات الأمنية على البحث عنها، وهكذا ظهرت صورتي وسفانة في أرجاء مأرب والمديريات التابعة لها، وكانت المنشورات تطلب من المواطنين التبليغ عند رؤية أحد الشخصين، ووضعوا لي صفة مختطف ولها صفة مختطفة، ووضعوا جائزة مالية تساوي مليون ريال لمن يدلي بمعلومات عن مكانها، ولم يذكروا شيئا عن المخطوط أو الانتماء للمسيحية، لذلك كنا نسير متنكرين، ونمر ذهابا وإيابا أمام الدوريات والحواجز الأمنية دون أن يلتفت إلينا أحد، وأحيانا

نتصفح صورنا مثل جميع الفضوليين، وكان بعض الشباب الأوغاد لا يصدقون أن الأمر له علاقة بالاختطاف، وزعموا أن مرشد السلفيين ظل طوال حياته يعظ المؤمنين على حسن تربية بناتهم، متهكما على ملابسهن الضيقة التي تظهر المفاتن، وعلى وجوههن المليئة بمساحيق التجميل، وهكذا انشغل في عيوب الآخرين، ونسي أن يحترس على ابنته من الفرار مع عشيقها، وها هي نظرات عينيها لا تكشف عن ضحية اختطاف، بل عاهرة صغيرة تبحث عن إشباع جوعها الجنسي المفرط، وكادت سفانة البريئة أن تشتبك في شجارٍ حامٍ مع الشباب الذين كانوا يتحدثون على هذا النحو قرب قسم شرطة المدينة القديمة، ولكني اعتذرت لهم بلطف، واستطعت أن أسحبها بعيدا قبل أن يرتابوا في أمرنا.

ومنذ ذلك اليوم، بقينا حذرين من الاقتراب من مراكز الشرطة أو ملصقات الصور، بدت سفانة حزينة بسبب ما تعرضت له عائلتها من مهانة وإذلال، كان الشعور بالعار يلطخهم ويجعلهم خافضين رؤوسهم بين الناس، أما هي فقد اعترفت بأنها حقيرة إذ انجرت خلف ذلك الشاب الوجيه الذي كان يتردد على والدها مدعيا أنه وقبيلته يحبون المذهب السلفي، وفي يوم تعثرت به قرب منزلهم عقب عودتها من المسجد، ورغم ملابسها المحتشمة بلغت به الوقاحة أن يرمي لها رقم هاتفه الجوال، وكأنه يعلم أنها من الصنف القابل للسقوط في شباك الغرباء، ولم يبد لها غريبا، إذ كان وجهه مألوفا تصادفه بين حين وآخر قرب الدار، وهكذا سولت لها حياة العزلة والكبت التي تعيشها أن تتصل بالشاب الذي ظنته فارس أحلامها، وتواصلا بالهاتف بعض الوقت، ثم تقابلا مرات عديدة، وبأماكن عامة لا تبعث على الارتياب، وأوهمها أنه يعشقها بجنون، وأقنعها أنه سيتزوجها لا محالة، حتى استطاع بلسانه الخبيث وتصرفاته الودودة أن يأخذها إلى شقة مفروشة يملكها بالمدينة، وهناك وضع لها شيئا ما في عصيرها، وحين أفاقت في المساء لم تجد أحدا، وعرفت ما جرى، لقد خرق النذل غشاء بكارتها، واختفى كأنه قالب ثلج ذاب تحت الشمس، كما ألغى رقم هاتفه، ولم تحتفظ سوى باسمه ومحل

سكنه في عبيدة، وبقيت بحال يرثى له من البكاء والاضطراب، ولم تعد تستطيع أن تأكل أو تشرب، وانتبه والداها إلى حالها المتأزم بعد بضعة شهور، وكان أبوها وهو رجل الدين المتشدد، يعرف حلا واحدا لمثل هذه الحالات الغريبة التي تنتاب البنات الشابات، وهو الزواج، لذا غمز أحد معارفه السلفيين، وهو رجل راشد متزوج بامرأتين، فجاء يطلبها للزواج، وفي مساء ذلك اليوم سرقت سفانة مسدس والدها، وهربت إلى منزل زبن الله الذي عرفت من إحدى النساء أنه كان يشتغل بالتهريب. ولم يكن في ذهنها أي خطة سوى أن ترغم عزيز على تنفيذ وعده أو تصرعه برصاصة، حبذت أولا أن تعرف السبب الذي جعله يقترف ذلك الفعل البغيض، هل يود أن يثبت رجولته أم هو شخص مريض تعرض للاغتصاب أو إحدى شقيقاته تعرضت له، ولذلك يحب أن ينتقم من جميع الفتيات والعائلات المحافظة؟! واكتشفت أنها صارت تكرهه كما لم تكره شيئا في الوجود، وأمست تتأفف من لحظة لقائه وتخشاها، ولكن انتهى بها الحال إلى فتاة شاردة، ثم مسيحية ضالة، واستطاعت ثانية أن تحب شخصا ما بعد أن ظنت أن قلبها سيعجز عن الشعور بالحب، فكرت أن تسلم نفسها للشيطان على أن تقابل زعيم القبيلة الوغد، وأشاعت عائلتها باختطافها بعد مقتل والدها، وبعثوا خفية مفاوضين إلى المعلم الأكبر، الذي رفض بشدة أن يسلم أحدا من أتباعه رغما عنه، وأخبرت هي المفاوضين إنها ليست مختطفة أو مرغمة، لكنها تملك أسبابها الخاصة، وستعود في الوقت المناسب لتثبت للناس أنها ليست نعجة تجري خلف الذكر، ولا شيئا حصريا مملوكا لعائلتها، بل هي إنسانة حرة وقعت في مأزق، وتريد أن تعالج مشاكلها بنفسها، وهي تهفو إلى لقاء أمها دون شروط أو ضغوط، وهناك عرفت عائلتها أنها انتمت إلى الديانة المسيحية، وقررت أن تكتم هذا الأمر الذي سيضر بسمعة المذهب السلفي، وحبذت أن تبقي الأمر محصورا على الاختطاف وحسب. معلومات جديدة قدمتها لي سفانة بعد أن توثقت بنا العلاقة أكثر، وأخبرتني أيضا أنها طلبت من المعلم الكبير ونصر أن يكتما الأمر، وإنني الشخص الرابع الذي يدرك هذه المعلومات.

وفي يوم قريب قادنا أبوعلوة الرجل الخمسيني الغامض إلى منزل شمهان كبير عائلة العوفي، وهو أكبر أعمام سفانة، متزوج بامرأتين، ويعول أكثر من خمسة عشر فردا من البنين والبنات، ويملك مكتب عقارات لبيع وشراء المنازل، لكن العمل كسد بعد وفاة شقيقه سلطان، وإثر ذلك أضحى أبناء أخيه يتصارعون مطالبين بتقسيم أموال والدهم، ولم يأبهوا بمصير أبيهم ومطاردة قتلته، كما لم يهتموا باختفاء أختهم الشاردة التي لطخت وجه العائلة بالسواد، لذا كان العم الكبير في حال يرثى له من الاغتمام والحزن والفاقة، ورث بعد أخيه رصيدا ضخما من المشاكل التي يجب أن يجد لها حلا باعتباره كبير العائلة. لأجل هذا استغل الرجل الخمسيني هذا الوضع المشين، وعرض على العم شمهان أن يجلب الفتاة بشكل سري، ورجلا طيبا يرغب أن يتزوجها، والمأذون الشرعي، مقابل مهر كبير جدا يحل مشاكله المالية، وليس عليه سوى أن يعقد بها للرجل عقدا دينيا شرعيا، واشهار خطوبتهما أمام أقاربهم ومعارفهم، وليعرف القاصي والداني أن ابنتهم ضغطت على خاطبها أن يطلب يدها من كبير العائلة ويعقد عليها على مرأى ومسمع. وحين الانتهاء سريعا من العقد يأخذ الرجل زوجته ويغادر.. وتهلل وجه الرجل الكبير في العائلة، ووافق على الفور، وبعث للأقارب والمعارف أن يحضروا خطوبة وعقد إحدى بنات العائلة، ولم يسمها أو يكشف عن هويتها حتى لأمها تحوطا، وهكذا انتظر الرجال والنساء قدومنا، وحين وصلنا دخلت سفانة على أمها وشقيقاتها وقريباتها، فارتفعت الزغاريد حتى ارتج الحي، وحاول أشقاء سفانة أن يثيروا الفوضى، لكن رجال العائلة أوقفوهم، وسيطروا على الموقف. وقدمت لعائلتها مهرا يساوي مئة ألف دولار، وهو أكبر مهر تم دفعه لفتاة في المحافظة كلها. وتم كل شيء بسرعة، وعدنا للتو إلى الفندق، ثم انتقلنا إلى بيتٍ آمن وسط المدينة القديمة، وكل هذا حدث بهدوء تحت رقابة وإشراف أبو علوة أو الرجل الخمسيني الغامض.

الخديعة المضادة

كانت المعلومات عن المهمة الثالثة شـــبه مكتملة، فزواج عزيز زعيم القبيلة، سيتم يوم الخميس القادم، وهو الزواج العاشر أو الخامس عشر، لا أحد يعلم. فهو مثل شــهريار الملك كان يتزوج النســاء، ولا يقتلهن كما كان الملك يفعل، بل يطلقهن سريعا. وهو شاب مدلل في العشرينات من العمر، سمعته سيئة، يسير من حين لآخر إلى المدينة، ويصطاد الفتيات بحيل رومانســـية أو بالمال، ويفض بكاراتهن، ثم يتركهن أو حتى يتزوجهن ويطلقهن بعد أيام من الزواج، ولا يعرف أحد ما يدعوه لهذه الأفعال القبيحة، وقد وقعت بفخاخه فتيات كثيرات وتلطخت وجوه عائلاتهن بالسواد، ولم يستطع أحد من أقاربهن أن ينال من هذا الشاب العابث، فهو محمي بقبيلة عبيدة أكبر قبيلة في مأرب. وفي كل زفاف كان يطلب المهرجين والفنانين لحضور عرسه واحيائه وامتاع أفراد قبيلته. ثم ينقدهم أجورا زهيدة أو يطردهم بلا أجور، ولا أحد يجرؤ على الشــكوى منه، لأن الشاكي سيموت بطلقة نارية عند باب المحكمة أو وسط السوق.

واســتطاع أبوعَلْوه أن ينشــر إعلانات كثيرة عن المهرج "صَــفَد" الذي يمتع الجمهور بمهاراته الســـحرية التي لا نظير لها، وأنه لأول مرة سيعرض ألاعيبه في محافظة مأرب، فاتصل به سماسرة الشيخ عزيز، وطلبوا منه أن يقيم عرضـــه في قبيلتهم، وهم ســـيكرمونه ويجزلون له العطاء، كان يعرف أنهم يقولون ذلك لأي فنان أو ممثل لا يعرفهم من قبل، ثم يطردونه بعد انتهاء العرض، لكنه لم يكترث. كان أمامي يومين فقط لأتعلم الخدع والألعاب السحرية، فتصفحت بعض الخدع البسيطة من النت، وهي عبارة عن ألعاب خفة تقوم على أساس خفة اليد والسرعة في الحركة، ما يوهم الجمهور أنك تحول خيطا أو عصـــا إلى أفعى، وفي

الغالب يكون هناك أفعى صناعي مطاطي يتحرك ذاتيا مختبئا بين ثيابك، تخرجه في الوقت المناسب بسرعة شديدة، ثم تخفي العصا في ثقب عمودي في المسرح. كما تعلمت أن أشطر رجلا بالمنشار إلى نصفين، وخدعة تحويل الحمامة إلى أرنب أو الأرنب إلى حمامة، وغيرها من الأمور التي تبدو شائكة، لكنها في الحقيقة سهلة للغاية، وتحتاج إلى ذكاء وتركيز وسرعة لأدائها أو لكشفها. وخرجنا لشراء هذه الحاجيات المتنوعة، واستأجرنا شاحنة قديمة تشبه ما يستخدمه الغجر في شرق أوروبا، أو لاعبو السرك في شرق آسيا. وبقيت أتدرب من الصبح إلى منتصف الليل حتى أتقنت بعض الحيل اتقانا تاما، لكن الحيلة الأبرز التي اعتزمت أن أستخدمها، هي التنويم القتالي، وهي ليست حيلة بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هي عملية حقيقية قاسية تعلمتها من أحد مدربي الفنون القتالية، حيث يكون بوسعك أن تلف ذراعك على عنق الخصم من الخلف، وتضغط عليه بدرجة معينة من القوة بحيث تقوم بتنويمه لمدة ربع ساعة، وأحيانا نصف ساعة، فيبدو الخصم شاحبا كالميت، ثم فجأة يتحرك وينهض بعد أن يكون من حوله قد فقدوا إيمانهم بنجاته. وهذه العملية لا يتقنها سوى المدربون البارعون أو المقاتلون الذين يفهمون بالتوازن، أو بمعنى آخر الذين يعرفون الحد الفاصل بين الحياة والموت. لأن أقل خطأ قد يجعل الخصم صاحيا دون نوم أو ميتا، وكنت ممن يجيدون عملية تنويم الأشخاص الذين أقاتلهم، وقد حذرني المدرب عن استعمالها بكثرة لأنها أحيانا قد تفشل لأسباب صحية وجسدية، وبعض الأشخاص المصابين ببعض الأمراض التنفسية كالربو أو ضيق التنفس، قد يموتون في وضع التنويم الطبيعي. وبوسع المرء أن يعرف هؤلاء الأشخاص حين يدوخون بوقت سريع عن المألوف، ومن ثم يتحتم أن ترفع يدك عن أعناقهم حالا. لا يهم، فأنا لم أصادف هذا النوع من المرضى، وقد جربت أن أفعلها هنا في مأرب بثلاثة أشخاص من أصدقاء أبوعلوة، ولم أخفق فيها. ودربت سفانة على بعض المهارات والخدع الصغيرة، وكانت مهمتها هي أن تضغط على قنينة ماء بلاستيكية فارغة لتصدر صوتا يشبه تهشم العظام، لذا أطلقت على عملية التنويم اسم

"عملية كسر العنق" لأني سوف ألف عنق الخصم على نحو يوحي بالقسوة حتى يسمع الجمهور صوت تهشم عظام العنق، الذي هو في الحقيقة صوت البلاستيك المضغوط، وفي النهاية بعد ربع ساعة إلى نصف ساعة يستيقظ الرجل من سباته.

في اليوم المعلوم، أخذنا شاحنتنا العجيبة التي أضفنا إليها لمسات سحرية وفنية، فجعلتها تبدو كآلة سحرية مرعبة، ويمكنك أن ترى جماجم بشرية وحيوانية تتدلى عليها، بعضها ليس حقيقيا، وسلاسل من الأصداف والقواقع، حتى أشكالنا أستطاع الحلاق أن يجعلنا كالمهرجين والسحرة الحقيقيين الذين جلبت له صورهم من الانترنت. كذلك سفانة غدت كالساحرات في الحكايات الشعبية، وأنا أصبح شكلي مثل شخصية الجوكر. وانطلقنا نحو عبيدة في المساء. كان أبو علوة يقود الشاحنة، وقد قام بتغيير ملامحه بما يتناسب مع مكانته الجديدة كسائق شاحنة المهرج "صفد"، جلسنا بالخلف قرب حقيبة النقود التي أسدلت عليها أغطية قذرة حتى لا يتكهن أحد أنها تحوي أكثر من أربعة ونصف مليون دولار، كما تركت إلى جوارها صناديق زجاجية تحوي أفاعي حقيقية وعقارب استأجرناها من أحد مروضي الأفاعي. لذا حين غادرنا الشاحنة حذرنا الأهالي من الاقتراب أو لمس أي شيء في الشاحنة، لأن الأفاعي ستخرج من أقفاصها وتلدغ كل من تسول له نفسه سرقة أو حتى لمس محتويات الشاحنة.

وصلنا إلى القبيلة في الثامنة مساءً، كان الميدان الذي تقام فيه الألعاب مزينا، وأضواء الكشافات الكهربائية تضيء الساحة العريضة بضوء باهر. كانت هناك مقاعد كثيرة في جناح الضيوف، والغالبية منها صار شاغرا، ومازال البقية يتوافدون لاسيما بعدما شاع خبر الساحر "صفد" في الأرجاء، وظهر العريس العابث متبجحا في المقدمة جالسا على مقعد مرتفع، ويرتدي ملابس شعبية لعريس مترف، يمسك بيده بندقية مزينة، وعلى رأسه عمامة متوجة بالزهور البيضاء، بدا مميزا بوجه حنطي البشرة، وفوق حاجبه الأيسر ثجة مائلة مثل طعنة خنجر، له لحية مشذبة،

ومسبحة يلعب بحبوبها بغطرسة شديدة، وما لبث أن طلب حضورنا إلى أمام الضيوف لمقابلته وإظهار مهاراتنا وعروضنا المدهشة. وحين وقفنا أمامه فقدت سفانة أعصابها، وهجمت عليه صارخة بصوت بدا مكبوتا مخنوقا "أيها القذر، سأقتلك"، فأمسكتها بلا شعور لأمنعها من فضحنا، ولففت ساعدي على عنقها بطريقة قتالية، ونظرت إلى الرجل الخمسيني أبو علوة غامزا، فأدرك ما أريد منه، لذا أمسك الميكرفون اليدوي الذي يتصل بمكبر صوت يستخدمه الباعة في الغالب لترويج بضائعهم، وصاح قائلا بحماس: "أيها العريس المجلل أيها الضيوف الأعزاء، إليكم عملية كسر العنق، هذه أول تمثيلية سحرية نقوم بها، وسوف نجعل هذه الفتاة الساحرة تموت، ثم تصحو بعد ربع ساعة إلى نصف ساعة"

حين فرغ من كلامه كانت سفانة منكسة رأسها، وما لبثت أن كشرت عن أسناني متقمصا دور الإرهابي الشرير، وصحت قائلا بقسوة:

"أيتها المرأة الشريرة أرهقتني بمطالبك التي لا تنتهي، لذا سأكسر عنقك"

ولويت عنقها بطريقة عصبية، وضغط أبو علوة خلسة على قنينة فارغة في يده، فطقطق البلاستيك، فصاح الجمهور بفجيعة: "لقد حطم عنقها، هذا الرجل قاتل وليس ساحرا" "انظروا هل مازالت تتنفس!" أسقطت سفانة رأسها جانبا، وشحب لون وجهها، وبدت ساكنة بلا حراك. فطرحتها على الأرض وهي مرخية ذراعيها بشكل لا يدعو للشك بأنها ميتة، فزاد الهمس واللغط، ونهض العريس عزيز واقترب منها، وحاولت أن أمنعه بدافع الغيرة، لكن مرافقيه المسلحين أمسكوني، فأخذ يجس جسدها بطريقة سافلة، ويضع أذنه فوق ثديها الأيسر وكأنه يحاول سماع نبضها، وبقي دقائق طويلة، ثم فتحت عينيها بشكل مفاجئ على وجهه الكريه المثجوج، فصاحت، حتى أجفل مفزوعا، وعاد إلى مقعده وهو يرجف بخوف، وحاول تبرير فزعه قائلا: "لقد كانت ميتة، أقسم لكم! هذا ساحر خطير فعلا" أخذ الرجل الخمسيني أبوعلوة سفانة إلى الشاحنة، وطلب منها أن ترتاح قليلا حتى تهدأ ثم تعود لاستكمال المهمة. وعاد رفيقي مسرعا، إذ طلب أحد الضيوف أن يخضع لهذه التجربة المثيرة،

وبعد ربع ســـاعة نهض قائلا بأنها ألذ تجربة يمكن للمرء أن يفعلها في حياته، وأطلق عليها اســم "الموت اللذيذ"، وهكذا راح الضــيوف يطلبون مني أن أقتلهم بتلك الطريقة، وخلقوا زحاما شـديدا حولي، لذلك قام رجال عبيدة بتنظيمهم في طـابور طويل، وصـــرت أنومهم واحدا تلو الآخر والرجال يلقون بهم جانبا حتى أمســت الســاحة مليئة بالأجســاد المنومة، وأصـيب سـاعدي بالتشـنج، وبات المنومون ينهضـون ضـاحكين طالبين مني أن أنومهم وأكســـر أعناقهم ثانية، لكني رفضـــت إعادة التجربة للأشـــخاص الذين نومتهم، وفي النهاية تجاهلت طلبات الجميع بســـبب تصلب ساعدي، لكن خال العريس أصر أن أنوم شخص واحد فقط، وهو العريس، ولا أحد غيره، ومن ثم نختم الأمســـية بتلك العملية الأخيرة، وتلكأ العريس، لكن جميع من حوله شـجعوه على المشـاركة بتلك التجربة المثيرة، فأتى إليّ مترددا متجهما، فأمسـكت عنقه بقسـوة، وما فتئ يختنق ويتخبط على الأرض عاجزا عن الصــراخ، وهم يصــفقون ويرقصــون حوله بمرح، ثم اســتجمعت طاقتي ولويت عنقه بعنف شـــديد حتى دوى صـوت تهشـم عظام عنقه، ولم تضـغط سـفانة على القنينة حسـب الاتفاق. وأمســى عنقه يتحرك ويدور في موضــعه بســلاســة، وارتخى جســده، وأشـرت للرجال أن يحملوه برفق، فأخذوه إلى غرفته لينام، لأن الأمسـية كانت قد انتهت للتو. وحتى لا تثار الشـــكوك طلبت من المشـــرفين على الزفاف أن يعطوني أجري، فأشاروا إلى خال العريس الذي رآني وتوارى بين الخيام، وطلب مني البعض المغادرة لأن العريس في وضــع صــعب بعد أن كسـرت عنقه، وإن شـئت الانتظار للأجرة، فيتحتم أن أمكث هادئا حتى يفيق العريس ويكســـر عنقي.. وراحوا يقهقهون بتهكم، فقلت في سري دون أن أخفف من امتعاضـي: "سأغادر حالا، وأنتم اضحكوا الآن، إذ تظنون أنفسـكم منتصـرين وحاذقين، لكن عريسـكم الداعر لن يفيق من ســباته، ولن تمر بضــع ســاعات حتى تولولوا كالثكالى، ويا ليتني حينئذٍ أسمع صوت عويلكم أيها الأوباش" ثم هرولت بغضب نحو شاحنتي وهم يضـحكون ويشـيرون إليّ قائلين: "انتظر حتى يكسر العريس عنقك، يا لك من جبان لا تريد أن تخضـــع للتجربة!" فقلت بانفعال ظاهر: "لن انتظر

أيها الأنذال، أتمنى لكم الموت" وركبنا الشـــاحنة وانطلقنا ضـــاحكين، ونظرت إليّ سـفانة بارتياب فقلت بحماس: "سـوف تسـمعين خبره قريبا هذا اليوم" وهكذا عدنا إلى المدينة، وهناك أزلنا تلك الزينة الغريبة والديكور المخيف، وتركنا الزواحف عند صـــاحبها، ثم أعدنا الشـــاحنة لمالكها الذي أودعها في فنائه الخلفي الذي تتكدس عليه كثير من المعدات وقطع الخردة.

أنجزنا المهمتين الثالثة والأولى، وبقيت مهمة إطلاق رفاقنا الأســـرى أكثر تعقيدا مما نعتقد، حتى خطرت في رأســي فكرة القيام بخديعة أخرى ضـحيتها مدير الأمن الذي لا يجهلنا أو يجهل طريق الوصـول إلينا. كان الرجل الخمسـيني أو أبوعلوة هو الذي يفاوضـه، ويبدو أن بينهما مودة ما أو معرفة خاصة أجهلها تماما، وظل القائد العسكري يعتذر له متعللا بأن وزير الداخلية والمحافظ يتصـــلان به هاتفيا كل يوم ليتأكدا أن المعتقلين مازالوا في الســـجن، وهو بالكاد اســـتطاع أن يوقف التحقيق معهم وما يرافق ذلك من ضـرب أو تعذيب. وأنه يظن أن ذنبهم كبير بسـبب اهتمام الرجلين الكبيرين بهم، ولا يفهم بعد سـبب اهتمام الرأي العام والجماعات الدينية بهؤلاء المعتقلين، ومازال البحث ساريا عن الشخصين الخطيرين الفارين، ويبدو أن وراء ذلك مخطوط خطير كما قرأ في تقرير المباحث الجنائية، لكن هذا التقرير لم يكشـف عن محتوى المخطوط الذي سـرقوه من مكان ما في الشمال، ولا يفهم بعد سبب اهتمام القادة الحزبيين ورجال الدين بالمحافظة بهذه القضـية الغامضـة. وسـأل المدير الرجل الخمسـيني عن ســـبب اهتمامه بهؤلاء الأشـــخاص الخطرين، فأجاب أبوعلوة أن شـخصـا ما يتصـل به، ويبعث له بالمال الكثير طالبا منه أن يفعل شـيئا لإنقاذهم، وهذا الرجل الســخي لا يأبه بإنفاق مئات الآلاف من الدولارات في ســبيل تحريرهم من الأســر. ولم يســتطع أن يحصــل منه على أي معلومات أخرى.

وهنا عرضـــت على رفيقي الرجل الخمســـيني أن يخدع مدير الأمن، ويعرض عليه أن يقوما بخداع هذا الرجل الثري المجهول، وذلك بإطلاق

سراح الأسرى لمدة ساعة من الزمن مقابل الحصول على مبلغ مئة ألف دولار تقدم لمدير الأمن نقدا، على أن يتم ترتيب أمر القبض عليهم من جنود يرتدون ملابس مدنية، ثم يعادوا إلى السجن، وكأن الأمر خرج من أيديهم أو بسبب سوء التوقيت أو الطالع. فصاح أبوعلوة مقاطعا بغضب:

"أتظن الأمر يمكن أن يتم بهذه البساطة؟"

أجبت بسخط:

"تصرف يا أخي، هذه المهمة من اختصاصك، انظر إن كان في جعبتك تدبير آخر يساعد على تخليصهم من الاعتقال التعسفي هذا؟"

قال بشيء من الهدوء:

"هيا أكمل خطتك لأني قاطعتك"

"نحن بدورنا سنخدع مدير الأمن، بحيث نأخذ الأسرى إلى مقر شركة أرامكو ونفر بعيدا"

ظل طويلا ممسكا رأسه حتى حفرت أصابعه خطوطا حمراء على خادعه وهو يفكر في الأمر ويزنه من جميع جوانبه، ثم ما لبث أن صاح بنرفزة رافعا اصبعه بصرامة:

"لقد ارتكبت أعمال حقيرة كثيرة مثل الغدر والخيانة والكذب، لذا حصتي هي مليون دولار، وسنقدم لهم المخطوط المنسوخ كطعم"

قلت موافقا بضيق:

"موافق، سأتنازل عن حصتي لك واكتفي بحصة سفانة، ولا يمكنك الحصول على دولار إضافي مهما كانت الأسباب"

رد بتوتر:

"بالطبع، لن أرفع من حصتي مرة أخرى، لكنها مجازفة كبيرة، امهلني حتى أرسل عائلتي إلى مكان آمن"

واتجه الرجل الخمسيني للتو إلى منزله، ثم سار نحو منزل مدير الأمن،

كانت الفوضى تعم المحافظة وصور عزيز بن زهران تملأ شوارع المدينة، والناس يتحدثون عن مقتله، وأن جثته الآن في المستشفى العسكري في قسم الطب الشرعي للتشريح، فيما انتشر رجاله حول المكان، وأبلغوا أنه اغتيل عمدا على يد مهرجٍ محتال من المهرجين الذين يحيون المناسبات، وذكروا أوصاف الرجلين والمرأة والشاحنة، لذا فإن دوريات الشرطة ظلت تبحث عن المتهمين الثلاثة في كل مكان بالمحافظة. كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرا حين وصل إلى منزل مدير الأمن، الذي استقبله استقبالا فاترا بسبب الأحداث الأخيرة التي أربكت قادة الأمن بالمحافظة، كان المحافظ يكلم المدير عن الحادث الأخير الذي وقع في عبيدة، وما إن فرغ من المكالمة حتى التفت إليه مدير الأمن قائلا بعصبية:

"المحافظ يريدني أن أقبض على قتلة عزير بن زهران على وجه السرعة، أخبرني أنت بما لديك من معلومات، فقد كنت مخبرا شهيرا"

تبسم أبوعلوة وأدى التحية قائلا:

"كما تعلم، لقد كنت عميلا مخلصا للحكومة قبل قدوم أفراد الجماعات الظلامية الذين أقصوني من وظيفتي الحساسة في شعبة المخابرات بالمحافظة، ووضعوا أحدهم في مكاني، لذا صرت أعمل لصالحي الخاص، وأعيش في ترف حقيقي"

حك مدير الأمن رأسه بقلق وقال بضيق:

"كما ترى تناثرت المتاعب في كل مكان، لذا لم أعد أهتم، فأنا كما تعلم قائد مخلص للوظيفة العامة، لكن الوزير والمحافظ يعملان لحساب الاخوان المسلمين الذين يعيثون فسادا في مأرب، ويريدان مني أن أقوم بمعجزة حفظ الأمن!"

وأردف متابعا بتهكم:

"ماذا تريد مني هذه المرّة؟ هل مازال ذلك الرجل المجهول يعرض عليك المال لمساعدة هؤلاء السجناء الغريبي الأطوار؟"

عرض عليه الرجل الخمسيني خطته بحماس، وفكر مدير الأمن قليلا، ثم رد بجشع:

"هذه فكرة معقولة، لكن ما يضمن أنهم سيسيرون نحو الكمين؟ كما تعلم، إن حياتي ومنصبي رهن ببقاء هؤلاء المعتقلين في السجن، وقد تعهدت للمحافظ بالقبض على الاثنين الفارين، واعتقال قتلة زعيم عبيدة أيضا! كما ترى، صار العمل يقتضي تقديم الوعود والكذب على الرؤساء، ولم يعد في وسعك سوى أن ترد بكلمة واحدة هي نعم"

أجاب أبوعلوة قائلا باحترام:

"أنت تعرفني جيدا، لن أخيب ظنك، سأقودهم بسيارتي إلى هناك، وأتمنى أن يتم ضبطهم كما لو أن الأمر تم دون تخطيط"

"سأعتقلهم بواسطة جنود مدنيين يتبعون الأمن السياسي، وسوف أدع الجنود يعتقلونك مدة يومين فقط حتى يصبح الأمر كأنه خرج عن إرادتنا"

رد الرجل الخمسيني قائلا بمرح:

"هذا مذهل! لا شك أن الشيطان يأتي إليك دائما ليأخذ دروسا خصوصية"
رد المدير هامسا بغضب:

"أنا لا أمزح، اجلب المخطوط والمئة ألف، وإن اقترفت أي خطأ سوف تقضي بقية عمرك في زنزانة انفرادية"

"لا تهتم، نلتقي الثامنة صباحا"

هز مدير الأمن رأسه واكتفى بتحريك حاجبيه مودعا. وهمس الرجل الخمسيني لنفسه قائلا بخبث: "سأفطر بمدير الأمن قبل أن يتغدى بي، فاعتقالي مدة يومين يعني الإعدام أو السجن مدى الحياة بتهمة مساعدة

المجرمين الفارين، وسيحبذ أن يتخلص من الأشخاص الذين يعرفون بتورطه في تهريب المعتقلين، وأخذه الرشوة. مثل هذه الأمور تحدث على الدوام، وهناك عشرات من المعتقلين تسبب شركاؤهم في الجريمة باعتقالهم لينجوا بأنفسهم أو يظفروا بنصيب أكبر من المال. وكنت أخشى أن يخدعني الرجل الخمسيني الذي اشتغل مخبرا كبيرا للدولة، ومن ثم يتفق مع مدير الأمن على الإمساك بي خلسة، وتقاسم المال الذي في الحقيبة.

في الصباح كنا ننتظر قرب مبنى الأمن السياسي بجرأة، كنت خائفا أن نكون نحن الفريسة هذه المرة كما حدث لرفاقي في حاجز مفرق مأرب، وبقيت أتلفت يمنة ويسرة متحسبا أن نباغت بالهجوم، لكن الأمر بدا حقيقيا حين خرج مدير الأمن ومدير عمليات الأمن السياسي اللذين ظهرا، ثم اختفيا بسرعة، إثر ذلك، خرج جنود مقنعون بأقنعة خاصة يقودون رفاقي واحدا تلو الآخر إلى السيارة، ولما انتهوا اقترب أحدهم من الرجل الخمسيني، وأخذ المال والمخطوط المندسان في كيس أنيق، وعاد مسرعا إلى الداخل. فجأة أتى رجل مقنع ضخم الجسد وصعد إلى المقعد الأمامي للسيارة، وطلب من السائق أن يتحرك. فانطلقنا مبتعدين عن المكان. ولم يكن هذا جزء من الاتفاق بين المدير وأبوعلوة الذي بدا عليه الاستياء والارتباك، وخشيت أن يكون الأخير قد غدر بنا، وسلمنا جميعا مقابل مكسب ما. لكنه بدا يقود سيارته بتوتر واضح مطلقا البوق بشكل هستيري يوحي باضطرابه، وقد رأيته يحرك المرآة الجانبية أكثر من مرة وصنع لي إشارة بيده المرفوعة، كمن يطلب منك الانتظار، كانت عيون رفاقي معصوبة بقطع من القماش حين صعدوا، بدت أجسادهم هزيلة وأشكالهم كالحة كأنهم قضوا أعواما في سجن تحت الأرض، وبعد أن تحررت عيونهم لم يقدروا أن يبصروا بشكل جيد، بحيث ظلوا خافضين عيونهم للأرض متحاشين أشعة الشمس والضوء، لم يستوعبوا أنهم غدوا خارج المعتقل. لاسيما نصر وهند اللذان كانا راكبين جواري وسفانة على الجزء المكشوف من السيارة، بدا الأول

شـاحبا هزيلا يرتعش بسـبب التعذيب بالكهرباء، أما هند فقد بدت شـاحبة وقذرة ولا شـــيء أكثر من ذلك. بدت بوضـــوح أكثرهم مقاومة للتعذيب بســـبب تربيتها القاســـية، ومـا لبـث نصـــر أن قـال مـاعكـا عينيـه بألم:

"الضوء يؤذي عينيّ! أين تذهبون بنا؟"

قلت بابتهاج:

"أنا سام، أنتم الآن خارج السجن"

"المجد للرب يسوع! أهذا أنت يا سام؟ لا أراك جيدا، أخبرني من فضلك كيف نجوت من الاعتقال!"

هتفت هند وهي تحمي عينيها بيدها ممعنة النظر:

"هذان الخائنان معنا هُنا، لا شك أنهما كانا يعرفان بأمر الهجوم"

ردت سفانة بحدة:

"كلا، لم نكن نعلم شيئا، كنا نستحم بأمان، وفجأة سمعنا الضجيج في الخارج، لذا بقينا مختبئين في حمامات المسجد حتى غادر الجنود، ثم هربنا بعيدا عن الحاجز"

صاح نصر في حيرة:

"أخبرني يا سام! أين يأخذونا الآن؟"

همست قائلا بقلق:

"القصة طويلة، إننا باختصار نحاول أن نخدعهم، ويبدو أنهم أيضا يحاولوا أن يخدعونا"

هتف نصر بصوت عارم:

"لا تدعهم يأخذونا بعيدا، لقد عذبونا وضربونا وأهانونا، لم يكن يمر يوم دون تحقيق وضرب بالعصي الكهربائية، لكنهم في اليومين الأخيرين أوقفوا التعذيب بشكل مفاجئ"

قلت بنبرات غاضبة:

"لقد غدر بنا المعلم الكبير أو أحد السكان المحليين أبلغ عن قدومنا، لكنكم لن تعترفوا بسبب عاطفتكم الدينية الغبية"

رد بصوت حاد:

"لا يهم إن كان المعلم غدر بنا أم شـــخص آخر! ما أنا على يقين منه هو أن كل ما جرى بسبب المخطوط اللعين، وأنهم مازالوا يريدون استعادته بأي ثمن، ولأجل ذلك عذبونا بشـــكل رهيب، ولو عرفت مكانكم لم أكن لأتردد لحظة عن الإبلاغ عن موقعكم"

قلت بشيء من الثقة:

"أجزم أن المخطوط أيضـــا هو ســـبب نجاتكم من الموت، وأظنهم كانوا ســـيأمرون بإعدامكم رميا بالرصـــاص فيما لو حصـــلوا عليه، فهناك تهم ســـخيفة موجهة إليكم كالتخابر مع العدو والقتل والاختطاف والارتداد عن الدين وغيرها..."

قاطعتني هند قائلة بصوت مخنوق:

"نحن جميعا متهمون بأبشـــع التهم! أرجوك، خُذنا بعيدا أو أطلق علينا النار، لا أريد أن أعود إلى ذلك المكان المعتم الرهيب، حيث يعذبون السجناء"

تملكني الحزن والامتعاض حين ســـمعت ما تعرضـــوا له من العذاب، لم يهتموا أن يكون بين المعتقلين رجلا كبير الســـن أو امرأة، أولئك الأوغاد تصرفوا بوحشية مفرطة، وبالكاد يستطيع العم هادي سريع السير، لكنه فاز بذلك التنافس الروحي الذي تكهن فيه بعدم عودتنا إلى عائلاتنا في الشـــمال، وهذا ينم على أنه أكثر ارتباطا بالقوى الروحية والغيبية من

غيره رغم أنه بدا ملحدا لا يقيم أي شـعائر عقائدية، ولم يكونوا الوحيدين في سجن الأمن السياسي، بل كان هناك مئات السجناء والسجينات يعذبون بشدة في حجرات معتمة تحت الأرض، ثم حين ينتهي الجنود من ضربهم يطلبون من المعذبين أن يصـلوا، وكان البعض يصـلي مجبرا وهو يشـتم إله السـجانين ودينهم، وكلما كان ذنبك جسـيما في نظرهم يكون مأواك أكثر عمقا وكآبة، لذا احتل رفاقي أعمق الزنزانات وأكثرها عتمة وقذارة، وقضوا هناك مدة أسبوع فقط، ثم خرجوا بذلك المظهر الرهيب، ولا شك أنهم لو أمضوا شهرا كانوا سيفقدون أبصارهم وعقولهم نهائيا، وكان من المحتمل أن يموت الرجل المسن هادي سريع بسبب الضرب أو الصعق بالكهرباء. لذا قلت بشيء من الغم:

"هذا غير مقبول، لن أسمح لهم أن يعيدوكم إلى السجن، هناك جندي في السـيارة، لكني سـأتخلص منه قبل أن نصـل إلى المكان المعلوم الذي يريدون أن يقفشونا فيه"

تشبث بي نصر وهند قائلين بحرقة:

"لا تدعهم يعيدونا إلى السجن بأي حال"

أجبت بشفقة:

"لديّ خطة، سأتخلص من الجندي، ثم نذهب بعيدا، أنا انتظر الإشارة من السائق"

صاح نصر بفزع:

"الجنود أقوياء كالبغال، يختارون بعناية ويُدرّبون على القتال والعيش في أسوأ الظروف"

"اطمئن، سأصرعه في لمح البصر"

همست هند فجأة بذعر:

"لقد وضعوا في جسدي شيئا ما، لذلك هم يراقبونا الآن ويتنصتون على كلامنا"

وأشارت إلى صدرها، كاشفة عن خيط صغير من أسلاك التوصيل، فمددت يدي ونزعته بلا حياء، وعثرت على زر صغير يصدر وميضا مريبا، ويحتوي على ثقوب كثيرة كتلك التي توجد في السماعات، لذا حطمته، وفتشت جسد نصر بارتباك، ولم أجد شيئا، قلت بشيء من الهلع:

"لقد كشفوا خطتنا، لحسن الحظ أني لم أتكلم عن وجهتنا الأخيرة!" وضربت سقف السيارة على الجزء غير المكشوف، فمال الرجل الخمسيني على جانب الطريق ضاغطا على الفرامل بقوة، وقفزت من السيارة على الاسفلت، وتدحرجت على الأرض، وأصدرت صوتا متألما عندما أصيب كوعي، وحينئذٍ تخدر جسدي كله بالألم، وسمعت صوت الجندي يصرخ مهددا:

"تحرك أو أفجر رأسك"

صرخ بن جرجور بصوت غاضب:

"هناك شخص ما وقع على الأرض، ألم تسمعوا صوته؟"

رد الجندي المقنع محذرا:

"سأرى من يكون! لا أحد يخرج من السيارة"

وسمعت الرجل الخمسيني يهتف:

"دعنا نساعدك"

رد الجندي بحزم:

"ولا حركة أو أطلق النار عليكم"

واقترب مني الجندي المقنّع، بدا ضخما مرتفعا كمصارع روماني، ألقى سلاحه على الأرض، ثم رفعني بيد واحدة، وأخذ يضربني ويصفعني

بقسوة، فأخذت أسحبه بعيدا بكل ما أوتيت من قوة، ونظرت إلى نصر مستغيثا وأنفاسي توشك أن تنقطع، ثم أشرت خلسة إلى السلاح الملقى جانبا، فنزل من مؤخرة السيارة ببطء شديد، ودنا من السلاح الآلي بخطوات ضعيفة، حتى التقطه وهو يرتعش، وأطلق النار باتجاهنا دون تردد. فطار الدم على وجهي وصدري، وسقط الجندي مصابا بطلق في الرأس، وتعجبت كيف استطاع صديقي المعذب أن يصيبه رغم ارتعاش يده، بدا واضحا أن الرصاصة التي أطلقها تجاوزت رأسي ببعض المليمترات. وأدركت أنه لولا براعته في القنص لكنت من عداد الموتى، إثر ذلك تصفحت أجساد رفاقي حتى عثرت على جهاز تنصت عالق على ثياب الرجل المسن، وسمعنا صوت جهاز الجندي ينادي، فتركناه مرميا، ومضينا هاربين مخلفين موجة من الذعر في الشارع العام.

طفق أبوعلوة أو الرجل الخمسيني يلف ويدور في الشوارع الفرعية المجاورة، وبقينا نسير دون توقف حتى أعاقتنا جنازة تسير ببطء قاتل، يحف بها حشد من المواطنين المحليين، وهنا توقف الرجل الخمسيني جانبا، وطلب منا جميعا النزول والانخراط بالمشيعين للجنازة، فأخذنا حقيبة النقود الثقيلة، وغصنا في الحشد، وأمسى البعض يصافحوني بسبب اضطرابي وشكلي الحزين، والبعض ينظرون بشفقة إلى سفانة التي كانت تستر وجهها بشيء ما، خافضة رأسها وهي تسير بوهن ، أما رفاقي المعتقلين فقد بدوا كشحاذين بملابسهم القذرة التي أتوا بها من السجن، وأخذ البعض يدس في أيديهم بعض النقود، فحاولوا أن يعيدوها بخجل، لكن الرجل الخمسيني همس لهم أن يتصرفوا كشحاذين مهذبين حتى نتجاوز المقبرة، وسرعان ما مشينا بحذر بين الأضرحة، مبتعدين عن الجنازة حتى تسللنا إلى الخارج عبر باب خلفي صغير، ثم توغلنا بين أزقة ضيّقة حتى استقبلنا شخصٌ من معارف أبوعلوة، وقادنا بعيدا في سيارة مقفصة نوع برادو حديثة يلصق على زجاجها عاكس أسود يحجب الرؤية إلى داخلها، حتى خرجنا من المدينة.

ثم انتقلنا إلى سيارة أخرى حديثة نوع لاندكروزر، واسعة مريحة، ورآني رفـاقي أفتح حقيبـة المـال بحـذر، وأبوعلوة يردد أوامر الـدفع: "ادفع لصـاحب اللاندروفر ألفين" "ادفع لمسـئول الأمن ثلاثة آلاف" "ادفع لهذا الرجل خمسة آلاف، لن أخبرك عن اسمه أو عمله، لكنه بكل سرور، قدم لنا خدمة كبيرة، وبدونه لن ترونا الآن سـائرين في هذا المكان" أخذت بضع رزم إلى جيوب معطفي، وصرت أنتظر أوامر أبوعلوة، ولا أتردد عن تقديم أي مبلغ من المال لأي شخص يشير إليه، لأني صرت أثق بهذا الرجل الخمسيني ثقة عمياء، لاسيما بعد أن طرد الشيطان من رأسه، لكن الشـرير انتقل إلى رؤوس رفاقي الذين خرجوا لتوهم من أتعس معتقل في الكوكب، بحيث نظر بن جرجور نحوي قائلا بامتعاض:

"توزعون الآلاف من الدولارات دون أن تراعوا مشـاعرنا وظروفنا السـيئة، وكأنكم لا تدركون أني انفقت المال المخصـص للعمال عندما هربت معكم. أخبرونا كيف حصلتم على هذا المال. هل سرقتم بنكا؟"

ضحكت وقلت:

"لم نسرق، هذا المال يخصنا جميعا، ومن يريد أن يرسل لعائلته من حصته فليفعل"

هزوا رؤوسهم مستحسنين الفكرة، وقال الرجل المسن هادي سريع:

"أخشى أن يكون أفراد أسرتي ماتوا من الفاقة والحزن"

وتنحنح الشاب غالب الحلّاق قائلا:

"لا شك أن الرجل الفظ مداعس قد أقفل حانوت الحلاقة متهما عائلتنا بمساعدة الأشخاص الذين اختطفوا ابنته"

وقال نصر بأسف:

"لقد بحثنا عن الرب وهربنا بإيماننا إلى هذا الجزء القاسي من الصحراء، فأنسانا الشرير أن نتصل بأقاربنا"

وتكلم المعلم عثمان قائلا بضيق:

"أبنائي الصـــغار يقيمون عند عائلة والدتهم، وأخشـــى أن يُطردوا، ولا يجدون من يعولهم"

وقالت هند باغتمام:

"أمي المسكينة تعيش حياة تعيسة في بيت جدي، لا تدركون أن أبي طلّقها تعسفا دون أن يعطيها شيئا من المهر"

هتفت سفانة بتأثر:

"أيضا أمي، ستتلقى الفتات من الميراث، وسيأخذ أشقائي كل شيء، يا لها من مسكينة! لم تكتمل فرحتها يوم قراني، إذ لم أمكث معها سوى ساعة واحدة فقط، لذا يجب أن أواسيها بشيء من المال"

لم أقل لهم شيئا، وإنما قلت لنفسي شاكيا: "إن أبي أيضا بحاجة إلى المال، فهو فلاح فقير، أنفق الكثير من الجهد والمال على تعليمي، ويجب أن أرد له بعض ما قدمه لي من معروف، أما أمي فهي امرأة صـــارمة تقدس المال، وتؤمن أن كل شخص يساوي ما يملكه من نقود" لم يكن أبي وأمي وشقيقاتي يفارقون ذاكرتي، وخطر لي إرسال المال لهم منذ وقت قريب، لكن التحويل عبر البنوك أو الصـــرافين يترتب عليه أخطار جمة، وذلك لأن الزيود كانوا يراقبون التحويلات الداخلية والخارجية، ويحجزون المبالغ الكبيرة المحولة بالعملات الأجنبية، ولا شـــك أننا نحن بالذات مراقبون، وأسماءنا وصورنا منتشرة في كل مكان، وأن الكثير من الجنود ورجال الطوائف الاســـلامية يبحثون عنَّا. ونظر إليّ الرجل الخمســـيني أبوعلوة قائلا كأنه يقرأ أفكاري:

"هناك وســـيلة تقليدية للتحويل لكنها مأمونة، وهي أن نحول المال عبر النقل العمومي حيث سيضعها السائقون في أقرب محل لاستقبال الأمانات والطرود حتى يتسلمها الشخص المقصود ببطاقة الهوية أو حتى بدون وثيقة إثبات الشخصية في الطرود الصغيرة والرسائل والهدايا "

ووافقنا على هذه الوسيلة لأن الرسائل والطرود لا تخضع للتفتيش أو الفحص، وغالبية الأشياء المرسلة تكون طرودا وأدوات مكتبية، وأجهزة الكترونية خفيفة، وأغراض شخصية، وحتى وثائق وأوراق ورسائل مهمة وكتب وهدايا متنوعة. وعند محل حلويات وضبنا تشكيلة من الحلوى والمال في كراتين أنيقة، وكتب كل فرد عليها عنوان الشخص المرسل له ورقم هاتفه إن وجد أو هاتف شخص من معارفه، ولم نرفق أسماءنا الحقيقية على الكراتين، لكني تركت رسالة قصيرة إلى أبي قرب المال، أخبرته فيها أنني بخير، وسوف أعود في الوقت المناسب، وأن الله قدّر أن نعثر على شيء بغيض أوقعنا في المتاعب، وطلبت منه أن يقبل مني الهدية وذلك المال الذي كسبته بشكل مشروع، كما رجوته ألا يكترث بأي قول خبيث قد يسمعه عني، وأن يغفر لي كل الأشياء السيئة التي ألحقتها بالعائلة لأني لم أقصد أن أفعلها" وأقبل سائق يعمل في النقل العمومي، وشحن الكراتين في سيارته، وأخذ مني أجرته وغادر، وشعرنا جميعا بالارتياح وكأن عبئا ثقيلا انزاح عن أكتافنا.

لذلك عدنا إلى الطريق السريع، وأثناء سيرنا أمسك أبوعلوة جريدة محلية صدرت قبل أيام في مدن الشمال حيث يسيطر الزيود، وفتحها أمامنا، وظهرت صورنا وأعلاها ظهر عنوان عريض (صدور الحكم الغيابي من المحكمة العليا بإعدام الستة الأشخاص المتهمين بسرقة وثيقة الوحي من دار المخطوطات بصنعاء) وهؤلاء الستة المتهمون الظاهرون في الصور هُم، أنا، نصر، الرجل المسن هادي سريع، بن جرجور، هشام الطباخ، وغالب الحلّاق وأخيرا المعلم عثمان. ثم قدم لنا نسخة أخرى من جريدة "مأرب" الرسمية الصادرة قبل بضعة أيام، وفيها خبر القبض على عصابة قادمة من الشمال متهمة باختطاف فتاتين، واغتيال رجل دين سلفي معروف وعدد من مرافقيه، وشاهدنا صورنا وأسماءنا في أعلى الصفحة، ولم تظهر أي صور لسفانة وهند وزبن الله وكذلك المعلم الكبير، وأفصح لنا الرجل الخمسيني أن خبر المخطوط تسرب إلى الصحف الغربية والعربية، بل وتسربت مقاطع منه في وسائل التواصل

الاجتماعي، وانقسم الناس بين متعاطف وناقم، لكن معظم الجماعات الدينية لم تكف عن تكفيرنا وتجريمنا في مواقعها الالكترونية وصحفها الصفراء، كما أن قضيتنا أثارت جدلا واسعا في مأرب بين القادة في الداخلية والأمن والرأي العام، وغالبية قوى الضغط من الجماعات الدينية في المحافظة طلبت القبض علينا ومعاقبتنا، بل إن أفراد قبيلة الأشراف التي تنتمي عرقيا ومذهبيا للزيود دخلوا في خط المواجهة، طالبين القبض على هؤلاء المتهمين الستة، وتقديمهم للعدالة بأسرع وقت. وقد حاولت وزارة الداخلية أن تجد تقريرا واضحا يثبت التهم والجرائم التي نسبت إلينا. حيث بدت القضية في التقارير غامضة والصياغة تشير إلى قيامنا بالتهريب والاختطاف أو القتل، ولم يذكروا الأشياء التي قمنا بتهريبها، ولا أي أدلة حقيقية تثبت ضلوعنا بالاختطاف أو القتل، كما لم يتحدثوا عن المخطوط، لأن بعض قادة الإخوان المسلمين في مأرب خافوا أن يتكرر ما حدث في الجوف، ومن ثم يحدث الارتداد ذاته من الإسلام إلى المسيحية، لذا صاروا يتحركون سياسيا لمناقشة الأمر بهدوء تام، وحبذوا أن تتم تصفيتنا غيلة، وتدفن جثثنا بهدوء، لكن الرجال المتعصبين في جماعتهم والسلفيين حبذوا أن يتم إعدامنا بأي حال، وبدوا واثقين بأنفسهم ودينهم إلى حد كبير. وهكذا حدث كثير من التضارب في الرؤى والأفكار والخطط والأوامر، وازداد الشد والجذب بين هؤلاء وأولئك، وهذا وذاك من القادة الذين ينتمون إلى الجماعة نفسها أو إلى الجماعات الأخرى السياسية والدينية، وضاق الجنود ذرعا بهذه التصرفات والأوامر الطائشة، ووجدوا أن الأمر تحول إلى مهزلة، لذا حبذوا أن يستفيدوا من هذا الوضع الفوضوي، فأخذوا الرشوة وأغمضوا عيونهم قليلا عما يجري، لكني كنت أدرك أن هذا الحال لن يدوم طويلا، وما هي إلا فسحة لالتقاط الأنفاس وحسب. وفهمت أن البقاء هناك طويلا يعني الاقدام على الانتحار. فالناس أصبحوا منزعجين من الفوضى السائدة في المحافظة، لاسيما بعد انتشار خبر اغتيال زعيم قبيلة عبيدة الذي أثبت الطب الشرعي أنه تعرض لكسر عنيف في العنق.

كان خبر فرارنا لم ينتشر بعد، لأن مدير الأمن والمتورطون أبلغوا عن سيارتنا وحسب، ثم خرجوا بأنفسهم يبحثون عنّا، وهذا يعني أننا وجدنا فرصة سانحة للهروب بأسرع وقت ممكن، وفي البداية توقع الرجل الخمسيني أن يستقبلنا موظفو أرامكو لدواعي إنسانية، إذ بدا مظهر المعتقلين مشينا، وحالتهم الصحية كانت تبعث على الرثاء، ولكن أحيانا بوسع الأمريكيين أن يرفضوا طلب لجوئنا ببساطة بسبب تضارب المصالح، فمثلا، لا أحد يدرك أن غالبية الجماعات والطوائف الدينية والأحزاب السياسية النشطة في البلد هي في الغالب فروع للاستخبارات الغربية، كما أن القادة ورجال الدين جنرالات ذوو رتب عليا، والمؤمنون جنود ذوو مراتب مختلفة سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوا، والأموال تأتيهم بسخاء، وحتى المنح الدراسية تسجل لأبناء القادة ورجال الدين المرموقين، وغيرها من الامتيازات المعيشية، وكل هذا مقابل أن يثيروا الفوضى ويضعفوا قوانين البلد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بحيث تظل الشركات الغربية الكبرى محتفظة بالامتيازات والثروات القانونية وغير القانونية الممنوحة لها من النخب السياسية الفاسدة، ومن ثم تبقى هذه الشركات أمدا طويلا وهي تأخذ الكثير مقابل القليل من الخدمات والمال للميزانية العامة، ولسان حال هذه الشركات يقول: إذا كان أبناء هذا البلد يعيثون فسادا في أرضهم ولا يطبقون القانون، فهل يجب علينا نحن الأجانب أن نلتزم بالنظام والقانون في بلدهم! لأننا إن فعلنا ذلك سوف يختلقون لنا كثيرا من المتاعب، ونستبدل بشركات منافسة تقدم لهم الرشوة بسخاء. لذا فمصالحنا تستدعي أن نشارك في الفساد.

وفي حالتنا تكمن المعضلة أن تدرك الجماعات الدينية أننا نهرب باتجاه الشركات الغربية، لأن بوسع اتصال واحد من مسؤول فاسد رفيع أن يعرقلنا عن السفر، وهذه الشركات لا يمكنها أن تتجاهل مطالب حلفائها الفاعلين في البلد. فالمصالح الاقتصادية هنا تسبق مبادئ حقوق الإنسان والحيوان والبيئة أيضا، وما يجري بيننا وبين الشركات النفطية والجماعات الدينية والنخب السياسية والعسكرية الفاسدة لا يختلف عما

يجري في براري افريقيا، وعلى افتراض أن أسـدا أو ضـبعا كان يطارد حمل غزال وديع، وأثناء المطاردة يتجه هذا الحمل المسكين نحو سيارة لبعض السياح الواقفين للفرجة، وسرعان ما يدفعهم الهلع أو حتى التفلسف الفارغ أن يهربوا من طريق الحمل الوديع الذي يتقدم نحوهم، وبهذا يفسحوا الطريق للأسد أو الضبع لتطويقه، وأحيانا قد يطردوا الحمل الصغير نحو الأسد أو الضبع، ولسان حالهم يقول دعوا الظواهر الطبيعية في البرية تجري دون تدخل، فنحن اليوم هنا، وفي الغد لسنا في هذا الموضع، وحينها من ينقذ الحمل من المفترسين! لا بأس، بوسعنا أن نقبل بهذا الأمر في حال ظلت السيارة واقفة في مكانها، وكأنها صخرة أو شجرة، بحيث يلوذ بها الحمل للاحتماء أو يتجاوزها، لذا ليس من حق الأشخاص الذين يتبنون نظرية عدم التدخل في ظواهر الطبيعة وقوانينها أن يمنعوا الحمل من الاختباء خلف السيارة، كما ليس من الجميل أن يطردوه نحو المفترس، وهنا هل نلوم الأسد أم السياح أم الحمل الصغير أم قانون الغاب؟ بطبيعة الحال، بوسعنا أن نلومهم جميعا، باستثناء الحمل الصغير الذي يحاول أن يحافظ على بقائه، فهو ضعيف وعاجز ولا يفهم سوى القليل عن قانون الغاب! سنتمنى أن يجري الحمل خلف السيارة، ويقفز إلى أحد المقاعد، لأن الأسد رغم خطورته وضخامته لن يجرؤ على مهاجمة مجموعة من السياح في سيارة، وكذلك السياح رغم جبنهم لن يجرؤوا على طرد الحمل من سيارتهم! لأنهم بهذا سيتدخلون بالظواهر الطبيعية...

قاطع الرجل المسن كلام أبوعلوة قائلا بنبرات حادة:

"توقف جانبا يا رجل، دعوني أعود إلى الأسد، أرجو ألا تتدخلوا أو ترفضوا..."

ضحك أبوعلوة قائلا بعجب:

"لماذا تريد أن تفعل ذلك بعد كل ما جرى؟"

"على الأسد أن يتقوت بشيء ما، كما أني لم أعد أحتمل الهروب طويلا"

"أخشى أن أكون أضجرتك وأفزعتك بحديثي"

"على العكس، لقد أضأت لي الدرب، كما ترى، أنا لست حملا"

توقفنا على الطريق العام، فترجل الرجل المسن، ونزلت خلفه، وعانقته مودعا معتذرا عن كل ما لحق به من أضرار، ووضعت في كفه رزمة من الدولارات كمصروف طريق، فأبعد يده عنها بتأفف، وقال بتهكم غريب ملوحا بيده:

"تشرفت بمعرفتكم يا أبنائي، طالما يقول الأغبياء إننا سنلتقي في النعيم! من يدري!"

وعدت إلى السيارة بقلب موجوع، وخيم الوجوم على الجميع حتى قال أبوعلوة بأسف:

"أتظنون أن حديثي كان مزعجا"

رد بن جرجور بعصبية:

"بالطبع، إن حديثك عن الحمل الوديع ينفخ الخصيتين ولا يعطي أملا بالنجاة"

قلت متظاهرا بالمرح:

"دعونا نضحك ونتذكر أجمل اللحظات"

رفعت سفانة علبة الكوكاكولا عاليا صائحة بفرح:

"نخب القلب العامر بالفرح والتصالح مع الأهل والأقارب"

قرعنا العلب ببعضها مرددين كلماتها الحادة، باستثناء هند ونصر اللذان لم يقرعا بسبب وازعهما الديني، فقلت بصدق:

"زواجي من سفانة هو أجمل لحظات حياتي، وإذا كان ما حدث وسيحدث من متاعب هو ثمن سعادتنا فلا أبالي بما سأدفعه في سبيل أن نكون معا بأي حال"

صــفقوا لهذا الخطاب المشــحون بالحب والعاطفة باســتثناء هند ونصــر اللذان عبرا عن أجمل لحظاتهما بطريقة روحانية وعاطفة دينية جياشـــة، فقالت هند:

"أجمل لحظات حياتي حين عرفت الرب يسوع، وتعمدت على كلمة الله وروحه القدس"

وقال نصر دون إسهاب:

"أجمل لحظاتي حين أصلي للرب وأنشد بركاته"

وعبّر البقية عن لحظاتهم الســـعيدة بأنها حين بعثوا المال إلى ذويهم، وأضــاف المعلم عثمان أنه ســعيد للغاية لأنه لن يعود ثانية إلى المدرســة التي أهين فيها، ولن يكون مرغما على الكذب على تلاميذه لإنقاذ القرآن من الخطأ النحوي الذي كان سببا في تعاسته. في تلك الأثناء، كانت سفانة ملتصــقة بجســدي بشــغف حاد وكأنها تخشــى أن يخطفني منها شــيء ما، وكنا في غاية التجلي الروحي والعاطفي، في حين بدت هند تراقب ما نفعله ونقوله بغيظ وتنمر، وقالت أخيرا بصـــوتٍ قاسٍ راســـمة علامة الصليب:

"إنك تحضنين الشيطان يا أختي، وهو يغويك بهذا الجسد الآثم والمال المشبوه"

ردت سفانة بحنق:

"إن كان الشيطان بهذا اللطف والحنان فلن أفارقه إلى الأبد، لكن هذا هو سام الذي أنقذك من والدك ومن السجانات اللئيمات"

وسألني نصر بشكل مباغت:

"هل هذا المال هو ثمن المخطوط؟"

أجبت بشيء من الرهبة:

"نعم، لقد أرغمت على بيعه لتحريركم من السجن، أليس إنقاذ الروح البشرية أكثر أهمية من إنقاذ الكنيسة؟"

رد بشكل غير متوقع ناظرا إلى سفانة باحترام:

"أنتما ثنائي صالح، ليباركما الله، كما تريان، لقد نذرت نفسي لخدمة الرب، ولم يعد بوسعي الرجوع عن ذلك الهدف"

وعانقني باكيا، وتابع بصوت متقطع:

"نحن جميعا نبحث عن الجوهر النقي وإن تشعبت بنا الطرق والأفكار، وقد ثبت أن الرجل المسن هو إنسان مبارك وصل بشكوكه إلى ذروة التجلي الروحي، لذا استطاع أن يتكهن بمصيرنا، ولأجل ذلك يتحتم أن أتبعه لأنهل من بركاته"

أوقف أبو علوة السيارة، فترجل صديقي الراهب، ونزلت هند خلفه دون تردد، وقفزت خلفهما قابضا على رزم المال قائلا باستياء:

"هيه، خذوا مصروف الطريق، لن تستغنوا عن المال"

سمعته يقول بشيء من اليقين:

"لم يعد الطريق طويلا يا سام، لذا لا أحتاجها"

وهتفت هند بحنق روحي غريب:

"دع المال لك وامرأتك، لأن رحلتنا توشك على الانتهاء"

رميت الرزم بحنق، وعدت إلى السيارة باكيا، ونزل أبو علوة بتوتر، وجمع الرزم ودسها في جيوبه، وواصل قيادة السيارة دون اكتراث، وحقدت على هذا الرجل المجهول، ودار في ذهني أنه اختلق ذلك الكلام المضجر المتشائم ليرهب رفاقي حتى يجعلهم يتخلون عن حصصهم من المال، ومن ثم يحصل على نصيبه كاملا، مليون دولار لا ينقص منه شيء، وربما فكر هذا الرجل الجشع بالحصول على المزيد، ورغم ذكائه وما قام به من أعمال جليلة إلا أن طمعه وحبه للمال جعله يبدو بغيضا.

نظرت نحوه بغضب وحزن، وساورني الشك أن بوسع الشيطان أن يلبس رداء رجل بدوي شـــهم، ويضـــع نفســـه بين أشـــخاص كانوا يبحثون عن الحب والإيمان، ومن ثم دفع البعض نحو الهدف الذي لم يكن ينشـــــده، والبعض الآخر حقق بعض أحلامه، لكنه على كل حال جعلنا نفترق شذرا مذرا، فعل ذلك في الوقت الذي كانت الحياة تفتح ذراعيها لاســـتقبالنا بحفاوة، لننعم ببعض الســـلام، كان الرجل الخمســـيني يراقبني عبر المرآة العلوية مبتهجا متعجبا من استيائي.